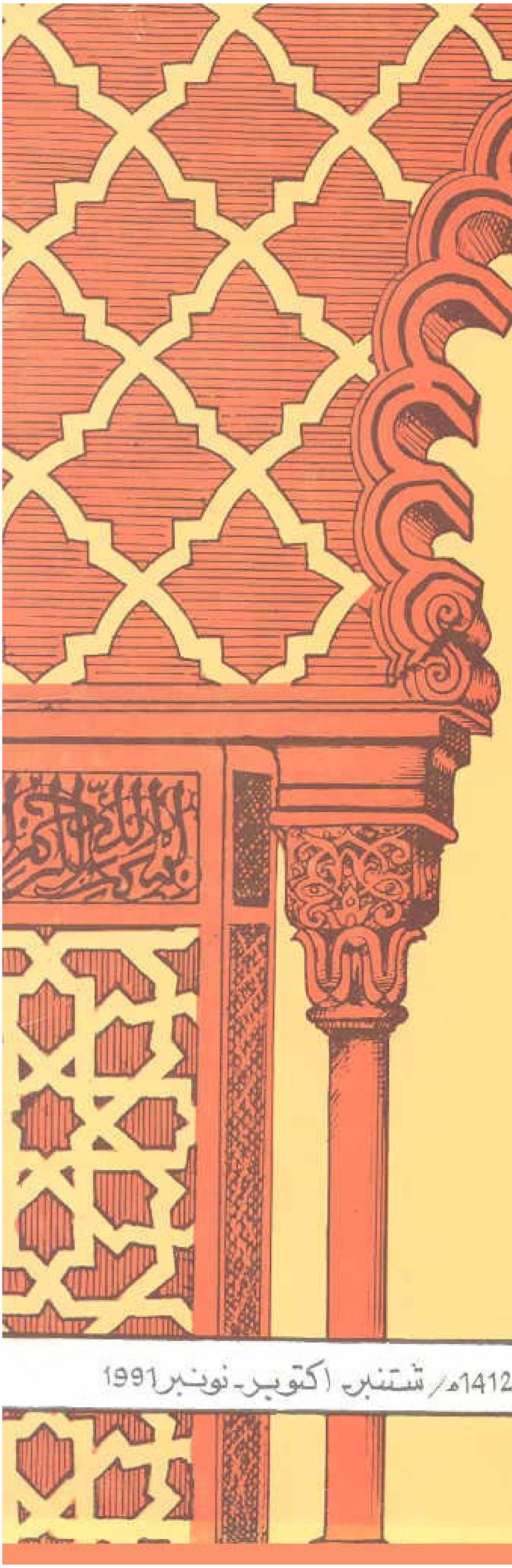


دعوة الحق

مجلة شهرية
تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

صدق الله العظيم

العدد 286 • صفر - ربيع الأول - ربيع الثاني 1412هـ / شتنبر - اكتوبر - نونبر 1991

تصدرها
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

وكفى بالله وليا
وكفى بالله نصيرا

صدق الله العظيم

معاشر المسلمين

إن من منن الله على خلقه ورحمته بهم.. أن بعث فيهم سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه برسالة إلهية هي خاتمة الرسالات تهديهم إلى محجة الصواب وتفتح لهم من وجوه الخير كل باب فأدى الرسالة وبلغ الأمانة وترك من بعده كتاباً محكم الآيات، من تمسك به لم يضل وسنة وثيقة الأسانيد والروايات من اقتفى أثرها لم يزل..

من رسالة مولانا أمير المومنين جلالة الملك
الحسن الثاني نصره الله وأيده
إلى الأمة الإسلامية
بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري

افتتاحية العدد

الحق يعلو ولا يعلى عليه

من الكلمات المأثورة الشهيرة، والأقوال المعبرة الصادقة والعبارات المشرقة الناصعة، الجارية على الأقلام والألسنة، القول بأن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

إنها ـ حقا ـ كلمة ذات دلالة كبيرة، ومغزى دقيق، وبعد عميق، لها ثبات ورسوخ متأصل في قلب كل مسلم ونفسه، وفكره ومشاعره، تتجاوب مع إيمانه ويقينه بربه، وتنسجم مع اعتقاده واطمئنانه لخالقه الذي بيده كل شيء، وله الخلق والأمر.

ذلك أن لكلمة الحق في الإسلام معاني جليلة، ومفاهيم عظيمة، أعطتها قدسية وجلالا، وأكسبتها مهابة وجمالا، ومنحتها احتراما واعتبارا، ومكنت لها حبا راسخا، وتعلقا بها من كل مسلم ومسلمة.

فالحق اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العلى، التي وصف بها نفسه، وأثبتها لذاته في كثير من آيات كتابه العزيز، فقال تعالى: **﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾**، وقال سبحانه: **﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾**، وقال: **﴿فتعالى الله الملك الحق لا إلاه إلا هو رب العرش الكريم﴾**.

والحق - أيضا - اسم للقرآن الكريم، ولدين الإسلام الحنيف الذي ارتضاه الله للناس شريعة، ورضيه لهم دينا، وكان مولد النبي ﷺ بشارة وإرهاصا، وإيذانا بأن الأرض ستشرق بنور ربها، ستشرق بنور الإسلام وهداية الإيمان، وشريعة القرآن، بعد أربعين سنة من المولد النبوي الشريف، فكانت بعثته ﷺ حقا، وكان دينه الذي جاء به حقا، ورسالته التي بعث بها إلى الناس كافة وللعالمين رحمة - حقا -، تكفل الله لها بالنصر والفتح المبين، وأنقذ بها هذا النبي الكريم الإنسانية من ظلمات الجهل وباطل الكفر والضلال، وكان لهم بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فقال تعالى في حق نبيه الكريم: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**. وقال سبحانه: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**. وقال : **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**. وقال: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾**.

وهذه الدلالات الجليلة والمعاني السامية، لكلمة الحق ومفهومه في الإسلام. جعلت ما سواها من النقائض والأضداد باطلا مدحوضا، وتقليدا محجوجا ومرفوضا. فالكفر والجهل، والكذب والبهتان، وخلف الوعد، ونقض العهد، والتنكر لفضائل الدين وقيمه، باطل وضلال، والعقوق للوطن ومقوماته، والخروج عن أمة الإسلام والانشقاق عن جماعته وأهله، وغيرها من ذميم الأقوال والأعمال، باطل وضلال، لا يلبث أن ينحدر ويزول أمام الحق الراسخ، وصموده الثابت، مصداقا لقول الله تعالى: **﴿ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما تدعون من دونه الباطل، وأن الله هو العلي الكبير﴾**، وقوله تعالى: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه**

فإذا هو زاهق﴾، وقوله تعالى: **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾.**

والحق أيضا في معناه الشمولي، وفي المنظور الإسلامي الواضح، يتناول كذلك ما شرعه الله للإنسان وكرمه به من حقوق ومكاسب مادية ومعنوية، وغرس في نفسه وشعوره من حب رعايتها وحمايتها، والعمل على حفظها وصيانتها، بكل ما أوتي المومن من إيمان ويقين، وحول وقوة، سواء على مستوى الفرد أو الأمة، بدءا من الدين والنفس، والنسب والعقل، والشرف، والمال، والأرض والوطن، والحرية والكرامة، والاستماتة في التعلق بها والدفاع عنها بكل الوسائل المكنة، ولو بلغت درجة التضحية من المسلم في سبيلها استرخاص النفس والحياة، حتى تكتب له الشهادة، كما قال النبي ﷺ: «من قُتِل دون نفسه فهو شهيد، ومن قتل دون عِرضه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد». وأرض المسلم التي يعيش عليها، ووطنه الذي ينتمي وينتسب إليه، جزء من حياته وحريته وكرامته التي ينعم بها، جزء من وجوده وشخصيته، وعزته ومعنويته التي يعتز بها، ويرفع بها رأسه عاليا بين الأمم والشعوب في كافة أنحاء المعمور. ومن ثم كان المسلم لا يسمح بالمساس بدينه ومقدساته، ولا بوطنه ومقوماته، ولا يرضى النيل والانتقاص من أرضه وسيادته، بل يقف في وجه ذلك من أي مستعمر أو مرتزق دخيل كان، وفي أي مكان أو زمان كان، حتى يثبت الحق ويظهر ويصان، ويتحقق له العز والانتصار.

وانطلاقا من تلك المعاني والدلالات الجليلة لكلمة الحق وعلوها حسا ومعنى، ومن الإيمان الراسخ من الشعب المغربي المسلم المجاهد، وتشبثه بدينه القويم ورصيده التاريخي والحضاري الأصيل، واعتزازه بمرتكزاته الأساسية الثابتة، عاش جهادا مستميتا ونضالا طويلا ضد الاستعمار بمختلف أنواعه وأشكاله، وقام بذلك الجهاد في ظل العرش العلوي المجيد، وبقيادة عاهله العظيم الملك المجاهد بطل التحرير والاستقلال جلالة المغفور له محمد الخامس،

رحمه الله وطيب ثراه، وبمعيته ورفقته وارث سره وولي عهده آنذاك جلالة الحسن الثاني نصره الله وحفظه، فخاض هذا الملك المومن، الشهم الوفي، وشعبه الأبي، المعركة الفاصلة ضد المستعمر، وكتب أروع ملحمة جهادية في تاريخ جهاده الكبير ونضاله الطويل، من أجل الانعتاق من العبودية والاستعمار، والتمتع بنعمة الحرية والاستقلال، تحقق فيها الانتصار للحق والمشروعية، وللكرامة والحرية، التي احتفل الشعب في منتصف نونبر الجاري بأعيادها المجيدة الثلاثة، وبذكراها السادسة والثلاثين للعودة الميمونة المظفرة للأسرة المالكة من المنفى التي حمل فيها جلالة المغفور له محمد الخامس إلى شعبه الكريم بشرى انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية، بفضل التلاحم والتجاوب المتين القائم بين الشعب المغربي العزيز، وعرشه العلوي المجيد، مما استوجب الحمد لله والشكر لله سبحانه على تلك النعمة الكبرى، بقوله سبحانه : ﴿**الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور**﴾.

وبنفس الإيمان واليقين بالحق ومشروعيته، والإرادة الصامدة والعزيمة القوية لتثبيته وصيانته، نظم المغرب أكبر مسيرة سلمية عرفها العالم في تاريخه الحديث المعاصر، وأثارت اندهاشه وتقديره وإعجابه، إنها المسيرة الخضراء التي أبدعها وخطط لها وقادها منذ ستة عشرة سنة خلت، رائد الأمة الملهم وقائدها العبقري المظفر، أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، واستجاب له شعبه المومن الوفي في تلقائية منقطعة النظير، تلك المسيرة التي حققت انطلاقتها الموفقة المباركة استرجاع الأقاليم الصحراوية المغربية من استعمار السلطة الإسبانية، بعدما أكدت محكمة العدل الدولية أن تلك الأقاليم لم تكن أرضا خلاء بدون سلطة شرعية، بل إنها مع سكانها ظلت منذ قرون وأجيال مرتبطة بالمغرب، وبرابطة الولاء والبيعة الشرعية لملوك الدولة العلوية الشريفة وعرشها العلوي المجيد.

إنها المسيرة الخضراء التي سارت بها الركبان، وأصبحت معجزة القرن العشرين، وعلى طرف كل لسان، والتي خلد الشعب المغربي هذه الأيام الذكرى السادسة عشرة لانطلاقتها المباركة، محتفلا ومبتهجا بما أصبحت تنعم به تلك الأقاليم الصحراوية المغربية المندمجة في حظيرة الوطن من نهضة وعمران وتقدم وازدهار في كل ميدان، وبما تحقق لها ولأبنائها من استقرار واطمئنان، وبما سيتحقق لها بحول الله وعونه، بعد الاستفتاء التأكيدي لمغربيتها، من مزيد النهوض والنمو، واطراد الرقي والكمال، وإسعاد أبنائها المغاربة الأصلاء الأحرار، الأوفياء الأبرار، لدينهم ووطنهم المغرب، محافظين على عهدهم بذلك حتى ينالوا به الأجر العظيم. والثواب الجزيل، مصداقا لقول ربنا الكريم: ﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما**﴾.

إنها ذكرى عظيمة ابتهج لها المغرب من أقصاه إلى أقصاه، وفي مدنه وقراه، وهو يرى المنجزات العظيمة تلو المنجزات الكبيرة تحققت لأقاليمنا الصحراوية المسترجعة، وتتحقق بتواصل واستمرار لكافة مدن وأقاليم المملكة، بفضل القيادة المومنة المجاهدة، والريادة الحكيمة الموفقة، لراعي البلاد الأمين، والساهر اليقظ على سيادتها وضامن وحدتها واستقرارها، وعزها ومجدها واطمئنانها، الملك المجاهد الصالح المصلح، أمير المؤمنين وحامي حمى الوطن والدين، جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأدام له النصر والفتح والتمكين، وحقق على يده المباركة المزيد من الخير والإسعاد، والرخاء والهناء لشعبه الوفي، ونصره وأمده سبحانه بعونه ومدده وتوفيقه، مصداقا لقول ربنا الكريم: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾.

دعوة الحق

الخطاب الملكي السامي
لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
نصره الله وأيده
بمناسبة الذكرى السادسة عشرة لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة

بمناسبة الذكرى السادسة عشرة لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة، وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده خطابا ساميا إلى شعبه الوفي، وذلك يوم الثلاثاء 27 ربيع الثاني 1412هـ موافق 6 نونبر 1991م، من القصر الملكي العامر بمدينة مراكش.

وقد كان جلالته ـ حفظه الله ـ أثناء توجيهه لهذا الخطاب محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد، وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي، الأمير مولاي رشيد، وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي هشام.

وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي الذي نقل مباشرة على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز..

من هذه المدينة مدينة مراكش، ومن هذا المكتب وعلى هذا الكرسي، دعوتك إلى تنظيم مسيرة خضراء تسير بنا من جميع أطراف المملكة إلى أقاليمنا بالصحراء.

فلبيت النداء واستجبت الدعاء وسرت رجالا ونساءا، وهَبَّ كل واحد منك إلى المراكز التي قررناها له ليشارك في هذه الملحمة الوطنية التي لم يسبق لها نظير.

وقد أدى بك ـ شعبي العزيز ـ حماسك وتطلعك إلى بعض المخالفات القانونية حتى تتمكن أنت المواطن وأنت المواطنة من.



لشاركة في المسيرة فغضضنا الطرف. حمدنا الله سبحانه وتعالى وقلنا في قرارة فسنا.. هذه من صور الحرام ـ الحلال.

وها نحن اليوم ـ شعبي العزيز ـ بعد سنوات وسنوات لم نقم فقط بالمسيرة بل شناها بأكبادنا وأفئدتنا وعقولنا سواعدنا وأموالنا وفلذات أكبادنا. لقد شناها وربيناها حتى نجعل منها إن ناء الله شيئا لا مرد له، وحتى نجعل نها هدفا قدسيا لا يمكن لكل أحد منا أن تناساه أو أن يتنكر له.

وكما قلت لك شعبي العزيز في خطابي وم افتتاح الدورة البرلمانية فإن جميع قومات الرهان المربوح موجودة، ولا زلت أوكد أن الاستفتاء التأكيدي سوف يؤول إن شاء الله إلى ما كنا نتوخاه ونرجوه. فالرهان مربوح والصحراء مغربية. نعم هناك بعض اللمسات التي يجب أن نضعها لتحديد المقاييس التي تجعل من فلان رجلا صحراويا يمكنه أن يصوت أو تجعل فلانا لا يشارك في التصويت، وما عدا هذا فإن كل شيء ولله الحمد يسير كما نحبه ونرضاه.

نعم إن هذه أول تجربة بالنسبة للمغرب. فلأول مرة يجد على أرضه إدارة دولية وجيوشا دولية رمزية. ولكننا رعيا للفضيلة الدولية واحتراما منا للقانون الدولي، قلنا: إن الجندي المغربي أو العلم

المغربي لايمكنه أن يقبل تواجد أي جيش أو أي علم إلا علم هيأة الأمم المتحدة وجيوشا تكون منضبطة تحت لواء الأمم المتحدة.

فالإدارة على الأرض لنا، والسيادة فيها لنا، وكل شيء يسير بأوامرنا وقوانيننا وتنظيماتنا. لا وجود لما يسمى هناك بالسيادة المزدوجة أو الإدارة المزدوجة. فكل ما روج في هذا الباب إنما هو من سبيل الأكاذيب والحرب البسيكولوجية والتشكيك. أما نحن فيمكن أن نقول: إن السيادة المغربية هي التي تسود الصحراء، والقوانين المغربية هي التي تسير عليها الصحراء، وأحسن من هذا وذاك. فإن القضاء الذي هو الرمز ورمز الرموز يصدر أحكامه باسم جلالة ملك المغرب.

إذن كما قلت لك شعبي العزيز، لم تبق إلا مدة قليلة نريد خلالها أن نضع النقط على الحروف وأن نضبط الأمور بالخصوص، للإحاطة تماما وبكيفية مدققة بما يرمي إلى الصحراوية، وبما يرمي إلى المقاييس التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ليسمح لهذا أو ذاك أن يشارك في التصويت أو يمنع هذا وذاك من المشاركة في التصويت. فهذه المدة التي تفصلنا عن تاريخ الاستفتاء، علينا أن نقضيها ونحن في أحسن ما يكون من اللياقة الفكرية والسياسية. فعلينا أن نقضيها في تفاؤل وعزم وحزم، علما منا ـ شعبي العزيز ـ أن هذه الفترة التاريخية بالنسبة لنا التي ستكون معلمة من معالم تاريخنا هي فترة تفصل بيننا وبين حياة سياسية جديدة ذلك أننا ـ كما قلنا لك ـ سنقوم بمجرد ما يتم الاستفتاء بإجراء الانتخابات العامة ليتمكن المغرب من التعرف على الجديد من أبنائه. وعلى الجديد من أبنائه أن يتمكنوا من الإدلاء بآرائهم ونصائحهم وتوجيهاتهم لنسير بهذا البلد في جو من الإخاء والحوار والديمقراطية البناء.

فالسنة المقبلة سوف تكون إن شاء الله ـ كما ترى شعبي العزيز ـ سنة حاسمة بالنسبة لصحرائنا ومصيرنا الترابي، وسوف تكون كذلك سنة حاسمة بالنسبة لمسارنا نحو القرن المقبل. وكما قلت لك دائما، فما عدا المبادىء والأسس التي يجب أن تبقى هذه الدولة قائمة عليها كركائز لا يمكن نهائيا أن يجادل أو يناقش فيها أحد، ألا وهي الإيمان بالله، والاستماتة في سبيل الوطن، والإخلاص والتشبث بالملكية الدستورية، ستطرح أمامنا سنة بعد سنة وحقبة بعد حقبة اختيارات اقتصادية واجتماعية.

إيانا أن نعتقد ــ شعبي العزيز ــ أن انهيار العالم الاشتراكي قد سهل المأمورية، فبالعكس، فإن انهيار العالم

الاشتراكي الشيوعي سيضع أمامنا اختيارات جديدة لا من حيث المبدأ أو الاختيار ولكن من حيث التطبيق ومن حيث الأسبقية.. أسبقية هذا على ذاك.

وأخيرا - شعبي العزيز - سنعيش عالما، ربما فقد توازنه، لأنه لم تصبح فيه إلا دولة عظمى واحدة. ولكن علينا أن نعلم أن قرآننا لا يسمح بهذا. فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العظيم: ﴿**ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾.

وهكذا يكون دائما المد والجزر. فسنة الله في خلقه وفي التاريخ أن يكون هناك دائما توازن يمكن البيئة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من أن تتكىء على رجلين لا على رجل واحدة. فسوف نرى تغيرات جديدة في العالم، وسوف نرى قوى جديدة تنمو وتترعرع بالعالم، وربما لم نفكر بما فيه الكفاية في عالم الشرق الأقصى.. عالم الصين واليابان وماليزيا وأندونيسيا وكوريا، إما الموحدة أو غير الموحدة، وتايوان، وما إلى ذلك من الدول التي لها مقوماتها وإمكاناتها ولها مستقبلها لأن لها ماضيها.

فهنيئا إذن للمقبلين على السير بجانبنا بهذا البلد الأمين نحو سعادة أكبر ورفاهية أعظم. فطوبى لهم لأنهم سيكونون - بعدما يقع اختيار الشعب عليهم في منصة تمكنهم من أمرين:

الأمر الأول هو أن يكدوا ويجتهدوا ويجدوا لصالح بلدهم، والأمر الثاني هو: أن يواكبوا ويسايروا بمراقبتهم وعملهم ووجودهم في مراكز المسؤولية هذا العالم الذي يجتاز في نظري فترة من أهم فترات تاريخ المعمور والبشرية.

فلنتهيأ جميعا - شعبي العزيز - لاستقبال هذين الحدثين: حدث استكمال الوحدة الترابية بدون أي منازع، وحدث الإشراف والإطلالة على عالم جديد وعلى تكوين قوى جديدة تكون التوزان الذي بدونه لا يمكن للمرء أن يعيش في اطمئنان. فلنتهيأ - إذن كما قلت - لك لهذه المرحلة. وكن دائما على يقين أنك ستجد في ما وجدته دائما الحارس الأمين والساهر الذي لا ينام على وحدة ترابك وسعادة أبنائك، والقائم بواجبه إلى آخر نفس، والمضحي بكل غال ونفيس في سبيل عزتك ومجدك وإعلاء علمك وسمعتك. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يكون دائما بجانبنا جميعا برا بوعده سبحانه وتعالى حين قال: ﴿**وكان حقا علينا نصر المومنين**﴾.

شعبي العزيز :

من يوم انطلاق المسيرة إلى يومنا هذا عايشنا وخالطنا رجالا إخوانا لنا مغاربة

منهم من قضى نحبه ومنهم من استشهد ومنهم من ينتظر.

ولكن كلنا ولله الحمد نحمد لمن فات عمله، ونترحم على من استشهد ونتشبث بعضنا ببعض كسلسلة واحدة متراصة للذين ينتظرون ثواب الله للعمل المثري الغني يوما بعد يوم لصالح بلدنا ولعزة شعبنا.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يديم علينا هذه الشعلة وأن لايطفىء في قلبنا إذكاءها، حيث أن الشعلة هي المحرك الأساس لكل وطني ولكل مواطن يريد أن يكون كل يوم من أيامه غزوة جديدة وعملا جديدا وملحمة جديدة. فإذا نحن قصرنا داخل أنفسنا أو في أعمالنا في طلب هذا المثل الأعلى وقصرنا في طلب الفضيلة وفي طلب الكمال لا قدر الله، لن نكون تلك الأمة المحبوبة عند الله التي تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



أبحاث ودراسات وقصائد

الدروس الحسنية في المغرب*

للأستاذ نياز شكرتش
من علماء يوغوسلافيا

أستاذ بالكلية الإسلامية بسراييفو

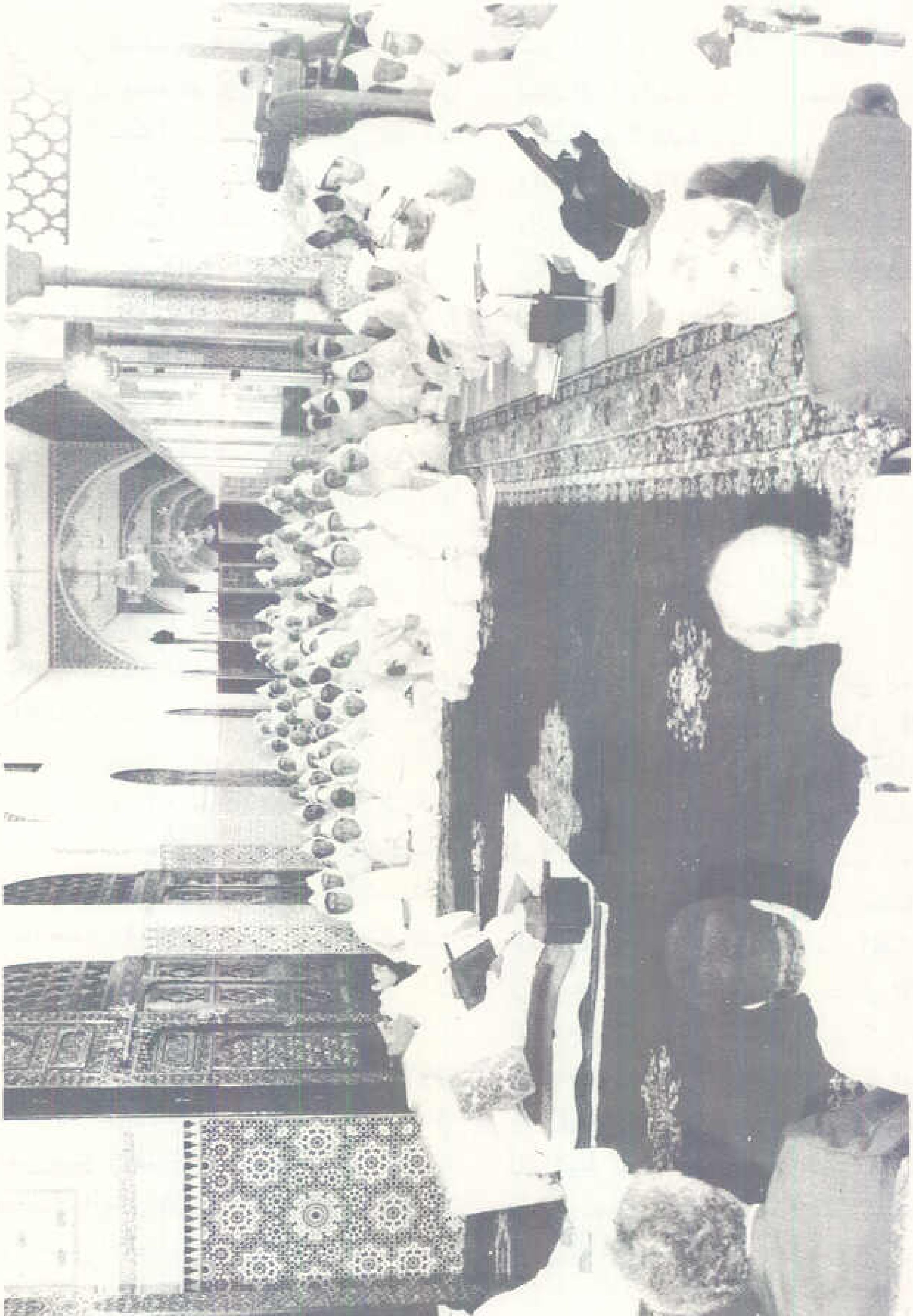
يحتل المغرب في إفريقيا موقعا جغرافيا وسياسيا مهما للغاية، ويعد من أجمل بلدان العالم العربي. مساحته تفوق نصف مليون كلم2، وتعداد سكانه 30 مليون، وجمال طبيعته ومناخه وآثاره التاريخية والحضارية تجعل منه قوة سياحية تضاهي البلدان المتوسطية السياحية. لقد جلبت هذه المميزات للمغرب الأقصى وخاصة للمغرب العربي عامة خلال عهود التاريخ خيرا من جهة، وصعوبات في الحفاظ على خيراته الطبيعية وحريته واستقلاله من جهة أخرى.

صلة الدم التي تربط الأسرة المالكة بالرسول ﷺ

إن المملكة المغربية، تعتبر مملكة دستورية وعضوا في الأمم المتحدة وفي حركة عدم الانحياز، والجامعة العربية، والمؤتمر الإسلامي. وقد احتضن المغرب عددا كبيرا من التجمعات السياسية والدينية والثقافية تناولت مواضع داخلية ودولية وإسلامية (وترأس جلالة الملك المعظم الحسن الثاني معظمها). ويجب الإشارة هنا إلى أن اسم جلالة الملك يقترن بلقب أمير المؤمنين، ويعد هذا أمرا فريدا في العالم الإسلامي (لقد كان عمر بن الخطاب أول من حمل هذا اللقب سنة 634هـ ويشار به إلى الخليفة كعنصر موحد للمسلمين من الناحية الروحية والدنيوية).

أطلقت هذه التسمية على ممر العصور على ملوك وأجداد جلالة الملك الحسن الثاني المنتمي إلى السلالة العلوية التي يرجع أصلها إلى حضرة الحسن بن علي

*) هذا المقال تمت ترجمته عن مجلة (صوت المسلمين) الصادرة في مدينة سراييفو بيوغوسلافيا.



ابـن أبي طـالـب وفاطمـة الـزهـراء بنـت الـرسـول محمـد ﷺ. إن انحدار الأسرة العلوية الحاكمة من سـلالة النبي ﷺ يعد عنصرا من العنـاصر الموحدة في الإسـلام، ويظهر هذا جليا في المغرب إلى يومنا هذا.

يعتبر المغرب الأقصى وشمال إفريقيـا من المناطق الأولى التي توجه لها المسلمون (الصحابة والتابعون وتابعو التابعين) مثل عقبة بـن نافع وابـن نُصَيرْ الفهري والمولى إدريـس الأول وغيرهـم. وكانـوا أول مـن حمل الدعـوة الإسلامية إلى شمال إفـريقيا والأنـدلس وصقليـة وغيرهـا من البلـدان المتـوسطية، وتحتضـن هـذه الأراضي أول وأقـدم مخطـوط للقـرآن الكـريـم بـالخط الكـوفي، حيـث انتشرت قـراءتـه وتستمـر العلاقة الروحية بـالمدينة المنورة من خلال المذهب المالكي.

إن القبائل العربية التي وصلت إلى هذه الـديار، قـد حملـت معهـا روح التسامـح العـالية، والنشـاط التجاري والاقتصـادي ممـا مكن القبـائل البربـريـة التي كـانـت تتعـاطى النشـاط الـزراعي أن تخرج مـن عزلتها السياسية والاقتصادية.

أنجبت الحركـة الإســلاميــة الأولى بالمغرب، عددا كبيرا من الأسماء اللامعة في السياســة والدين والعلـم والحياة الثقـافية عـامـة، انتشر صيتها إلى مـا وراء العـالم الإسلامي، وأصبح المغرب وطنا لعدد كبير مـن العـائلات الأنـدلسيـة النـازحـة مـن إسبـانيـا والهاربـة مـن تحت نير سيـف المحـاكـم التفتيشيــة سنـة 1492ميلادية. وليس غـريبا أن يكون هذا التراث الـديني والسيـاسي والثقافي قـد ولّـد لدى المغـرب وشعبه وملكـه رغبة وحاجة في المشـاركة الكاملة في النشاطات التي ترتبط بالمسلمين روحيـا ودنيويـا وسيـاسيـا. وهكذا فقـد انعقـدت عدة مـؤتمرات إسـلامية مختلفـة المستـوى، وتـأسست الجمعيـة الـدوليـة للجامعـات الإسلاميـة. وساهـم المغرب في حـل عدد مـن الصراعات بـإرسال وفـود للتوسط بين الأطراف المتنـازعة في البلدان العربية والإفريقية.

وينظم المغرب كذلك الدروس الحسنية الـرمضـانية التـي ذاع صيتهـا في العـالم الإسـلامي. تنعقـد هذه الـدروس الدينيـة تحت الرعايـة المباشرة والحضور الشخصي لجلالة الملـك المعظم أمير المؤمنين الحسـن الثاني، وهـي تمثل انتعـاشا روحيـا مهما للغـايـة، ولقـاءً ليس فقط بين المفكـريـن والعلماء والـدبلومـاسيين ورجـال الأعمال المحليين، بـل تجمعـا لعـدد كبير مـن الشخصيات الإسلامية مـن خارج المغرب. وتتولى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربيـة تنظيم الدروس وتـوجيه الـدعوة باسـم جلالـة الملك، وتحتضـن العاصمـة المغربية «الرباط» هذه الجلسات الدينية.

يحضر ممثلون عن المسلمين اليوغسلاف للمرة الثانية، فقد دعي الدكتور أناس كارتش والدكتور فكرة كارتشيتش من الكلية الإسلامية بسراييفو لحضور الدروس الرمضانية سنة 1990/1410. وحصل الشرف هذه السنة لتمثيل مسلمي يوغسلافيا للدكتور مصطفى تسرتش إمام مسجد زاغريب وأستاذ في الكلية الإسلامية والأستاذ نياز شكرتش العامل بنفس الكلية في سراييفو. وفي جو يسوده العطف والمحبة، تشرفنا بحضور هذه الدروس الرمضانية التي مكننا طابعها الروحي والعلمي من استعادة ذكرى التجمعات الروحية والعلمية الإسلامية الكلاسكية القديمة والحديثة، تلك اللقاءات التي أبدع في وصفها عدد من العلماء المسلمين من أمثال ابن قتيبة والجاحظ والبغدادي. ويحتل القرآن الكريم والسنة الشريفة والفقه الإسلامي الصدارة في الدروس التي تلقى بهذه المناسبة.

يستمع الجمع وفي مقدمتهم جلالة الملك بإمعان وخشوع إلى المحاضر الذي يجلس على كرسي مرتفع. ويستغرق الدرس 45 دقيقة يتعرف فيه المحاضر على ما استجد من العلم أو يتذكر ما غاب عن ذهنه. تلقى الدروس الحسنية في الساعات التي تسبق الإفطار ويتم نقلها على الإذاعة والتلفزيون مباشرة. وتطبع المحاضرات في آخر رمضان باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية مع المناقشات التي تجري في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في اليوم الثاني من كل محاضرة.

إن بياض الزي المغربي وجمال ورونقة الزخرفة المغربية الأندلسية التي تشتهر بها القصور والحدائق يرجع بالإنسان إلى الأزمنة التي تذكرنا بألف ليلة وليلة والتي يرغب المرء أن يعيش فيها إلى الأبد. لكن واقع الحياة يرجعنا إلى الحاضر، وقد تطرق إلى هذا الموضوع الأستاذ مصطفى تسرتش بأسلوبه الحي في الدرس الثاني من هذه الدروس الحسنية يوم الجمعة 5 رمضان المعظم 1411 (22 مارس 1991) تحت عنوان «الوحدة الإسلامية في ظل وحدة العقيدة الإسلامية». انطلق من بقوله تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تَفَرَّقُوا**﴾ (آل عمران 103). وقد أظهر الحاضرون اهتماما كبيرا بهذا الدرس، وتبين ذلك من خلال المناقشات التي جرت في اليوم التالي، ونأمل أن ينشر هذا الدرس باللغة الأجنبية في إحدى نشراتها. وبعد أن توجه الأستاذ مصطفى بالحمد والشكر إلى الله تعالى ونبيه ورسوله، توجه بالثناء إلى أمير المؤمنين صاحب الجلالة الحسن الثاني على اهتمامه الواسع بأحوال المسلمين في يوغسلافيا خلال زيارته لها.

أثناء انعقاد مؤتمر عدم الانحياز سنة 1961. وقد قال صاحب الجلالة آنذاك ما معناه: إن مجيئنا إلى يوغسلافيا ليس من أجل حضور المؤتمر وتوطيد العلاقة الثقافية فحسب، بل لتعزيز صلة الرحم مع مسلمي هذه الديار.

إن تعليمات الإسلام السمحة تمثل قاعدة صلبة للوحدة الدينية واتفاق المسلمين في العالم، كبديل لكل المذاهب الفلسفية والإيديولوجية. ويشعر المسلمون بالوحدة من خلال حياتهم اليومية، من خلال الإيمان بالله ورسوله، بنزول القرآن الكريم على آخر النبيئين والمرسلين، وباللغة العربية كلغة القرآن والسنة، وكذا من خلال العلوم الفقهية ومصادرها.

وتطرق المحاضر إلى ضرورة تدعيم التعاون بين المؤسسات والهيآت الإسلامية على المستوى السياسي والإقتصادي والديني والثقافي، وفي مجال تقديم العون في إعداد الأطر وتأسيس مراكز البحث وإعداد المشارع ومتابعة تحقيقها.

ويمتاز المغرب بعلاقاته العريقة مع مسلمي يوغسلافيا مما يتطلب تعزيزها. واقْتَرَحَ المحاضر في هذا المضمار، أن يقوم المعهد الإسلامي بزاغرب بتخصيص جائزة (جوائز) سنوية لأحسن بحث في العلوم الإسلامية أو الثقافية أو التاريخية. والْتَمَسَ من صاحب الجلالة أن يتفضل بقبول إعطاء إسمه الكريم لهذه الجوائز. وسوف تتكون لجنة يوغسلافيةمغربية مشتركة لدراسة وتقييم البحوث، ثم توزيع الجوائز على أحد الباحثين اليوغسلاف أو المغاربة.

وقد قبل أمير المؤمنين حفظه الله ورعاه هذه الفكرة على أن تقوم الجهات المعنية بإعداد القوانين الخاصة بهذه الجائزة ونشرها في المغرب ويوغسلافيا.

وفي الختام عبر العلامة اليوغسلافي عن شكره للدعوة التي وجهتها له وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وعلى رأسها السيد عبد الكبير العلوي المدغري ومساعديه، وعلى الضيافة والإستقبال الحار الذي خصص لهما، وشكر العلماء المغاربة وموظفي السفارة المغربية ببلغراد.

سرايفو - يوغوسلافيا - الأستاذ نياز شركتش

دور الاجتهاد في مواكبة المستجدات

بالنظر لمقاصد الشريعة الإسلامية

للأستاذ الحسن اليوبي
أستاذ بكلية الشريعة بفاس

«دور الاجتهاد في مواكبة المستجدات بالنظر لمقاصد الشريعة الإسلامية». وقد قسمت حديثي في هذا الموضوع إلى محاور أوجزها فيما يلي :

1) تعريف الاجتهاد.
2) مجاله.
3) حجيته.
4) ضرورة الاجتهاد في هذا العصر لمواكبة المستجدات.
5) خطأ المجتهد وإصابته.
6) شروط المجتهد.
7) أهمية الاجتهاد الجماعي وضرورة توظيف الأساليب العلمية الحديثة في هذا المجال.

تمهيد :

إن التشريع ضرورة من ضرورات الإنسان، تتوقف عليه حياته الفردية والعائلية والاجتماعية، ذلك أن الإنسان تميز برغبته الفطرية الملحة في التعايش الاجتماعي والاتصال مع الآخرين، ولن تأتى له ذلك إلا بوجود تنظيم لعاداته وسلوكه ورغباته وأفكاره، لأن تعامله مع الآخرين يفرض عليه الخضوع لمبادئ تنظم هذا التعامل وتحافظ عليه، وتجعله عاما بين الناس، لذلك نجد المجتمعات البشرية على اختلافها لابد وأن تخضع لتشريع معين.

وهناك نوعان من التشريع :

— تشريع وضعي وضعه المختصون بالقانون يتعلق بالأمور الدنيوية وهو قابل للتبديل والتغيير.

ـ وتشريع سماوي منزل من السماء، فمن رأفة الله سبحانه وتعالى بالناس أن مد لهم يد العون بأن سن لهم تشريعات ختمها بالتشريع الإسلامي الذي اتسم بالدقة والشمول. فقد بين سبحانه في كتابه العزيز كل ما يهم الإنسان في حياته وبعد مماته، وضمنه الأصول العامة لكل ما يمكن أن يحدث لهذا الإنسان في مسيرته الدنيوية، وما غمض على الناس في هذا الكتاب بينه الرسول ﷺ بسنته من أعمال وأقوال تبين مجمل القرآن وتوضح مشكله وتقيد مطلقه، وتتدارك ما لم يذكر فيه، إلا أن المسلم واجه من المشاكل ما لم يفصل القرآن ولا السنة حكمه، وقد يستطيع العالم استنتاج هذا الحكم من الأصول العامة والمقاصد التي قصدها الشرع وبذلك ينفتح أصل آخر من أصول التشريع، وهو ما يسمى بالاجتهاد.

تعريف الاجتهاد :

لقد وضع الأصوليون تعريفات للاجتهاد مستمَدة من المادة اللغوية ومستوحاة منها، وبالرغم من تعددها إلا أنها ليست متناقضة أو متعارضة وإن ظهر الإيجاز مع جملة من القيود في بعضها أو الإطناب وزيادة في الشروط في بعضها الآخر.

والاجتهاد في اللغة هو عبارة عن استفراغ الوسع لتحقيق أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة.

أما في اصطلاح الأصوليين فمخصوص باستفراغ الفقيه الوسع في طلب الظن بحكم شرعي على وجه يحس فيه من نفسه العجز عن المزيد.(1)

أو هو أن يبذل الفقيه جهده ومنتهى قدرته لاستنباط حكم شرعي من دليله الشرعي. ولقد وضع الأصوليون هذه القيود حرصا منهم على أن لا يلج هذا الباب إلا من يأنس من نفسه القدرة على فهم أحكام الشريعة الإسلامية من أدلتها التفصيلية، القرآن والسنة، وبعد أن يبذل تمام الطاقة حتى يمكنه أن يستمد منها أحكاما ملائمة لطبيعة البيئة ومتطلبات العصر. وبذلك يخرج اجتهاد المقصر، وإن ما تفيده بقية القيود في التعريف: أنه لا اجتهاد في الأمور المحددة بنصوص قطعية، كما أن المجتهد في غير الشريعة يخرج أيضا من هذا التعريف.

مجال الاجتهاد :

إذا أردنا أن نصنف الوقائع من حيث قبولها للاجتهاد وعدم قبولها له نجد أن

(1) الأحكام في أصول الأحكام للآمدي. ج3، ص: 141.

الوقائع مهما تعددت تنقسم إلى ما يلي:

أ ـ وقائع نَصَّ على حكمها في الكتاب والسنة وهذه تنقسم إلى:

1 ـ وقائع نَصَّ على حكمها نص قطعي الثبوت والدلالة.

2 ـ وقائع نص على حكمها نص قطعي الثبوت ظني الدلالة.

3 ـ وقائع نص على حكمها نص ظني الثبوت قطعي الدلالة.

4 ـ وقائع نص على حكمها نص ظني الثبوت والدلالة.

ب ـ وقائع لم ينص على حكمها في الكتاب والسنة وتنقسم إلى:

1 ـ وقائع لم ينص على حكمها في الكتاب والسنة وأجمع المجتهدون على حكم لها.

2 ـ وقائع لم ينص على حكمها في الكتاب والسنة ولم ينعقد فيها إجماع.

فالواقعة إما أن يدل على حكمها نص قطعي في وروده ودلالته بحيث لا يدرك العقل منه إلا حكما بعينه يجب اتباعه، ولا اجتهاد هنا (فلا مساغ للاجتهاد فيما فيه نص قطعي صريح) كما يقول الأصوليون، فلا يستساغ الاجتهاد في الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة والصوم، وكذلك في الأحكام التي ورد فيها نص قطعي في ثبوته ودلالته كوجوب قطع يد السارق والسارقة تبعا لقوله تعالى: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾.(2)

كما يستساغ الاجتهاد في الأحكام الدالة على المقصود دلالة واضحة لا تحتمل تأويلا كعدد الركعات في كل صلاة ومناسك الحج، فقد بين الرسول ﷺ شكل الصلاة وكل ما يتعلق بها من شروط وأركان، وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي».(3)

كما بين مناسك الحج وقال: «خذوا عني مناسككم».(4)

وإما أن يدل على حكم الواقعة نص قطعي الثبوت ظني الدلالة، فالاجتهاد فيها يكون في حدود فهم المراد من النص، والمجتهد يحاول ترجيح أحد معاني النص متبعا الأصول اللغوية والتشريعية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**والمطلّقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾.(5)

فثبوت النص قطعي لتواتره ولكن دلالته ظنية، لأن لفظ القرء يمكن أن يراد

---

(2) سورة المائدة الآية: 38.

(3) رواه النسائي، انظر نيل الأوطار. ج1، ص: 162.

(4) رواه البيهقي، انظر نيل الأوطار. ج2، ص: 209.

(5) سورة البقرة الآية: 228.

بـه الحيـض أو الطهر. وقـد اختلفت آراء المجتهـديـن في النـص، فمـن فسر القُـرْءَ بالحيض كالحنفية جعـل عدة المطلقة ثلاث حيضات، ومـن فسره بالطهـر كالشـافعية جعل عـدتها أن تطهر مـن الحيض ثـلاث مرات.

وإما أن يـدل على حكـم الواقعـة نـص ظني الثبوت قطعي الـدلالة، ومنه ما رُوِيَ عن رسـول اللهﷺ أنـه قال: « ليـس فيما دون خمس ذَوْدٍ من الابل صدقة»(6) فلفظ النـص الخاص يجعل دلالتـه قطعية، لكـن ثبوتـه ظني لعـدم وصولـه إلينا متـواترا، وبـذلك يكـون الإجتهـاد فيـه بالبحـث في سنـده، ومعرفـة مبلـغ رواتـه في العدالـة والثقة والضبط والصدق.

وقد يكون النص ظني الثبـوت والدلالة معا، ومـن الأفضل هنـا أن ينظر المجتهـد أول الأمر في ثبوته ليتيقـن من صحته، ثم بعد ذلـك ينظر في دلالته، ومن هـذا النوع قـولـهﷺ: «لا صلاة لمن لم يقـرأ بفـاتحة الكتاب»،(7)

فالحديث لم يصـل إلينـا عـن طـريـق التواتر فهو ظني في ثبوته، كما أنه ظني في دلالته، فقد يكون المقصود هو أن لا صلاة صحيحـة لمن لم يقـرأ بفاتحـة الكتـاب، وقـد يكـون المـقصـود: لا صـلاة كامـلة.

أمـا الواقعـة التـي لم يدل على حكمهـا نص ولكـن المجتهديـن قد اتفقـوا في عصر من العصور على حكم لها فلا اجتهاد فيها لتحقيق الإجماع.

أما إذا لم يـدل على حكمهـا نـص، ولم ينعقد على حكـم فيها إجماع، فهـذه مجال الاجتهـاد بـالرأي، ويقبـل هـذا الاجتهـاد التغير والتطـور حسـب البيئـة والمصلحـة الفـرديـة والجماعية، كما يختلـف حسـب عقول الباحثين.

إلا أن هذه الاجتهادات لا تعتبر أحكـاما وضعية، فالمجتهد قد سلـك للوصول إليها طرقـا مهدهـا الشرع ودل عليها بـأمارات وعـلامات، فهـي إذن مجرد عملية كشـف عن حكـم رسم الشارع الطريـق إليه وإن لم يصرح به.

حجية الاجتهاد :

سبق أن أشرنا إلى أن الاجتهـاد إما أن يتعلق بواقعة نـص على حكمها بنص ظني في ثبـوتـه أو في دلالتـه أو فيهما معـا. فـالمجتهـد يتنـاول هـذا النـص بـالبحـث ليستطيـع الوصـول إلى الحكم الصحيـح،

(6) رواه البخاري، ج5، ص: 119.
(7) رواه الجماعة، انظر نيل الأوطار، ج2، ص: 210.

وهذا ما يقصده ابن حزم الظاهري حين يعرف الاجتهاد بقوله: «استنفاد الطاقة في طلب حكم النازلة حيث يوجد ذلك الحكم».(8)

ولا خلاف في هذا النوع من الاجتهاد بين العلماء، وإنما اختلفوا في الاجتهاد في واقعة لم ينص على حكم لها في كتاب ولا سنة، وانقسموا في هذا الخلاف إلى فريق يمنع الاجتهاد بالرأي، ويراه منافيا للشرع والعقل، وفريق يجوزه بل يوجبه عند الحاجة إليه، وهذا رأي الجمهور وقد ساق المانعون أدلة شرعية تتمثل في:

1 ـ نصوص تصرح بأن الشرع قد بين بالكتاب والسنة كل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته. فلا حاجة إلى اجتهاد من مجتهد، فقد قال الله تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**﴾.(9)

وبذلك تتبع الأحكام المنصوص عليها، وما لم ينص على حكمه في الكتاب والسنة يبقى على وجه الإباحة، وكل من حاول أن يأتي فيه برأي فهو كافر، يقول ابن حزم الظاهري: «وقلنا في تفسير الاجتهاد في الشريعة: حيث يوجد ذلك الحكم، فلم نعلقه بالرجاء، لأن أحكام الشريعة كلها متيقن أن الله تعالى ألزمنا إياها فلا خلاف في أنه كافر».(10)

ويورد آية قرآنية مستدلا بها على رأيه فيقول: ووجدناه، قد قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾(11) فأيقنا أن الدين قد كمل وتناهى، وكل ما كمل فليس لأحد أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه ولا أن يبدله».(12)

2 ـ نصوص تصرح بمنع الرأي، منها قوله تعالى: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾(13) فليس لأحد الحق في البت في وقائع وأحداث يتنازع فيها المسلمون غير الله والرسول، بل إن الرسول لا يحكم إلا بما بين يديه مبينا من طرف الله سبحانه، فقد قال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾.(14)

ومنها قوله ﷺ: «تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فتنةً، قوم

(8) الأحكام. ج8، ص: 1156.

(9) سورة النحل الآية: 89.

(10) الأحكام. ج8، ص: 1156.

(11) نفس المرجع، سورة المائدة الآية: 3.

(12) الأحكام. ج8، ص: 1156.

(13) سورة النساء الآية: 59.

(14) سورة النساء الآية: 105.

يقيسون الدين برأيهم، يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله»، وقول عمر رضي الله عنه: «أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم».

والناظر إلى هذه الأدلة يجدها سرعان ما تتهاوى تحت محك الفكر والنقاش، فالله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**﴾.(15) إنما يقصد إلى أنه سبحانه قد ضمن كتابه الحكيم الأصول العامة للشريعة، وعلى ضوء هذه الأصول نتصرف ونجتهد في الوقائع التي لم يأت فيها نص، أما القول بترك ما لا نص فيه على الإباحة فيجوز في الوقائع التي لا تشارك غيرها في العلة، مراعاة لتحقيق مقاصد الشارع.

وقد أورد الأستاذ عَلِي حسب الله تفسيرا للآية التي اعتد بها المانعون للاجتهاد وهي: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ إذ يقول: «فإن المراد بطاعة الله ورسوله اتباع ما علم من نصوص الكتاب والسنة، أما الرد إلى الله ورسوله عند التنازع فالمراد منه التحذير من اتباع الهوى، ووجوبُ الرجوع إلى ما شرع الله ورسوله بالبحث عما قد يكون خافيا أو غائبا عن البال من النصوص، أو بتطبيق القواعد العامة بإلحاق الشبيه بشبيهه أو التوجه إلى تحقيق المقاصد التي اعتبرها الشارع، فكل هذا رد إلى الله ورسوله، ولو كان المراد بالرد عند التنازع هو المراد بما تقدمه من طاعة الله ورسوله لكان الكلام تكرارا خاليا من الفائدة، وهو ما ينبو عنه أسلوب القرآن الحكيم».

وقوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾ دليل لإثبات الاجتهاد لا لمنعه، فالله سبحانه قد أنزل الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله دليل لإثبات الاجتهاد لا لمنعه، فالله سبحانه قد أنزل الكتاب لرسوله وفيه أصول يقيس عليها ويسير على هديها فيما غمض عليه من وقائع وأحداث.

وواضح من حديث الرسول الذي ساقه المانعون أنه يقصد نوعا خاصا من الاجتهاد الذي لا يتمشى مع الأصول العامة للشريعة فيحرم الحلال ويحرم الحرام.

كما يتضح من قول عمر أنه يعني الذين يقولون برأي وهم على جهل تام بالسنة، فالمجتهد يجب أن تتوفر فيه شروط خاصة، من جملتها علمه بالسنة

(15) سورة النحل الآية: 89.

ـبوية ووعيها، فعُمر يهاجم نوعا خاصا
ـ القول لا يمكن تسميته بالاجتهاد.

وقد ساق المثبتون للاجتهاد بدورهم ـلائل تعتمد على الكتاب والسنة، ودلائل ـتمد على العقل، تحث على أن تعمل ـصفوة من علماء هذه الأمة على بحث كل ـ يجد من مسائل وما تطرحه الحياة من ـشاكل، ومن بين هذه الأدلة التي تدعونا ـ التفكير والتدبر والنظر في الآيات، قوله ـالى: **﴿إن في خلق السماوات والأرض ـختلاف الليل والنهار لآيات لأولي ـلباب﴾**(16) وقوله أيضا: **﴿قل انظروا ـذا في السماوات والأرض﴾**(17) كما دعا ـقرآن في آيات أخرى إلى العلم ورغب فيه ـأثنى على العلماء ورفع من مكانتهم، **﴿قل ـل يستوي الذين يعلمون والذين لا ـعلمون﴾**،(18) **﴿يرفع الله الذين آمنوا ـكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**.(19)

ولا ريب أن هذه الآيات تتضافر جميعا ـلى حث الإنسان على التدبر والتفكر في ـلق الله والإقبال على العلم والمعرفة، ـبذلك يستقيم فهم الشريعة وفقه أهدافها ـعبادة الله عن وعي وإدراك وبصيرة، ثم تنتقل بنا الآيات إلى تأكيد هذه المسؤولية الخطيرة، مسؤولية الاجتهاد، التي يجب أن يوليها فقهاء الأمة اهتماما كبيرا، وإلا أثِمُوا بتقصيرهم وجمودهم الذي يتنافى ودعوة هذه الشريعة إلى بذل المزيد من الجهد والبحث والنظر في فهم علل الأحكام ومقاصدها، يقول الله تعالى في ذلك: **﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فرُدُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**.(20)

فهذه لاشك أدلة صريحة من القرآن الكريم في التحذير من اتباع الهوى، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة في معرفة ما قد يكون خافيا من الأحكام، وتطبيق القواعد الكلية في التوصل إلى معرفة الحكم الشرعي فيما يكون محل نزاع بين المسلمين.

أما ما جاء في السنة، فقد رُوِيَ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو،

---

1) سورة آل عمران الآية: 110.
1) سورة يونس الآية: 108.
1) سورة الزمر الآية: 9.
1) سورة المجادلة الآية: 11.
2) سورة النساء الآية: 59.

قال معاذ: فضرب رسـول الله ﷺ صدري وقال: الحمد لله الـذي وفق رَسُولَ رسولِ الله لِما يُـرضي الله ورسـوله.(21) وقد قـال ﷺ: «إجتهدوا فكلٌ مُيَسَّـر لِما خُلِقَ له، إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

كما روي عن سعيد بن المسيب عن علي رضي الله عنهما أنـه قال: «قلت: يـارسول الله، الأمر ينزل بنـا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيـه منك سنـة؟ قـال: «إجْمعوا لـه العـالِمِين، أو قال: العـابِـدين مـن المؤمنين، فـاجْعلوه شُـورى بينكـم، ولا تقضوا فيـه برأي واحد».(22)

أما عن طـريق النظـر العقلي فقد جعـل الله الإسلام خاتـم الأديان، وجعل شريعته صـالحة لكـل زمـان ومكـان، ونصـوص الشريعـة مـن الكتـاب والسنـة محدودة، وحوادث النـاس ووسائلهم إلى مقاصـدهم متجددة وغير محدودة، ولا يمكـن أن تفي النصـوص المحـدودة بـأحكـام الحوادث المتجددة غير المحدودة والجزئيـات التي لا حصر لها، إلا إذا كـــان هنــــاك مجال للـوصــول إلى أحكـام الحوادث الطـارئة بـالاجتهـاد في قيـاسهـا على نظائرهـا أو توجيههـا إلى تحقيق المصالـح التي تـرمي إليهـا الشريعة، وبغير هـذا تفقد الشريعـة مرونتها وصـلاحيتها لكل زمان ومكان.

إن مـن يقف عنـد هـذه الأدلة ويمعـن النظر في دلالتها تتضح له الدعوة الصريحة في حـث علماء هـذه الأمة على طَـرْق بـاب الاجتهاد والعمـل به حتى تستقيـم الأمور وتطمئن النفوس في العمل بالشريعة في كل ما يجد من حوادث، كما أنها كافية في الرد على أولئـك الـذين ينكـرون الاجتهـاد ولا يقولون بـه مع العلم بأن النصـوص التي وقفوا عند ظـاهرها ليست دليـلا على منع الاجتهاد والعمل به.

فالاجتهاد أصل مـن أصول التشريع لا محيد عنه، دعا إليه القـرآن وأكدته السنة، وأذعـن له العقـل السليـم، وليست هنـاك حجة نقليـة أو عقلية تـدعم قـول القائلين بغلق باب الاجتهـاد والْخُلُودِ إلى التقليد أو الوقوف عند ظواهر النصوص، علاوة على مـا في ذلـك من جمود عقلي لا يتفـق مـع متطلبات المدنية ومشاكـل الحياة المتجددة ونمـو المعـارف والعلـوم المختلفـة، يقـول الإمام الشـاطبي رحمه اللـه تعالى: «فـلأنَّ الوقـائع في الوجود لا تنحصر، فـلا يصح دخـولها تحت الأدلـة المنحصرة، ولـذلـك احتيج إلى فتـح باب الاجتهاد مـن القياس وغيره، فلابـد من حدوث وقـائع لا تكون

(21) أخرجه أبو داود. ج2، ص: 116.

(22) استدل بهذا الحديث ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين. ج1، ص: 73.

نصوصا على حكمها، ولا يوجد للأولين
يها اجتهاد، وعند ذلك، فإما أن يترك
ناس فيها مع أهوائهم أو ينظر فيها بغير
جتهاد، شرعي وهو أيضا اتباع للهوى،
ذلك كله فساد، فلا يكون بد من التوقف
إلى غاية، وهو معنى تعطيل التكليف
زوما وهو مؤد إلى تكليف ما لا يطاق،
إذَنْ، لابد من الاجتهاد في كل زمان، لأن
وقائعَ المفروضة لا تختص بزمان دون
مان». (23)

جتهاد الرسول واجتهاد الصحابة من عده:

لقد وقع الاجتهاد في عصره ﷺ من
لرفه، كما أمر أصحابه بأن يجتهدوا
يعتمدوا على اجتهادهم فيما يعرض لهم
ن الأمور.

فمن اجتهاداته ﷺ ما رُوِيَ عن ابن
باس رضي الله عنهما قال: «إن امرأة من
جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي
ذرت أن تُحجَّ فلَمْ تُحجَّ حتى ماتت،
فأحج عنها؟ قال ﷺ: نعم، حُجِّي عنها،
رأيتِ لو كان على أمك دَيْن أكنتِ قاضيته،
قضوا الله فاللهُ أحق بالوفاء». (24)

فقد استعمل الرسول رأيه وأمر المرأة بأن تحج عن أمها، واستعمل نقاشا عقليا سليما فإذا جاز لنا أن نقضي ديون موتانا مع الناس، فكيف لا يجوز لنا أن نقضي ديونهم مع الله سبحانه وتعالى؟

ومن ذلك إذنه ﷺ للمعتذرين في غزوة تبوك بالتخلف عن هذه الغزوة فنزل في هذا الشأن قول الله تعالى: ﴿**عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم**﴾(25) فإذْنه ﷺ كان نتيجة رأيه واجتهاده، ولذلك استحق العفو إذ أخطأ.

ومن ذلك قبولُه ﷺ لرأي أبي بكر في قبول الفداء من أسرى بدر، فنزل قول الله تعالى: ﴿**ما كان لنبي....**﴾ الآية.

فالرسول يؤيد رأي أبي بكر ثم يخطئ فيعاتبه سبحانه وتعالى.

وقد أعرض الرسول ﷺ عن ابن أم مكتوم حين جاء يلتمس المعرفة واشتغل بمحادثة بعض رجال قريش، طمعا في إسلامهم، فعوقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿**عَبَسَ وتولىَّ أن جاءَه الأعمى**﴾. (26)

فإعراض النبي عن ابن أم مكتوم، اجتهاد منه.

---

23) الموافقات، ج4، ص: 66.
24) رواه البخاري، ج1، ص: 218.
25) سورة التوبة الآية: 43.
26) سورة عبس الآية: 1.

واستعمل ﷺ نظره فنهى عن إزعاج صيد مكة وعن قطع شوكها، فلما عقب عليه العباس قائلا: إلاَّ الإِذْخِرَ يارسول الله، قال: إلاَّ الإذخر .

ومِنْ أَمْرِهِ لصحابته بالاجتهاد وإقرارهم عليه نذكر: ما روي عن أبي سعيد الخدري أن رجلين خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما وصليا، ثم وجدا الماء في الوقت فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة، في حين لم يفعل الآخر ذلك، فلما وصل الخبر إلى رسول الله قال للذي لم يُعِدْ صلاته: «أصبت السُّنَّةَ وأجزأتك صلاتك»، وقال للذي توضأ وأعاد: «لك الأجر مرتين، فأقَرَّ الاثنين على اجتهادهما في واقعة لا نص فيها.

أَمَرَ اللهُ تعالى الرسول بغزو بني قُرَيْظَة بعد عودته من غزوة الأحزاب إلى المدينة فقال لأصحابه: «من كان سامعا مطيعا فلا يُصَلين العصر إلا في بني قريظة». فخرج المسلمون مُسرِعين، ولكن صلاة العصر أدركتهم في الطريق، فقال بعضهم: لقد نُهينا عن الصلاة حتى نصل بني قريظة فنصلي هنَاكَ ليلا، وقال الآخرون: لم يُرِدْ الرسول منا تأخير الصلاة حتى نأتي بني قريظة وإنما قَصَدَ في قوله السرعة والمبادرة، فنصلي في الطريق. ولما علم الرسول بما وقع لم يلُمْ أحدا من الفريقين وأقرّهما معا على عملهما.

عن عمرو بن العاص أنه لما بُعِثَ في غزوة ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت — إنْ إغتسلت - أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمنا على رسول اللهﷺ ذكروا ذلك له، قال: «يا عمْرُو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فقلت: ذكرت قول الله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾.

فتيممت ثم صليت،فضحك رسول اللهﷺ ولم يقل شيئا، فَعَمْرُو قد اجتهد في فهم النص وأدلى برأيه على ضوء فهمه في واقعة، فأقّره الرسول على اجتهاده.

وكما اجتهد الرسول وأقرّ أصحابه على الإجتهاد سار الصحابة من بعده على هديه، فاستَعْمَلُوا اجتهادهم فيما لا نص فيه، ومن اجتهاداتهم نذكر: أنَّه حِيَن منع المرتدون أداء الزكاة في زمن أبي بكر رأى باجتهاده وبرأيه أن يقاتلهم وقال: قد قال رسول اللهﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فقال أبو بكر: ألم يقل: إلا بحقها؟ فمن حقها إيتاء الزكاة كما من حقها إقامة

الصلاة، وأيده في رأيه هذا من كان حاضرا.

إجتَهَدَ الصحابة في جمع القرآن، فقد خاف عمر ضياعه، خصوصا بعد قتل عدد كبير من القراء، فعرض جمعه على أبي بكر الذي رفض ذلك وأنكره قائلا: أَفْعَلُ مالم يفعل رسول الله؟ وأرسل إلى زيد بن ثابت وعرض عليه اقتراح عمر، فنفر من ذلك كما نفر أبو بكر وقال ما قال، فقال عمر إنه أمر لا ضرر فيه، بل فيه الخير للإسلام والمسلمين، فوافقاه على ذلك، وعقدوا لجنة من الحفاظ الموثوق بهم لتنفيذ المشروع.

- منع عمر سهم المؤلفةِ قلوبهُم من الزكاة، وقد كانوا يأخذونه تبعا لقوله تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهُم**﴾، وذلك لأن عمر اجتهد في فهم النص فرأى بنافذ بصيرته أن القصد من ذلك هو تشجيع هؤلاء على الإسلام، والرفعُ من شأنِهمْ بتكثير المنتمين إليه، فلما كثر المسلمون وأعز الله دينه فلم تبق حاجة إلى الإعطاء.

اجتهد عمر في رفع الحد عن غِلمان حاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مُزَيْنة فأكلوها وأقروا بفعلهم أمام عمر رضي الله عنه، فأمر بقطع أيديهم ثم رجع عن حكمه فرفع القطع وحكم بأن يدفع مولاهم لصاحب الناقة ضِعف ثمنها غرامةً وقال: «أمَا والله إنكم لتستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله لكان له حلالا، فلم أقطع أيديهم وإذ لم أفعل فَلأُغْرمنَّك غرامة توجعك، إدْفَعْ للمزَيني ضِعف قيمة الناقة.

يقول الله في حد السرقة: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله**﴾.(27)

فالنص صريح في وجوب قطع يد السارق والسارقة، وقد حلت بالمسلمين في عصر عمر مجاعة ألجأت الناس إلى السرقة، فما كان من عمرَ إلا أن أوقف الحد، فقد أدرك باجتهاده أن مصلحة الشارع من حد السرقة لا تتحقق في ظروف صعبة قاسية تحتم على الإنسان أن يسرق لسد جوع بطنه.

تزوج حُذَيفة بن اليمان كتابية بالمدائن، فكتب إليه عمر يأمره بأن يطلقها، فسأله حذيفة قائلا: أَحرام هي ياأمير المؤمنين؟ فكتب إليه عمر: «أعزم عليك ألا تضع كتابي هذا حتى تُخَلِّيَ سبيلها، فإني أخاف أن يقتدي بك المسلمون، فيختاروا نساء أهل الذمة لجمالهن، وكفى بذلك فتنة

(27) سورة المائدة الآية: 38.

لنساء المؤمنين». فقد صدر عمر في رأيه هذا عن اجتهاده وعَمِل نظره.

مما سبق ندرك أن الصحابة واجهوا ما وقف في طريقهم من مشاكل وأحداث، فاجتهَدُوا، كل حَسَبَ قدرته واستطاعته، وإنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، وفي ذلك دليل على الاعتماد على اجتهاد العارفين العالمين بحل مشاكل الأمة الإسلامية وعدم الخنوع والتوقف.

ضرورة الاجتهاد في هذا العصر لمواكبة المستجدات :

إذا كان فتح هذا الباب لازما وواجبا في أي عصر من العصور، فإنه في هذا العصر يصبح أهم وأوجب نظر لمجموعة من العوامل:

من هذه العوامل: طبيعة الإيقاع الحضاري المعاصر، وما يتسم به من سرعة مذهلة أفرزت كثيرا من المستجدات في حياة الإنسان، وطرحت العديد من التساؤلات حول كثير من القضايا التي بات المسلم يتساءل عن حكم الشرع فيها. من هذه القضايا قضية تحديد النسل ووسائله، وما يترتب عن ذلك من نتائج حاضرا ومستقبلا، ومنها ظاهرة أطفال الأنابيب، وظاهرة العبث بالجينات الوراثية، وظاهرة زرع الأعضاء والمتاجرة فيها.

كما أن وضعية بعض المسلمين في العالم تدعو إلى الاجتهاد لتحديد المواقف إزاءهم بوضوح، كالمسلمين المضطهدين في الاتحاد السوفياتي والهند والفيليبين، وكالمسلمين المهاجرين للعمل في بلدان أجنبية، ماذا عمل المسلمون لحماية عقيدتهم وعقيدة أبنائهم الذين يولدون وينشأون بأراضي غير إسلامية؟

ومن العوامل التي تجعل الاجتهاد في العصر الحاضر ضرورة ملحة، الظروف العاملة للبلدان الإسلامية التي تعاني من التخلف والتقهقر في مختلف الميادين، وتحاول جاهدة أن تتجاوز هذا التخلف، مما يجعلها في حاجة كبرى إلى التوجيه والإرشاد لسلوك الطريق الصحيح ولمواجهة التحديات الخطيرة التي تواكبها، ولن يتم لها ذلك إلا بتخلصها من التبعية وتحكيمها للشريعة الإسلامية السمحة في حياتها العملية، وَسَبِيلُهَا إلىَ هذا الهدف هو الاجتهاد، فنحن نعلم أن أغلب هذه البلدان تخضع لقوانين أجنبية، خصوصا في الميدان السياسي والاقتصادي.

فعلى علماء المسلمين أن يجتهدوا ليمكنوا هذه البلدان المسلمة من التنمية والتقدم في ظل الشريعة الإسلامية. فالاجتهاد لمواكبة المستجدات لا يقتصر على الاجتهاد في القضايا المستحدثة والطارئة فقط، بل ينبغي أن يتناول أيضا مظاهر واقعنا

وذلك لاستبدال البنيات الغربية عن ديننا في مختلف الميادين ببنيات وأنساق تتلاءم مع روح شريعتنا، فالحق حق والباطل باطل مهما طال الزمن، ولا يمكن للتقادم أو التعود أن يلبس الحق بالباطل.

لقد آن الأوان لتوجيه ثقافتنا الوجهة الصحيحة، وهي الوجهة الإسلامية وتنظيفها من الشوائب التي عكرت صفوها وطمست معالمها، إنها عملية جسيمة أمام التحديات الكبرى التي يتعرض لها المسلمون، ولكن بتوفر النية الصادقة والغيرة الحقة والكفاءة يتيسر العسير وتمهد الصعوبات.

وينبغي أن نذكر جيدا أن التقصير في باب الاجتهاد قد ساهم بدور فعال فيما عانته البلدان الإسلامية من تخلف، فجمود الفقه وانعزاله عن الحياة العامة هو الذي أدى بشبابنا في الماضي القريب إلى الارتماء بين أحضان المذاهب الغربية والتيارات المغرضة منبهرن بأضوائها الخداعة تحت ضغط الفراغ الفكري الذي وجدوا أنفسهم أمامه.

وذلك التقصير هو الذي جعل بعض البلدان الإسلامية تستورد قوانين غريبة عن عقائدها وبيئتها لتسيير أمورها في كثير من المجالات السياسية والاقتصادية والقضائية وغيرها، وهو العامل الأساسي فيما تعانيه مجتمعاتنا الإسلامية من بدع ومنكرات غريبة عن روح هذه الشريعة التي أنعم الله بها علينا.

وإن الظروف الحالية، والأزمات الحادة التي يمر بها العالم اليوم تدفعنا أكثر من أي وقت مضى إلى التفكير في توجيه شبابنا، وتدعيم الثقة في نفسه بشريعته ودينه، إذ أن الفشل الذي مني به المذهب الشيوعي عدو الإسلام اللدود يتيح أمامنا فرصة سانحة لإعادة من انحرف من المسلمين إلى الطريق الحق، وسبيلنا إلى ذلك هو الاجتهاد لإصلاح شؤون هذه الأمة.

خطأ المجتهد وإصابته :

من جملة القضايا التي طرحها الفقهاء قضية خطأ المجتهد وإصابته، هل يعاقب من طرف الله سبحانه إذا أخطأ أم لا؟ وبعبارة أخرى، هل هناك حق متعين فيما لا نص فيه وإن من أخطأ هذا الحق في اجتهاده يعتبر آثما؟

اختلف العلماء في هذا وانقسموا إلى فريق يرى أن كل مجتهد في الظنيات مصيب ويسمى هذا الفريق بالمصَوِّبة، وفريق يرى أن المصيب واحد ويسمى هذا الفريق بالمخطئة.

وقد تشعبت الأقوال في كل رأي من الرأيين السابقين واختلفت.

فمن المصوبة من قال: إنه ليس في الواقعة التي لا نص فيها حكم معين يطلب بالظن، بل الحكم يتبع الظن، والحق غير متعين، فكل مجتهد مصيب، لأن حكم الله ليس معينا فلا يكون واحدا بل يكون تابعا لظن المجتهد، وأي حكم توصل إليه المجتهد باجتهاده فهو حكم الله، وهذا مذهب القاضي والغزالي.

ومنهم من قال بوجود حكم معين يتوجه إليه الطالب، إذ لابد للطلب من مطلوب، لكن المجتهد لم يكلف بإصابته، فلذلك كان مصيبا وإن أخطأ ذلك الحكم المعين الذي لم يؤمر بإصابته.

وأما المخطئة فإنهم متفقون على أن في الواقعة حكما معينا، لكنهم اختلفوا في أنه هل عليه دليل أم لا؟ فقال قوم: لا دليل عليه، وإنما هو مثل دفين يعثر الطالب عليه، بالاتفاق، فمن أصابه فله أجران ومن حاد عنه فله أجر واحد لسعيه وطلبه، وقال قوم: عليه دليل قاطع، ولكن الإثم محطوط عن المخطئ لغموض الدليل وخفائه، وقال قوم: عليه دليل ظني، ولكن المجتهد لم يكلف بإصابته لخفائه وغموضه، فلذلك كان معذورا مأجورا، وقال قوم: أمر بطلبه فإذا أخطأ لم يكن مأجورا لكن حط عنه الإثم تخفيفا.

إلا أن الرأي الراجح أن الحق واحد لا يتعدد، وبذلك يكون من وصل إليه مصيبا ومن لم يصل إليه مخطئا وهو معذور في خطئه وله أجر المصيب.

فأدلة الشريعة إما نصوص أو أقيسة ترجع إلى هذه النصوص، والنصوص إما أن يختلف في تأويلها أو في صحة نسبتها إذا كانت من أخبار الآحاد، وبديهي في التأويل أن الشارع لم ينص نصا إلا وهو يريد معنى معينا، فمن ظفر بهذا المعنى فهو مصيب، ومن لم يظفر فهو مخطئ، وبديهي أيضا في أسانيد الأخبار أن الحقيقة واحدة، فالخبر أن يقال أولا.

ومما يؤيد هذا الرأي ما جاء في الآثار، فقد قال ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد».

فالحديث صريح في انقسام الاجتهاد إلى خطأ وصواب، كما أن الصحابة قد استعملوا لفظ الخطأ في الاجتهاد، لقد روي عن أبي بكر أنه قال: «أقول في الكلالة برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان».

كما روي عن عمر أنه قال لكاتبه: «أكتب: هذا ما رأى عمر، فإن يكن خطأ فمنه، وإن يكن صوابا فمن الله».

وقوله للمرأة التي عارضته حين نهى عن المبالغة في المهر: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ومن هذا القبيل أيضا ما روي عن ابن
سعود أنه قال في المفوضة: «أقول فيها
رأيي، فإن كان صوابا فمن الله ورسوله،
إن كان خطأ فمني ومن الشيطان».

وكل هذه الأقوال تدل على اعتراف
لصحابة بوجود اجتهاد مصيب واجتهاد
خاطئ لا إثم على صاحبه. وهو حكم يتسم
الرجحان والصواب ويتفق مع الشريعة
لإسلامية وما تدعو إليه من يسر وتجنب
لحرج، إذْ أن القول بإثم المجتهد المخطئ
ن باب التضييق والإحراج الذي يدفع
لعلماء إلى تجنب الاجتهاد، وهو أمر يؤدي
ى توقف الأحكام، مما يدفع الناس إلى
لانصراف عن الشرع إلى مصادر أخرى
ستقون منها حلولا لما يعترضهم من
ضايا.

شروط المجتهد :

إن الاجتهاد باب جليل الخطر، عظيم
شأن، لذلك وضع الأصوليون مجموعة
ن الشروط التي ينبغي توفرها في المسلم
يكون أهلا للاجتهاد في الأحكام، فإلى
جانب التقوى والعدل وحسن النية
شترطوا ما يلي:

— معرفة تامة بالقرآن وأحكامه وما
رره من أصول تشريعية ودراسة عميقة
يات الأحكام فيه، ومعرفة الناسخ
المنسوخ منها.

— معرفة تامة بالسنة، واطلاع على المؤلفات النافعة التي ألفت في هذا الباب لمعرفة الأحاديث المتواترة وغير المتواترة والصحيحة والحسنة والضعيفة، ولمعرفة هل تناولت السنة الواقعة التي يبحث فيها أم لم تتناولها، وذلك بالاستعانة بالمؤلفات التي ألفت في الحديث مبوبة تبويبا فقهيا.

— الاطلاع على مذاهب المجتهدين، وما أجمعوا عليه في العصور المتقدمة وما اختلفوا فيه.

— دراسة دقيقة لأصول الفقه.

— معرفة تامة باللغة وأساليبها لفهم النصوص فهما صحيحا.

— إدراك مقاصد الشريعة الإسلامية، وقد أعطى الشاطبي لهذا الشرط الدرجة الأولى بالنسبة للشروط الأخرى يقول:

«إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين:

أحدهما : فهم مقاصد الشريعة على كمالها.

والثاني : التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها».(28)

فإدراك مقاصد الشريعة الإسلامية يمكن المجتهد من مراعاة مصالح الأمة، واعتبار الظروف والبيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها من

---

(28) الموافقات ج 4 ص 67.

المؤثرات التي يجب أن لا يغفلها المجتهد وهو يتصدى لإصدار حكم من الأحكام.

إلا أن اختلاف البيئة من أمة لأمة، واختلاف الظروف والمؤثرات من عصر إلى عصر لا يعني أبدا أن الإسلام سوف يعجز عن المواجهة مادام الإنسان يسير إلى الأمام ليحقق العدالة والمساواة والحرية، فما محاولات التوفيق والمقارنة التي قام بها الباحثون بين ما نادى به الدين الإسلامي وما نادت به بعض النظم الوضعية في القرون المتأخرة إلا دليل على أن الدين الإسلامي قد جاء منذ قرون بما تفتقت عنه أفكار المفكرين من تنظيمات في صالح الإنسانية، وإن اتسمت هذه النظريات بالنقص والعجز، وبقي الإسلام دائما ذلك النبع الفياض الذي يشع بمبادئ الخير والسلام والعدالة والحرية.

فمن مقاصد الإسلام تحقيق الحرية، ولذلك كان أول شيء نادى به هو أن الإنسان ليس عبدا للطبيعة ولا لمظاهرها، وإنما هو مخلوق لإله واحد هو خالق كل شيء: ﷺ «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى» فالناس سواء.

ومن مقاصده العدل، يوجبه بين العدو وعدوه: ﴿**ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قوم على ألا تعدلوا، إعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾.(29)

ويوجبه بين القريب والبعيد، وبين الغني والفقير: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تَلْوُوا أوْ تُعْرِضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾.(30)

ويوجبه من المعاملات والأحكام: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾.(31)

ومن مقاصده المحافظة على كرامة الإنسان، فحَقٌّ كل ذكر أو أنثى أن ينال الكرامة من الجميع، ويعامَل بما تقتضيه الحُرْمة التي أعطاها الله للإنسان وميزه بها عن سائر المخلوقات، ولا يمتاز أحد عن الآخر بشيء في تركيبه ولا في أصل وجوده، ومن ثم فلا تمييز بالنسب أو بالمال.

---

(29) سورة المائدة الآية: 8.

(30) سورة النساء الآية: 135.

(31) سورة النساء الآية: 58.

ومن مقاصده تحقيق السلام: ﴿**ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْمِ كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين**﴾.(32)

وبذلك يحرم الإسلام الحروب، وما الجهاد إلا تشريع للسلام وتوضيح لطرق الوصول إليه، فقد منع الإسلام كل حرب هدفها تفوقُ شعب على آخر أو السيطرة وتوسيع مناطق الحكم أو إظهار القوة للقوة أو استعمار الشعوب واستغلال خيراتها، وكذلك حرم حروب الثارات والانتقام كما حرم كل حرب هجومية كيفما كان نوعها على جماعة مسالمة أو على جماعة قصد إكراهها على خروجها من دينها ونظامها.

وإنما المباح في الإسلام وبصفة مؤقتة القتال لاستبعاد الفتنة في العقيدة ومنع اضطهاد المؤمنين.

وهكذا نجد أن مقاصد الشريعة الإسلامية تحقق للإنسان ما يصبو إليه من حق وعدالة وحرية في كل عصر وفي كل مكان.

تلك هي الشروط الأساسية التي ينبغي توفرها في المجتهد. وقد أضاف بعض الفقهاء المعاصرين شروطا أخرى، تبعا لضرورة العصر وظروفه وأهمها:

الإلمام بالظروف العامة التي تعيشها الأمة الإسلامية من حيث قدراتها وإمكانياتها، ومكانتها بين دول العالم وطبيعة علاقتها بهذه الدول، بالإضافة إلى إتقان لغة أجنبية على الأقل إتقانا تاما ليتمكن من معايشة قضايا العصر وأحداثه.

ولاشك أن امتلاك هذه المؤهلات يتوقف على وجود مؤسسات تعليمية ذات برامج مضبوطة وهادفة إلى تكوين هذه القدرات. والواقع أن بلداننا الإسلامية لا تخلو من هذه المؤسسات المختصة في العلوم الدينية، إلا أن بعض هذه المؤسسات أصبحت عاجزة عن تكوين خريجين يمتلكون القدرة على الاجتهاد في العصر الحاضر، ويعود هذا العجز إلى اختلال البرامج من جهة، وإلى انطواء هذه المؤسسات على نفسها من جهة أخرى، بالإضافة إلى أن بعض هذه المؤسسات لا تضع شروطا معقولة لقبول الطلبة الصالحين لولوجها، حيث نجدها تفتح أبوابها للعناصر التي فشلت في مؤسسات أخرى لا علاقة لها بالدراسات الإسلامية.

فينبغي أن يصبح تكوين الفقيه المجتهد ضمن مخططاتنا التعليمية في العالم الإسلامي، فكما نخطط لتكوين المهندس

(32) سورة البقرة الآية: 208.

والطبيب يجب أن نخطط لتكوين أطر فقهية قادرة على الاجتهاد في الأحكام.

ومن بنود هذا التخطيط إصلاح برامج التعليم وفق هذا الهدف داخل مؤسساتنا المختصة بتدريس الفقه والأصول والحديث والتفسير. وعلى سبيل المثال فقط، نشير إلى ضرورة تدريس علوم اللغة العربية كالنحو والبلاغة على مستوى عال داخل هذه المؤسسات التي نجد بعضها يفتقر إلى هذه الدراسة، إذ أن فهم القرآن والحديث وتفسيرهما لا يتم إلا بإدراك أسرار اللغة وفنون البلاغة.

ومن بنود هذا الإصلاح أيضا انتقاء العناصر الموجهة إلى هذه المؤسسات ووضع شروط معقولة هادفة لولوجها، شروط تتعلق بالقدرات العقلية من جهة، وبالسلوك من جهة ثانية، فالاحترام والوقار والبعد عن الشبهات صفات ينبغي أن تتوفر في من نحملهم مسؤولية النظر في شرع الله ودينه.

أهمية الاجتهاد الجماعي وضرورة توظيف الأساليب العلمية الحديثة في هذا المجال :

من الضروري أن نشير هنا إلى أنه مهما توافرت هذه الشروط في فرد ما، فإن اجتهاده بشكل فردي لا يعطي النتيجة المطلوبة، وقد أثبت التاريخ عدم صلاحية الاجتهاد الفردي الذي أصاب الشريعة بكثير من الفوضى، ودلت التجارب على حتمية وجود جماعة تشريعية، تتوفر في كل فرد من أفرادها شروط ومؤهلات تيسر القيام بعملية الاجتهاد، سيرا على الطرق التي مهدها الشرع.

ولا يكفي وجود هذه الجماعة التشريعية داخل كل بلد بعينه، فمن المفيد أن تكون جماعة على نطاق أوسع تضم أعضاء من جميع البلدان الإسلامية، وتنظم مؤتمرات ومناظرات على مستوى العالم الإسلامي.

وبذلك نتفق مع بعض الفقهاء المعاصرين في الدعوة إلى تكوين مجامع للاجتهاد، فإن العصر الذي نعيشه هو عصر التجمعات والتكتلات في جميع الميادين والمجالات، مما يجعل الاجتهاد الفردي قليل الفائدة ضعيف الأثر، وهذا يحتم علينا إنشاء مجمع للاجتهاد في كل بلد إسلامي يجمع علماء أكفاء ممن توفرت فيهم الشروط والقدرات اللازمة لممارسة الاجتهاد، وتقسيم هذا المجمع إلى فروع حسب الاختصاصات المتنوعة تبعا لاختلاف الميادين، حيث يخصص فرع للاجتهاد في الميدان الاقتصادي مثلا، وفرع للاجتهاد فيما يحدث من مستجدات في مجال الطب، وفرع للاجتهاد في ميدان القضاء. وهكذا، مع ضرورة التنسيق بين

روع هذا المجمع وبين المؤسسات المعنية، ي ارتباط هذه الفروع بالواقع والممارسة، بذلك تؤدي دورها المتوخى منها ولا قتصر عملها على التنظير البعيد عن الواقع.

وإلى جانب هذه المجامع ينبغي إنشاء جمع للاجتهاد على مستوى الدول لإسلامية، ينظر في القضايا العامة المشتركة بين هذه الدول، سواء في إطار علاقاتها مع بعضها أو علاقاتها بالدول لأخرى في المجال التجاربي والقانوني السياسي والثقافي وغير ذلك، أو في إطار توحيد الأحكام في البلدان الإسلامية بالنسبة للأمور العامة.

ولكي تؤتي هذه المجامع ثمارها يجب ن تتوافر النية الصادقة في إنشائها الإفادة منها، ووضعها في مكانة يسمع منها صوتها على مستوى الجمهور، وتوضع آراؤها النهائية وأحكامها موضع تنفيذ وتطبيق، فهناك فقهاء اجتهدوا واستنبطوا أحكاما لمجموعة من المستجدات لتي شهدتها عصورهم، ولكنهم بسبب لانزواء والانكماش في الظل لم تشهد حكامهم أشعة الشمس رغم وجاهتها وصوابها وبقيت مجرد حِبْر على ورق.

وإن المُنَقِّبَ في تراثنا الفقهي المخطوط يعثر على اجتهادات وجيهة أيدها البحث لعلمي الحديث، وعلى سبيل المثال نذكر في هذا المجال اجتهاد الفقهاء ـ ومنهم مغاربة ـ حول ظاهرة التدخين، وما أوردوه في هذا الموضوع من أدلة منطقية لمنع هذه الظاهرة لأضرارها الصحية وخطورتها على البيئة الاجتماعية.

كما يتحتم على هذه المجامع توظيف أساليب العصر في عملها، خصوصا الأساليب التكنولوجية الحديثة بالاعتماد على التخطيط والإحصاء، ونلح هنا على الإفادة من وسائل الإعلام الحديثة في هذا المجال قصد إيصال الأحكام إلى الجماهير المسلمة وإقناعها بها.

ومن الضروري أيضا توظيف علم المستقبل في مجال الاجتهاد، وقد أصبحت الدراسات المستقبلية تشكل أسلوبا علميا جديدا لتحدي المستقبل ومحاولة السيطرة عليه وتوجيهه، وأصبح مفروضا على المسلمين توظيف هذا العلم في مختلف المجالات ومنها مجال الاجتهاد.

لقد كان قدماء الفقهاء رحمهم الله يفترضون القضايا ويجتهدون لحلها، وهي ظاهرة لا تعبر عن مغالاة ولا مبالغة، بالعكس، فهي تعبر عن محاولتهم إيجاد حلول لقضايا ربما تحدث في المستقبل.

فعلى علماء المسلمين المعاصرين أن يقتدوا بخطوات السلف في هذا الموضوع مع اختلاف في الأسلوب بطبيعة الحال، إذ أن الدراسات المستقبلية تمدنا اليوم بأساليب جديدة حيث يتم تَحَسُّبُ وتَرَقُّبُ

ما سيحدث في المستقبل من خلال دراسة الحاضر بظواهره ومعطياته، وما ستفرزه هذه الظواهر والمعطيات.

إن دور الاجتهاد اليوم لا يقتصر على التحكم في حاضر المسلمين بإيجاد حلول لقضاياهم الحاضرة فحسب، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى محاولة استشفاف قضايا المستقبل للسيطرة عليه وتوجيهه لصالح هذه الأمة، فشريعة الإسلام بمقاصدها النبيلة وأهدافها السامية هي شريعة المستقبل، شريعة الحب والخير والعدل والسلام، أمل إنسان اليوم وأقصى أمانيه.

وبالله التوفيق.

فاس ـ الحسن اليوبي



مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي

للدكتور عبد الجواد السقاط
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية

تعتبر عملية الشروح عامة، من أوسع
عمليات في الحقل التصنيفي بالمغرب،
كثرها عطاء وخصوبة، منذ العصر
ابطي مع القاضي عياض المتوفى عام
5هـ صاحب:

• «إكمال المعلم في شرح مسلم»؛(1)

• «المستنبطة في شرح كلمات مشكلة
فاظ مغلطة مما وقع في كتاب المدونة
ختلطة»؛(2)

وعلى امتداد المراحل التاريخية المتعاقبة
العصر الحديث. ذلكم أن هذه الشروح لم تتقيد بميدان معرفي معين، أو اتجاه إبداعي واحد، وإنما شملت ميادين مختلفة، وارتبطت بمتون ذات اتجاهات متباينة، منها الديني والعددي واللساني واللغوي، والأدبي، شعره ونثره؛ بل إن هذه العملية قد تجاوزت حدود الشرح إلى مستوى التحشية على شروح أخرى، رغبة من واضعيها في المزيد من الدقة والتوضيح أحيانا، وبسط الكثير من الإضافات والتعليقات أحيانا أخرى.

وبالعودة إلى مصادر ومظان كثيرة(3) نستطيع الوقوف على طفرة هائلة من هذه

---

(1) انظر الإعلام، ج 9، ص: 382.

(2) يعرف في المغرب بكتاب «التنبيهات»، انظر الإعلام، ج 9، ص: 382.

(3) نذكر من هذه المصادر والمظان على سبيل المثال كذلك:

• الحياة الفكرية المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين. =

الشروح، بعضها غَالَبَ الزمن، فوصلتنا مصنفاته إما كاملة أو مبتورة، وبعضها الآخر لم يجد من القوة ما يقاوم به يد الإتلاف والضياع، فوصلتنا عناوينه أو الإشارة إليه، دون أن تصلنا مصنفاته لا كاملة ولا مبتورة.

ونحن إذا حاولنا أن نُبَوِّبَ الشروح والحواشي التي وضعها المصنفون المغاربة - أو معظمها على الأقل، طالما أنها غزيرة ومتنوعة - على متون، بعضها نثري وبعضها الآخر شعري أو على شكل أراجيز، وجدناها أنواعا ثلاثة يمكن استعراضها مشفوعة ببعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر:

1) شروح تتعلق بالمتون الدينية، ومنها :

*** القرآن الكريم :**

ونذكر من شروحه:

• «تفسير بعض الآيات والسور» لعبد الرحمن بن زكري المتوفى عام 1144هـ.(4)

• «بذل العلم والورد في شرح تفصيل العقد» لعبد الرحمان بن محمد الخباز القصري المتوفى عام 964هـ،(5) وهو شرح لأرجوزة ابن غازي «تفصيل الدرر في القراءات العشر».

• حاشية على تفسير الجلالين(6) لعبد الرحمان بن محمد الفاسي المتوفى عام 1036هـ.(7)

*** القراءات :**

ونذكر من الأعمال في ميدانها:

• «فتح المنان على مورد الظمآن» لعبد الواحد بن عاشر الأنصاري المتوفى عام 1040هـ،(8) وهو شرح وضعه على «مورد الظمآن في رسم حروف القرآن» لمحمد بن محمد الخراز المتوفى عام 718هـ.

- • الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين.
• سوس العالمة.
• التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر
• نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.
والقائمة طويلة يصعب حصرها في هذا البحث المحدود.

(4) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 1245.

(5) مخطوط بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم 125 ضمن مجموع من ورقة 33 إلى ورقة 66.

(6) هما جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي.

(7) انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1، ص: 143.

(8) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 76.

* **الحديث :**

ومن الشروح التي وضعت في مجاله:

• شرح موطأ الإمام مالك، لعلي بن حمد الحريشي المتوفى عام 1145هـ.(9)

• شرح شمائل الترمذي للشارح فسه.(10)

* **الفقه :**

ونذكر من شروحه:

• «أُمّ الحواشي» وهو شرح وضعه حمد بن سعيد المجلدي المتوفى عام 109 هـ على مختصر خليل.(11)

• شرح الأرجوزة التلمسانية في لفرائض لمحمد شقرون الوجديجي المتوفى عام983هـ.(12)

* **الأصول :**

ونذكر من شروحه أيضا:

• «الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع» للحسن بن مسعود اليوسي المتوفى عام 1102هـ،(13) وقد وضعه على كتاب جمع الجوامع لتاج الدين السبكي.

* **التوحيد :**

ونذكر من شروحه كذلك:

• شرح صغرى السنوسي لليوسي المتقدم.(14)

• حاشية على شرح كبرى السنوسي لليوسي المتقدم أيضا.(15)

* **التصوف :**

ونشير من شروحه إلى:

• شرح الصلاة المشيشية للحسن بن يوسف الزياتي المتوفى عام 1023هـ.(16)

• شرح الصلاة المشيشية لعبد الرحمن بن زكري المتقدم.(17)

---

(9) انظر التقاط الدرر، ص: 359.

(10) انظر نفس المصدر والصفحة.

(11) انظر نفس المصدر ص: 226.

(12) انظر درة الحجال، ج 2، ص: 215.

(13) انظر التقاط الدرر، ص: 259.

(14) انظر عبقرية اليوسي، ص: 112.

(15) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقمي ك 2645 ود 1771.

(16) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 798.

(17) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 2459.

• شرح دلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي من تأليف محمد المهدي الفاسي المتوفى عام 1109هـ.(18)

2) شروح تتعلق بالمتون العقلية واللسانية، ومنها:

※ المنطق :

ومن شروحه:

• شرح «الكليات في المنطق» لابن البَنَّاء العددي المتوفى عام 721هـ،(19) والمتن المشروح له أيضا.

• شرح أم المنطق أو مزامر المنطق من تأليف العزيز بن يوسف الفاسي، لليوسي المتقدم.(20)

※ التوقيت والفَلَك :

ونذكر من شروحهما:

• شرح روضة الأزهار للجادري، لأحمد بن يعقوب الولالي المتوفى عام 1128هـ.(21)

• شرح المقنع لابن سعيد السوسي، لمحمد بن عبد الله الورزازي المتوفى عام 1166هـ.(22)

• «فتح المغيث في شرح اليواقيت» لعلي بن محمد الدادسي من رجال القرن الحادي عشر الهجري،(23) وهو شرح على «اليواقيت لمبتغي معرفة المواقيت» للشارح نفسه.

※ النحو واللغة :

ونذكر من شروحهما:

• شرح الآجرومية لأبي الفضل مسعود بن محمد جموع المتوفى عام 1119هـ.(24)

• «الجود بالموجود في شرح المقصور والممدود» لحمد بن زاكور الفاسي المتوفى عام 1120هـ،(25) وهو شرح على «تحفة المودود في المقصور والممدود» لابن مالك.

• شرح ألفية السيوطي في النحو لعبد الرحمان بن زكري المتقدم.(26)

---

(18) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 144.

(19) انظر الحياة الفكرية المغربية في عهد المرينيين والوطاسيين، ص: 183.

(20) انظر عبقرية اليوسي، ص: 114.

(21) انظر التقاط الدرر، ص: 312.

(22) انظر نفس المصدر، ص: 425.

(23) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 1279.

(24) انظر التقاط الدرر، ص: 297.

(25) انظر الأنيس المطرب، ص: 28.

(26) انظر التقاط الدرر، ص: 357.

• حاشية على شرح لامية الأفعال لابن
الك، للحسن بن يوسف الزياتي
قدم.(27)

※ العروض :

ونذكر من شروحه:

• «النفحات الأرجية والنسمات
نفسجية بنشر ما راق من مقاصد
خزرجية» لابن زاكور الفاسي المتقدم،(28)
هو شرح على القصيدة المشهورة «الدائرة
شافية في العروض والقافية».

• شرح الخزرجية السابقة لعبد العزيز
رسموكي من رجال القرن الحادي عشر
جري.(29)

• شرح منظومة في العروض لأحمد بن
ليمان الرسموكي من رجال القرن الثاني
شر الهجري(30) والمنظومة للشارح نفسه.

※ البلاغة :

ومن شروحها نذكر:

• شرح «أنوار الربيع بأزهار البديع في فن البديع» لمحمد بن العربي الأدوزي من رجال القرن الرابع عشر الهجري،(31) والقصيدة للشارح نفسه.

• «أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحلي» لعبد الله الثعالبي الفاسي المتوفى عام 787هـ،(32) وهو شرح على القصيدة البديعية لصفي الدين الحلي.

• «الصنيع البديع في شرح الحلبة ذات البديع» لابن زاكور الفاسي المتقدم،(33) وهو شرح على بديعية صفي الدين الحلي آنفة الذكر.

3) شروح تتعلق بالمتون الأدبية،(34) والشعرية منها بصفة خاصة، وهذا ما يهمنا في هذا البحث. وإذا كانت كفة هذا الصنف أقل رجحانا من سابقتيها، فإنها مع ذلك تمثل واجهة مهمة من واجهات التعامل مع النص الأدبي، ذلكم التعامل الذي نجده مرتبطا بمستويات عدة نذكر منها:

---

2) انظر التقاط الدرر، ص: 66.

2) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 1081.

2) انظر سوس العالمة، ص: 185.

3) انظر المصدر نفسه، ص: 192.

3) انظر سوس العالمة، ص: 204.

3) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 4394، وكذلك بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ق 608.

3) انظر الأنيس المطرب، ص: 28.

3) يمكن اعتبار الشروح العروضية والبلاغية، وكذا اللغوية، داخلة في إطار الشروح الأدبية باعتبارها أدوات فاعلة في الحقل الأدبي.

أ ـ المستوى الأول :

ويحدده البعد الجغرافي لهذه المتون الأدبية المشروحة، والذي يجعلنا أمام:

* **نصوص مغربية**، مثل:

• رائية اليوسي المتقدم في رثاء الزاوية الدلائية، وقد شرحها محمد البكري الدلائي المتوفى عام 1164هـ.(35)

• مقصورة المكودي المتوفى عام 807هـ، التي شرحها أكثر من واحد كما سنذكر بعد.

* **نصوص أندلسية**، مثل:

• «السيف المسنون في شرح رائية ابن عبدون» لموسى الودريمي من رجال القرن الثاني عشر الهجري،(36) وهو شرح على قصيدة عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في رثاء دولة بني الأفطس.

• «تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان، أو «مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد» لابن زاكور المتقدم(37) وهو شرح على قلائد العقيان للفتح بن خاقان.

* **نصوص مشرقية**، مثل:

• ديوان المتنبي، الذي شرحه محمد الهوزالي المتوفى عام 1012هـ.(38)

• ديوان الحماسة لأبي تمام، الذي وضع عليه ابن زاكور المتقدم شرحا سماه «عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة».(39)

• ديوان الشعراء الستة (من أصحاب المعلقات)، الذي شرحه محمد بن الطيب الشرقي المتوفى عام 1170هـ.(40)

ب ـ المستوى الثاني :

ويرتبط بصاحب المتن المشروح، فإما أن يكون واضع الشرح هو صاحب المتن المشروح نفسه، ونمثل لهذا الصنف بـ:

• «نيل الأماني في شرح التهاني»، وهو الشرح الذي وضعه اليوسي المتقدم على قصيدته الدالية التي نظمها في مدح شيخه محمد بن ناصر الدرعي.(41)

• الشرح الذي وضعه أحمد بن عبد الوهاب الغساني الوزير المتوفى عام

---

(35) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 248.

(36) انظر سوس العالمة، ص: 192.

(37) حققه الأستاذ بوشتى السكيوي في إطار رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا عام 85 ـ 86، ويوجد مرقونا بخزانة كلية الآداب بفاس.

(38) مخطوط خاص بفاس.

(39) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 158.

(40) انظر النبوغ المغربي، ج 1، ص: 291.

(41) مطبوع بدار العلم للجميع.

1140هـ على المقصورة التي نظمها في مدح حمد بن عبد الله معن.(42)

• الشرح الذي وضعه سعيد بن علي حامدي من رجال القرن العاشر الهجري لى ميمية له في مدح محمد الشيخ سعدي.(43)

• الشرح الذي وضعه حمدون بن حاج المتوفى عام 1232هـ على معارضته همزية البوصيري.(44)

• الشرح الذي وضعه العباس بن براهيم السملالي المتوفى عام 1378هـ على قصيدة التي نظمها في مناقب الرجال سبعة دفناء مراكش، وسماه «إظهار كمال في تتميم مناقب سبعة جال».(45)

وإما أن يكون واضع الشرح غير صاحب المتن المشروح، وقد تقدمت نماذج من ذلك فيما سبق طرحه من شواهد، نضيف إليها:

• الشرح الذي وضعه شهبون التهامي بن محمد الشفشاوني على لامية العجم للطغرائي.(46)

• «المقاصد النامية في شرح الدالية» وهو الشرح الذي وضعه عبد الرحمان المنجرة الصغير المتوفى عام 1179هـ على دالية أبي عبد الله محمد بن المبارك السجلماسي السرغيني.(47)

• الشرح الذي وضعه أبو مدين الفاسي المتوفى عام 1181هـ على رائية الشريشي الموسومة بعنوان «أنوار السرائر وسرائر الأنوار».(48)

ج ـ المستوى الثالث :

ويتعلق بشيء من التركيز أحيانا على متون معينة، وفي مقدمتها ما يدخل في إطار المديح النبوي والتصوف. فبردة البوصيري مثلا قد تصدى لشرحها أكثر من واحد على امتداد العصور، نذكر منهم:

(42) انظر التقاط الدرر، ص: 360.

(43) انظر سوس العالمة، ص: 180.

(44) انظر الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص: 353.

(45) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 232.

(46) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 1004.

(47) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع تحت رقم د 379 من ورقة 206 إلى ورقة 245.

(48) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع تحت رقم ك 390 من ص: 1 إلى ص: 69.

• محمد بن أحمد بن مرزوق المتوفى عام 781هـ، صاحب «إظهار صدق المودة في شرح البردة».(49)

• عبد الرحمان الجادري الفاسي المتوفى عام 818هـ.(50)

• سعيد بن سليمان السملالي الكرامي المتوفى عام 882هـ.(51)

• محمد بن سعيد العباسي من رجال القرن الحادي عشر الهجري.(52)

• أحمد بن محمد الفاسي المتوفى عام 1021هـ.(53)

• عبد الواحد بن عاشر الأنصاري المتقدم، صاحب «شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح».(54)

• أحمد بن عبد الوهاب الغساني الوزير المتقدم، صاحب «الجواهر السنية في شرح الكواكب الدرية».(55)

• محمد بن عبد السلام بناني المتوفى عام 1163هـ.(56)

• محمد بن المعطي السرغيني المراكشي المتوفى عام 1296هـ، صاحب «التوشيح في شرح بردة المديح».(56 مكرر)

• الحسن بن الطيفور الساموجني التزنيتي من رجال القرن الثالث عشر الهجري.(57)

• عبد الله بن إبراهيم البوشيكري من رجال القرن الثالث عشر الهجري.(58)

---

(49) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقمي 456 و457، وكذلك الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 1713.

(50) مخطوط بخزانة القرويين بفاس تحت رقم 643، وكذلك خزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم: 368.

(51) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع تحت رقم د 1372.

(52) مخطوط خاص بسوس.

(53) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 150.

(54) انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1، ص: 149.

(55) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 150.

(56) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 150.

(56 مكرر) انظر الأعلام، ج 7، ص: 29.

(57) انظر سوس العالمة، ص: 198.

(58) انظر سوس العالمة، ص: 200.

• محمد المكي البيطاوري المتوفى عام 1355هـ، صاحب «نسيم الوردة في شرح البردة».(59)

• إبراهيم بن صالح الشريف التازروالتي من رجال القرن الرابع عشر الهجري.(60)

وكذلك الشأن بالنسبة لهمزية البوصيري إذ شرحها بدورها أكثر من واحد نذكر منهم:

• محمد بن سعيد العباسي المتقدم.(61)

• أحمد بن أبي القاسم الصومعي المتوفى عام 1013هـ.(62)

• محمد بن زكري المتوفى عام 1144هـ.(63)

• محمد بن عبد الرحمان الصومعي الزمراني المتوفى عام 1123هـ.(64)

• أحمد بن محمد الفاسي المتقدم.(65)

• محمد الحضيكي المتوفى عام 1189هـ.(66)

• محمد بن محمد حجي زنيبر السلوي المتوفى عام 1194هـ، وسمى شرحه «نيل البشرى والسعادة الكبرى.(67)

• أحمد بن الوزير.(68)

• محمد بن عثمان المزمري التواتي من رجال القرن الثاني عشر الهجري.(69)

• محمد بن عمر الدغوغي الجراري من رجال القرن الثالث عشر الهجري.(70)

---

(59) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 151.

(60) انظر سوس العالمة، ص: 203.

(61) مخطوط بسوس.

(62) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقمي 835 و166، وكذلك بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 895.

(63) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 1372.

(64) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 232.

(65) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 151.

(66) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت أرقام: ج 527، ك 1478، د 1658.

(67) مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 29.

(68) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 151.

(69) مخطوط بخزانة عبد الجبار الفيجيجي بفجيج.

(70) انظر سوس العالمة، ص: 199.

• يحيى بن عبد الواحد الجوطي الشبيهي.(71)

• محمد جنون المتوفى عام 1302هـ.(72)

• محمد المكي البيطاوري المتقدم، صاحب «لمحات المزية من نفحات الهمزية».(73)

• أبو بكر الشنتوفي السلوي المتوفى عام 1355هـ صاحب «البستان الفسيح بشرح همزية المديح».(74)

• إبراهيم بن صالح الشريف التازروالتي المتقدم.(75)

• علي بن محمد السوسي السملالي من رجال القرن الرابع عشر الهجري.(76)

وإلى جانب هذين المتنين، حظيت قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير بأكثر من شرح، ومن ذلك:

• شرح العربي الفاسي المتوفى عام 1052هـ.(77)

• شرح محمد الحضيكي المتقدم.(78)

• شرح ابن الحسن بناني المتوفى عام 1194هـ.(79)

• شرح محمد بن علي اليعقوبي من رجال القرن الرابع عشر الهجري.(80)

• شرح محمد بن مسعود المعدري من رجال القرن الرابع عشر الهجري.(81)

وكذلك الأمر بالنسبة لقصيدة ابن البناء السرقسطي في التصوف، والمعروفة بالمباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية، فقد تصدى لشرحها أكثر من شارح نذكر منهم:

---

(71) مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 197.

(72) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 151.

(73) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 151.

(74) مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 445.

(75) انظر سوس العالمة، ص: 203.

(76) انظر المصدر نفسه ص: 202.

(77) انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1، ص: 149.

(78) انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، ص: 151.

(79) انظر نفس الكتاب والصفحة.

(80) انظر سوس العالمة، ص: 198.

(81) انظر الكتاب نفسه ص: 205.

• محمد الشطيبي المتوفى عام 963هـ، صاحب «الإشارات السنية إلى بعض معاني المباحث الأصلية». (82)

• عبد الواحد اليصلوتي. (83)

• أحمد بن أحمد زروق الفاسي المتوفى عام 899هـ. (84)

• أحمد بن محمد بن عجيبة اللنجري المتوفى عام 1224هـ. (85) صاحب «الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية».

وإذا كانت هذه المتون في المديح النبوي والتصوف مأخوذة من التراث المشرقي خاصة، إلى جانب التراث الأندلسي أحيانا، فإن متونا مغربية في المضمار نفسه قد وقع التركيز عليها شرحا وتفسيرا، نخص بالذكر منها مقصورة المكودي في المديح النبوي التي شرحها كثيرون منهم:

• المكودي نفسه. (86)

• سعيد بن مسعود الماغوسي المتوفى عام 1016هـ. (87)

• عبد العزيز الفشتالي المتوفى عام 1031هـ. (88)

• علي بن أحمد الشامي المتوفى عام 1032هـ. (89)

• أبو بكر التملي المتوفى عام 977هـ. (90)

• عبد الواحد الحسني المتوفى عام 1003هـ. (91)

• المكي البيطاوري المتقدم، صاحب «أزهار الأغصان المهصورة من رياض أفنان المقصورة». (92)

---

(82) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقمي 1925 و5610.

(83) ميكرو فيلم مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 254.

(84) مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 1/202.

(85) مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم 297.

(86) انظر الحياة الفكرية المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين، ص: 327.

(87) انظر روضة الآس، ص: 227.

(88) انظر مرآة المحاسن، ص: 163.

(89) انظر الدر السني، ص: 39.

(90) مخطوط بسوس.

(91) مخطوط بالأسكوريال بإسبانيا.

(92) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 80.

د ـ المستوى الرابع :

ويتصل بحجم المتن المشروح، فإما أن يكون هذا المتن ديوانا كاملا كما هو الشأن مع ديوان المتنبي وديوان الحماسة وديوان الشعراء الستة المشار إليها سابقا، وكذلك:

- ديوان ابن الفارض الذي بدأ شرحه محمد بن مسعود المعدري المتقدم.(93)
- ديوان السليمانيات لحمدون بن الحاج المتوفى عام 1232هـ الذي شرحه الشاعر نفسه.(94)

أو مجموعة من القصائد لشاعر واحد أو حقبة زمانية واحدة كما هو الشأن مثلا مع:

- شرح بعض القصائد الجاهلية الذي وضعه عبد العزيز ابن محمد الأدوزي من رجال القرن الرابع عشر الهجري.(95)

وإما أن يكون هذا المتن ـ وهذا هو الغالب الأعم ـ قصيدة واحدة تحظى باختيار الشارح، كما هو الحال مثلا مع كثير من النماذج المطروحة من قبل، نضيف إليها جملة أخرى جاء المتن فيها قصيدة واحدة سواء كانت من الإبداع المغربي خاصة، أو الإبداع العربي بوجه عام:

- شرح نونية أبي مدين الْغَوث لمحمد بن عبد الله الهبطي الصغير المتوفى عام 1001هـ،(96) وسماه «كشف الأستار العيبية عن وجه القصيدة الشعيبية».
- شرح التائية الكبرى لابن الفارض لمحمد بن إبراهيم التمنارتي من رجال القرن العاشر الهجري،(97) وهو المعروف بشرح نظم السلوك.
- شرح إحدى قصائد أحمد المنصور السعدي لعلي الشيظمي المتوفى عام 1012هـ.(98)
- شرح لامية العرب لسعيد بن مسعود الماغوسي المتقدم(99) وسماه «إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب».

---

(93) انظر سوس العالمة، ص: 206.

(94) انظر النبوغ المغربي، ج 1، ص: 297.

(95) انظر سوس العالمة، ص: 205.

(96) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقمي 5620 و9298، وكذلك بخزانة القرويين بفاس تحت رقم 1528.

(97) انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1، ص: 147.

(98) انظر روضة الآس، ص: 182.

(99) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 1/153. وكذلك الخزانة العامة. الرباط تحت رقمي ج 142 و ج 877.

• شرح لامية العجم للماغوسي المتقدم
ذلك.(100)

• شرح القصيدة النونية للششتري
أبي العباس أحمد زردة.(101)

• شرح رائية الشريشي على مقامات
الصوفية لأحمد بن أبي القاسم الصومعي
المتقدم.(102)

• شرح قصيدة الهبطي لأحمد بن
حسن الحافي المتوفى عام 1052هـ.(103)

• شرح قصيدة أحمد بن المختار بنخدة
الراشدي المعروفة بعقد جواهر المعاني في
مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني لليوسي
المتقدم.(104)

• شرح لامية العرب لمحمد بن زاكور
الفاسي المتقدم(105) وسماه «تفريج الكرب
عن قلوب أهل الأدب في معرفة لامية
العرب».

• شرح القصيدة الشقراطيسية لمحمد
الحضيكي المتقدم.(106)

• شرح دالية اليوسي لمحمد بن المهدي
ابن سودة المتقدم.(107)

• شرح الطاهر الإيفراني المتوفى عام
1374هـ لإحدى قصائده.(108)

• شرح لامية العجم لمحمد بن مسعود
المعدري المتقدم.(109)

• شرح قصيدة (قفا نبك) لعبد العزيز
بن محمد الأدوزي المتقدم.(110)

• شرح الشمقمقية المسمى «فتح المنان»
للعربي بن علي المشرقي
المعسكري المتوفى عام
1313هـ.(111)

---

(100) انظر الإعلام، ج 10، ص: 147.

(101) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 5693.

(102) انظر الإعلام، ج 2، ص: 279.

(103) انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 2، ص: 564.

(104) انظر الإعلام، ج 3، ص: 161.

(105) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 157.

(106) انظر سوس العالمة، ص: 193.

(107) انظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج 2، ص: 426.

(108) انظر سوس العالمة، ص: 209.

(109) انظر سوس العالمة، ص: 205.

(110) انظر نفس الكتاب والصفحة.

(111) انظر الإعلام، ج 9، ص: 27.

• شرح لامية العرب لأبي بكر بن العربي بناني الفاسي المتوفى عام 1330هـ (111 مكرر) وسماه «حل المشكلات المنتدب في شرح لامية العرب.

• شرح لامية العرب لمحمد بابا الصحراوي الكردوسي من رجال القرن الرابع عشر الهجري.(112)

على أن من المتون الأدبية المشروحة، ما ليس ديوانا كاملا ولا قصيدة، ولكنه مجرد مقطع يتجزأ من هذه القصيدة أو تلك، أو مجرد نتفة أو مقطوعة لا تصل من حيث عدد الأبيات إلى مستوى القصيدة. ونمثل لذلك بـ:

• شرح بيتين في الأدب لعبد الله الهاشمي بن خضراء السلوي المتوفى عام 1324هـ.(113)

هـ ـ المستوى الخامس :

ويتعلق بأنماط المتون الشعرية المشروحة، وهي أصناف ثلاثة:

1 ـ القصيدة الشعرية الخليلية، وفيما تقدم من نماذج ما يغني عن التكرار.

2 ـ الأرجوزة، وقد تقدم أيضا ما يعتبر نموذجا لها.

3 ـ الموشحة، سواء كانت مغربية مثل:

• توشيح خالد الكرسيفي الذي وضع له حسين بن داوود التاغاتيني الرسموكي شرحين: كبيرا وصغيرا.(114)

أو كانت أندلسية مثل:

• موشحة إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، التي وضع لها محمد الصغير اليفرني المتوفى عام 1140هـ شرحا سماه «المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل».(115)

و ـ المستوى السادس :

ويتصل ببعض المصنفات التي ليست شرحا بالمعنى الصرف للكلمة، أو لم يكن الشرح الهدف الأول من تصنيفها بقدر ما كان هذا الهدف شيئا آخر كترتيب ديوان مثلا، كما هو الحال مع:

• ترتيب ديوان المتنبي لعبد العزيز الفشتالي المتقدم(116) الذي جاء مفعما

(111 مكرر) مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا تحت رقم: 206.

(112) انظر سوس العالمة ص: 203.

(113) انظر الإعلام، ج 8، ص: 350.

(114) انظر سوس العالمة، ص: 179.

(115) حققه الأستاذ محمد العمري في رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا عام 80 ـ 81 ويوجد مرقونا بخزانة كلية الآداب بالرباط.

(116) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 609.

جموعة من الحواشي تتعلق باللغة
لبلاغة والرقات الشعرية وغيرها.

أو كان الهدف اختصار الشرح، كما هو
حال مع:

• مختصر شرح ابن جني لديوان المتنبي
بي موسى الجزولي المتوفى عام
60هـ.(117)

• مختصر شرح إسماعيل بن الأحمر
ردة البوصيري، لعبد الرحمان بن محمد
ن عطية الجادري المتوفى عام 818هـ(117)
كرر.

ز ـ المستوى السابع :

ويربطنا بحجم هذه الشروح، إذ
لاحظ أنها شروح تنحو نحو الطول
لإسهاب أكثر مما ترمي إلى الاختصار
الاقتضاب، بل إننا نجد من هذه الشروح
حيانا ما يتجاوز السفر أو السفرين، كما
و الحال على سبيل المثال مع:

• شرح حمدون بن الحاج المتقدم
عارضته بردة البوصيري الذي جاء في
مسة أسفار.(118)

• شرح دالية اليوسي لمحمد بن المهدي
بن سودة المتقدم الذي جاء في ستة
أسفار.(119)

على أن من هذه الشروح ـ وهذا يرتبط
بالحجم كذلك ـ ما لم يقدر لصاحبه أن
يتمه، فوصلنا ناقصا مثل:

• شرح ديوان ابن الفارض لمحمد بن
مسعود المعدري المتقدم.(120)

• شرح همزية البوصيري لمحمد بن
عمر الدغوغي الجراري المتقدم.(121)

• شرح شمقمقية أحمد الونان في مدح
السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي
للعباس بن إبراهيم السملالي المتقدم(121
مكرر).

أو أكمله شارح لاحق كما هو الحال مع:

• شرح رائية اليوسي التي بدأ شرحها
محمد بن أحمد بن الشاذلي الدلائي المتوفى
عام 1137هـ ثم أتمه محمد البكري الدلائي
المتوفى عام 1164هـ.(122)

المحمدية ـ د. عبد الجواد السقاط

---

11) انظر النبوغ المغربي، ج 1، ص: 153.

11) مكرر مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا رقم: 1/210.

11) انظر النبوغ المغربي، ج 1، ص: 297.

11) انظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج 2، ص: 426.

12) انظر ص: 19، الهامش رقم: 1.

12) انظر ص: 15، الهامش رقم: 6.

121) مكرر انظر الإعلام، ج 6، ص : 131.

12) انظر ص: 9، الهامش رقم: 1.

فهرس المصادر والمراجع المذكورة في الهوامش
للمقال السابق : مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي

○ الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه: للدكتور عباس الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1399هـ 1979م، الجزء الأول.

○ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام : للعباس بن إبراهيم السملالي، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، في عشرة أجزاء بين سنتي 1974م و1983م.

○ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر : لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401هـ 1981م.

○ الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب : لمحمد بن الطيب العلمي، المطبعة الحجرية بفاس، 1315هـ.

○ الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين : للدكتور محمد حجي، مطبعة فضالة، المحمدية، في جزأين، 1398هـ 1978م.

○ الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية : للدكتور محمد الأخضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977م.

○ الحياة الفكرية المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين (بالفرنسية) : للدكتور محمد بن شقرون، مطبعة محمد الخامس بفاس، 1394هـ 1974م.

○ درة الحجال في أسماء غرة الرجال : لأحمد بن القاضي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، الطبعة الأولى في ثلاثة أجزاء، 1971م.

○ الدّرالسَّنِي في بعض من بفاس من أهل النَّسب الحسَنِي : لعبد السلام بن الطيب القادري، المطبعة الحجرية بفاس 1309هـ 1982م.

○ دليل مؤرخ المغرب الأقصى : لعبد السلام بن سودة، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1960م.

○ روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس : لأحمد المقرى التلمساني، المطبعة الملكية بالرباط، 1964م.

○ سوس العالمة : لمحمد المختار السوسي، مطبعة فضالة، 1380هـ 1970م.

○ عبقرية اليوسي : للدكتور عباس الجراري، دار الثقافة، الدار البيضاء 1401هـ 1981م.

○ مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن : لمحمد العربي الفاسي، المطبعة الحجرية بفاس، 1324هـ 1906م.

○ النبوغ المغربي في الأدب العربي : لعبد الله جنون، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، في ثلاثة أجزاء، 1961م.

○ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني : لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق د. محمد حجي، وأحمد التوفيق، الجزء الأول من مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1397هـ 1977م، والأجزاء الثلاثة الأخرى بمطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء بين عامي 1402هـ 1982م و 1407هـ 1986م.

أمة القرآن

للشاعر
محمد الحلوي

ـاأمة القرآن حان الموعد … اليوم يومك ليس بعد ولا غد
ـادى المؤذن فانفضي عنك الكرى … واستقبلي فجرا جديدا يولد
تجددي! فلقد رأيت المجد في … هذي الحياة لمن بها يتجدد
ـيام عزك مشرقات كالضحى … وعهود مجدك أنجم تتوقد
ـورت هذا الكون وهو غياهب … وحملت فيه مشاعلا لا تخمد
غمرته أمنا ولم يك آمنا … والسيف في أبنائه لا يغمدا!
حكمت بالشورى وبالعدل الذي … نزل الكتاب به وجاء محمد
بنيت بالأخلاق ما لم يبنه … بان، ولم يك بالحروب يشيد
ـد كنت في أفق العلوم منارة … تسعى الوفود إلى حماك وتقصد
ـد كنت قائدة تقود وقدوة … مثلى يسير بخطوها المسترشد
ـالي أرى تلك المحاسن أدبرت … وأرى دما قد كان حيا يجمد!
أرى رياضا قد ذوت وبلابلا … سكتت، وكانت في حماك تغرد
أرى صروحا قد تداعت للبلى … فهوت، وأخرى بالزوال تهدد!
شكو بنوك ـ وهم كثير ـ غربة … ويسومك الضيم الجبان الملحد
ـد كنت بالقرآن صرحا شامخا … وقوى لها فوق الثريا مقعد
سعى لنيل رضاك كل مناوئ … ويهاب بأسك كل من يتودد
ـابت شموسك عن وجود تائه … والبدر أجلى ما يرى إذ يفقد!
لا الدمع أرجع ما أضاع خلافنا … منا، ولا الهم المقيم المقعد!
ي كل فاجعة تهز كياننا … نذر بأسوإ ما مضى تتوعد
جراسها في كل قلب رجة … وهديرها في كل سمع مرعد

أمست ملاحمك الكبار أحاجيا ... وأغانيا في سمعنا تتردد!
في كل فاجعة نقيم مآتما ... تنسى ومؤتمرا يحل ويعقد
لا القدس عاد، ولا العروبة ضمدت ... أوجاعها وتجاهلت من يحقد
تاهت سفينتنا! وضل طريقه ... من في يديه زمامها والمقود!
ولو استضاء بدينه في سيره ... لرأى بنور الله ما يتقصد
ولو استمد هداه من قرآنه ... لرأى بحارا في الهدى لا تنفد!
في الأرض أكثر من يد بناءة ... ومعاول هدامة كم تفسد
وبنو الحياة معادن وجواهر ... فيها المزيف والنفيس الجيد
لو شاء ربك لاهتدى كل الورى ... لكن حكمته أبت أن يهتدوا!

* * *

يا أمة القرآن هذا موقف ... لا النثر فيه ولا القوافي تسعد
في النفس أشياء وفي أعماقنا ... جرح قديم نازف لا يضمد
لا تسألوا الإسلام أن يصحو فما ... تصحو سوى العين التي قد ترقد!
لن يرضي الإسلام من أقوالكم ... إلا سلوك ليس فيه تشدد
الصحو منا، في انتهاج سبيله ... والصد عمن ألحدوا وتمردوا
الصحو في إحياء شرعته التي ... بحلالها وحرامها نتعبد
دين سما بالعقل في آفاقه ... واعتز فيه الكادح المستعبد
قد كرم الإنسان فيه فلم يعد ... عبدا يباع ويشتريه السيد!
أعلى الجباه فلم تعد تهوي إلى ... صنم تريق له الدماء وتسجد
آياته كالشمس في كبد السما ... ما ضرها أن لا يراها أرمد!
لا تهمل الأقدار يوما أمة ... لشرائع الله القويمة تجمد
كم أفلست نظم وأمست هيكلا ... نخرا، وكانت في الريادة تحسد
لن تغتني بالعلم — وهي فقيرة ... روحا — تؤله عقلها وتمجد
لا صحو إن لم نرتجع أخلاقنا ... فهي الحضارة والغنى والسؤدد
والدين أخلاق، وخير عهودنا ... تلك التي كنا بها نتقيد

* * *

كل الشعوب بنت شوامخ مجدها ... تحفا، وأول ما بنينا المسجد
في ظله تجد النفوس سكينة ... تسمو بها، وبغيره لا توجد

د كان منطلق البعوث وملتقى ... كل الوفود، وكان فيه المولد
هدي به في الأمس شبه خلية ... للعلم ناد، والعبادة معبد
تظ في الأسحار خلف محدث ... ويؤمه الداني، ويسعى الأبعد
د كان صوتا في المواقف عاليا ... وله القرارات التي لا تبعد
ذي البيوت نريدها معمورة ... ورسالة موصولة لا تُوءَدُ
ريدها حصنا نلوذ بظله ... ومحجة يسعى إليها القصد
وقاية من كل غزو طارئ ... وحماية من كل ما يستورد
مسارجا في كل ليل حالك ... تهدي إذا افتقد الدليل المرشد

* * *

ذي أماني المسلمين، فهل أرى ... يوما أمانينا حقائق تشهد؟
أرى بني الإسلام صفا واحدا ... أيديهمو في كل نائبة يد!
متى أرى فجر العروبة ساطعا ... ويغيب عن قومي الزمان الأنكد؟
ي لآمل أن أعيش وأن أرى ... يوم المنى، وقد استفاق الهجد
أرى طلائع قومنا في وحدة ... مرصوصة يرتاع منها الحسد

* * *

تشام في الحسن الغيور بوارق ... بالخير واعدة تفور وتنجد
خطو خطى أجداده في نصرهم ... للدين يعلي صرحه أو يسند
بنو الملوك الصالحين على هدى ... يعطون من أخلاقهم ما عودوا!
على يديه يؤمل الصحو الذي ... بسوى قيادته له لا يحمد
هو الطبيب — إذا أراد — لأمة ... سرطانها: جهل، وفقر مجهد

* * *

ذي القوافي ذوب قلب شاعر ... آهاته من كل قلب تصعد!
م تلهه اللذات عنك ولا المنى ... أو تصبه يوما حسان خرد
كم صاغ فيك روائعا وكأنه ... قيس لليلى في المضارب ينشد
جعي لنهج الله أمة أحمد ... فالعود من بعد الضلالة أحمد
ا تطلبوا طوق النجاة بغيره ... هو وحده في النائبات المنجد
النصر للإسلام وعد صادق ... لا ريب فيه، وإن تراخى الموعد

تطوان ـ محمد الحلوي

القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد

تأليف: الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني
عرض: الأستاذ منير البصكري
خريج دار الحديث الحسنية بالرباط

يعتبر هذا الكتاب ردا لابن حجر على أولئك الذين زعموا من - أهل الحديث - أن هناك بعض الأحاديث موضوعة في المسند الشهير للإمام الكبير أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل إمام أهل الحديث، المطلع على خفاياه، المثير لخباياه.

ويتضح ذلك من خلال العنوان الذي ارتضاه وهو: «القول المسدَّد في الذب عن المسند، للإمام أحمد».

والقارئ لهذا العنوان، يشم بلا ريب رائحة الدفاع عن المسند للإمام أحمد. وتزكية ما ورد فيه، فضلا عن البواعث التي حدت بالمؤلف للخوض في غمار الرد على من اتهم ابن حنبل بإدراج أحاديث موضوعة في مسنده.

يقول ابن حجر في هذا الصدد: «عصبية مني لا تخل بدين ولا مروءة. وحمية للسنة لا تعد بحمد الله من حَمِيَّةِ الجاهلية، بل هي ذب عن هذا المصنَّف العظيم الذي تلقته الأمة بالقبول والتكريم، وجعله إمامهم حجة يرجع إليه، ويعول عند الاختلاف عليه..».

يبدو من هذا الكلام أن ابن حجر يوافق مبدئيا على تنزيه المسند من كل شطط أو زلل.

فهل نعتبر هذا من قبيل الدفاع المطلق عن ابن حنبل الذي جعل من مسنده حجة ومرجعا؟ أم أن ابن حجر عاد إلى بعض المصادر الدينية، فدرس واستوعب وميز وأرجع كل شيء إلى نصابه؟ ثم ما هي نوعية هذه المصادر التي اعتمدها ابن حجر العسقلاني؟ هل يمكن الاطمئنان إليها، خاصة وأن مادة الحديث يصعب فيها التحقيق إلى درجة كبيرة من الأهمية؟ ثم ما هي منهجية ابن حجر في مثل هذا العمل؟

ـنرى أولا أن نقـف عند مـادة الكتـاب تعرف إلى محتويـاتها. فقد جمع الحافظ ن حجر أربعة وعشرين حديثا، حكم ابن جوزي بوضعهـا، وهي في مسنـد الإمام حمد، وأجاب عنهـا في الكتاب الـذي نحن صدده: «القـول المســدد في الـذب عن سنـد». وقد ذيـل السيـوطي على القـول لسدد، واستدرك أربعة عشر حديثا أيضا، كرها ابـن الجوزي وهي في المسند، وزاد ليها أحـاديث أخـرى، وجمعها في كتـاب عنـوان: «القـول الحســن في الـذب عن سنن».

ويذكـر ابن حجر أنـه قد سبـق له أن طلع على جـزء من الأحـاديث الموضـوعة جمعها الإمـام العلامـة حافـظ عصره زين دين عبد الرحيـم بن الحسين العـراقي. علق عليـه؛ وظهر له فيما بعـد أن يجمعه يتولاه بالتحقيق. وقبـل استرساله في هذا لأمر، يورد ابن حجـر ما أخبره به شيخه لعلامـة الحافظ أبـو الفضل بـن الحسين حين سأله بعض أصحابه في سنة خمسين سبعمائة، أن يفرد لـه ما وقـع في مسند لإمام أحمد بـن حنبل من الأحاديـث التي يل فيها: إنها موضوعة، فذكر له أن الذي في المسند من هذا النوع أحاديث ذوات عدد يست بالكثيرة.

والسؤال هـو: هل في المسنـد أحاديـث ضعيفة أو كلـه صحيح؟ يقـول العراقـي: «إن فيه أحـاديث ضعيفـة كثيرة، وإن فيه أحاديث يسيـرة موضوعة، فبلغني بعد ذلك أن بعض من ينتمي إلى مذهب الإمام أحمد أنكر هذا إنكـارا شديدا، من أن فيـه شيئا مـوضوعـا». ويضيف قـائلا: «ونقل عـن الشيخ تقي الدين بـن تيمية أن الذي وقـع فيه مـن هذا، هـو من زيـادات القطيعي لا من رواية الإمام أحمد، ولا مـن روايـة ابنه عبد الله عنه».

وهذا باعث آخر يدفـع بابن حجر للذب عما جاء في المسنـد للإمـام أحمد. غرضـه الوحيد، إظهار الحق وعدم كتمانه، اعتمادا على مـا جـاء في الحديـث الشريـف عـن الزهري عـن المسيب عن أبي هريـرة قال: قال رسول اللـه ﷺ: «ما أتـى الله عالما علما إلا أخـذ عليـه الميثـاق أن لا يكتمـه». ويرى ابن حجر أنه مـن الواجب أن يحقق في مسألـة الأحاديث الموضوعـة في المسند، أولا: لأنه سئل عن ذلك، وثانيا: أن العلماء قالوا: لا يجوز رواية الحديث الموضوع إلا مع بيان أنه موضوع.

وإن أول شيء يقوم بـه ابن حجـر، هو ذكر الأحاديـث الموضوعة بأسـانيد الإمام أحمد ليظهر مـوضع العلة، مقدمـا في ذلك سنـده إلى الإمام أحمد. وهـذا نموذج ممـا أورده: «أخبرني بجميـع مسند الإمـام أبي عبد الله أحمد بـن محمد بن حنبل مـع ما فيه من زياداتِ ابنِـهِ عبد الله رحمهما الله

تعالى، مسند الشام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن سالم الأنصاري بقرآتي عليه، بمنزله بدمشق، في الرحلة الأولى، أنا أبو الغنائم المسلم بن محمد بن علان، أنا حنبل بن عبد الله بن الفرج الرصافي، أنا هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين، أنا الحسين بن علي بن المذهب التميمي، أنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي، ثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي:»، وهنا ينتهي السند، ثم يبدأ الكلام عن الحديث الأول في التسمية بالوليد، ويذكر الإسناد كما ورد عند أحمد ابن حنبل. قال: حدثنا أبو المغيرة، ثنا ابن عياش، حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري عن ابن المسيب عن عمر بن الخطاب قال: «ولد لأخي أم سلمة زوج النبي ﷺ غلام فسموه الوليد، فقال النبي ﷺ سميتموه بأسماء في أعنتكم، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، هو أشر على هذه الأمة من فرعون لقومه».

وهنا يذكر ابن حجر المصادر التي يرد في ثناياها هذا الحديث. فقد أورده حاتم ابن حبان البستي في تاريخ الضعفاء في ترجمة إسماعيل بن عياش. ويرى ابن حبان أن هذا الخبر باطل، ما قال رسول الله ﷺ هذا، ولا رواه عمر، ولا حدث به سعيد ولا الزهري، ولا هو من حديث الأوزاعي بهذا الإسناد، فإسماعيل بن عياش لما كبر تغير حفظه، فكثر الخطأ في حديثه، ولا هو يعلم ذلك.

ونفس الحديث يورده ابن الجوزي في موضعين من كتابه (الموضوعات) وقال: لعل هذا قد أدخل على ابن عياش لما كبر؛ أو رواه وهو مختلط.

وهكذا يذكر ابن حجر الحديث الثاني مع ذكر سنده. ويتعلق هذا الحديث بسد الأبواب الشارعة في المسجد وترك باب علي. والعلة في وضع هذا الحديث – كما يقول ابن حجر – عبد الله بن شريك. قال عنه الجوزجاني: إنه كذاب. وقد أورد ابن الجوزي هذا الحديث أيضا في الموضوعات، وقال: إنه باطل لا يصح، وأضاف قائلا: «إنه من وضع الرافضة، قابلوا به الحديث المتفق على صحته في سد الأبواب غير باب أبي بكر، وهو في الصحيحين.

ويرد ابن حجر على هذا الكلام بقوله: «فإن استدل على وضعه بمخالفة هذا الحديث الصحيح، وإلا فإن الإمام أحمد وثق عبد الله بن شريك، وكذا وثقه ابن معين». ثم يذكر الحديث الثالث، وهو نفسه الذي سبق مع اختلاف في الإسناد، أما في الحديث الرابع، «من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله عز وجل، وبرئ الله منه؛ وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع، فقد برئت منهم ذمة الله

تبارك وتعالى». فقد رواه ابن عَدِيٍّ في الكامل في ترجمة أصبغ بن زيد وقال: إنه ليس بمحفوظ، كما رواه ابن الجوزي في (الموضوعات) من طريق أحمد وقال: لا يصح ذلك، أما حبان أصبغ فيرى أنه لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد، كما أورد هذا الحديث أبو حفص عمر بن بدر الموصلي في موضوعاته.

أما رد ابن حجر في هذا الصدد، فيقول: «وفي كونه موضوعا نظر. فإن أحمد وابن معين والنسائي وثقوا أصبغ. وقد أورد الحاكم في المستدرك على الصحيحين هذا الحديث من طريق أصبغ».

الحديث الخامس، وهو «ما من معتمر يعتمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء والجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة أحبه الله وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين قبل الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ تسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في أرضه، وشفع لأهل بيته». وهذا الحديث رواه أحمد موقوفا على أنس. ثم يذكر ابن حجر سنادا آخر لنفس الحديث، لكن بصياغة خرى. وللمقارنة نسوق هذا الحديث: «إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة أمنه الله من نواع من البلاء، من الجنون والجذام البرص، وإذا بلغ الخمسين لين الله عز وجل عليه حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته ومحا عنه سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في الأرض، وشفع في أهله». يقول ابن حجر: «وعلة الحديث المرفوع يوسف بن أبي ذرة». وقد أورد هذا الحديث ابن حباب في تاريخ الضعفاء، وقال: لا يحل الاحتجاج به، كما أن ابن الجوزي أورد الحديث نفسه في كتابه (الموضوعات) من الطريقين: المرفوع والموقوف وقال: لا يصح عن النبي ﷺ. وأعلَّ الحديث الموقوف بالفرج بن فضالة، وحكى أقوال الأئمة في تضعيفه، ويرى ابن حجر أن الفرج بن فضالة قد خلط في الحديث، وقلب إسناده، فجعله من حديث ابن عمر مرفوعا.

الحديث السادس وهو، بمعنى الحديث السابق، وقد ذكر ابن حجر سنده، كما أورده الإمام أحمد الذي لم يسق لفظه، وإنما أورده بعد حديث أنس الموقوف. ونبه إلى أن ابن الجوزي لم يذكر حديث ابن عمر في (الموضوعات). ويرى ابن حجر أنه كان ينبغي ذكره، لأنه موضوع قطعا. ومما يستدل به على وضعه، مخالفة الواقع. يقول ابن حجر: «وقد أخبرني من

أثق به أنه رأى رجلا حصل له جذام بعد الستين فضلا عن الأربعين».

الحديث السابع، ويتعلق بدخول عبد الرحمان بن عوف رضي الله عنه الجنة حبوا، ونجد هذا الحديث عند ابن الجوزي، الذي يرى أنه كذِبٌ مُنكَر، كما أن أبا حاتم الرازي لا يحتج به.

أما الحديث الثامن، فيتناول قوله ﷺ: «عسقلانُ أحَد العروسين يُبْعَثُ منهما يوم القيامة سبعون ألفا لا حساب عليهم، ويبعث منها خمسون ألفا شهداء وفودا إلى الله عز وجل، وبها صفوف الشهداء، رؤوسهم مقطعة في أيديهم تتج أوداجهم دما، يقولون: ﴿**ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد**﴾. فيقول: صدق عبادي، إغسلوهم في نهر الفيضة، فيخرجون منها نقاة بيضا، فيسرحون في الجنة حيث شاءوا». أورد هذا الحديث ابن الجوزي وقال: هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. كما أن ابن حبان يرى أنه لا يجوز الاحتجاج به، أما ابن عدي في (الكامل) فيقول: بأنه حديث غير محفوظ؛ وهو عند الذهبي في (الميزان) باطل.

ويتعلق الحديث التاسع، بالكلام عن فضل بعث خراسان، ونزول مدينة مرو، وقد أورد هذا الحديث ابن حبان في الضعفاء، وقال: سهل بن عبد الله، منكر الحديث (كما ورد في الإسناد). أما البخاري فيقول: فيه نظر. وهذه العبارة يقولها البخاري فيمن هو متروك.

بعد سرد كل هذه الأحاديث التسعة. مع ذكر المصادر التي أوردتها وحكمها عليها، يشرع ابن حجر في الأجوبة عن كلام الحافظ العراقي على هذه الأحاديث التسعة المذكورة. وهكذا يبدأ بتعقيب صريح على شيخه حينما احتج بحديث أبي هريرة من رواية موسى البلقاوي، واعترافه بأنه متهم، بمعنى أن الحفاظ اتهموه بالكذب، وإذا كان كذلك - كما يقول ابن حجر - فلا يصح أن يحتج بحديثه. وهنا يذكر المؤلف تخريج أبي نُعيم لهذا الحديث في الحلية. لكن بوجه آخر عن أبي هُريرة؛ وهو من رواية محمد بن عبدة القاضي، وكان يدعي سماع ما لم يسمع، وهو مشهور.

ويرى ابن حجر أنه لو احتج بما أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من سئل علما فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار»، لكان أولى. والحديث وإن لم يكن في نهاية الصحة، لكنه صالح للحجة، وهو على كل حال أولى من حديث البلقاوي.

إن أجوبة ابن حجر على هذه الأحاديث التسعة تتلخص في كلامه التالي: نجيب عنها أولا من طريق الإجمال، بأن الأحاديث

تي ذكرها ليس فيها شيء من أحاديث
لأحكام في الحلال والحرام، والتساهل في
يرادها مع ترك البيان بحالها شائع. وقد
بت عن الإمام أحمد وغيره من الأئمة أنهم
الوا: إذا روينا في الحلال والحرام شددنا،
إذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا،
هكذا حال هذه الأحاديث. ثم يضيف ابن
جر موضحا وواضعا كل حديث من
لأحاديث التسعة في نطاقه الخاص به.
يقول: فالأول منها يدخل في باب
تسمية، والثاني كالثالث في الفضائل،
لرابع في الحث على الكرم والبر والصلة
رعاية الجار، والخامس كالسادس في
ضل طول العمر في الإسلام، والسابع
حتمل التأويل وهو أمر نسبي، والثامن
التاسع في فضائل بعض البلدان، وفيها
حث على الرباط والجهاد». ثم بعد ذلك
دأ المؤلف في عرض كل حديث على حدة،
ستعملا في ذلك الدقة والتفصيل اللازمين،
ا ينبئ عن ثقافته الحديثية الواسعة،
طلاعه الكبير.

ونختار نموذجا واحدا من هذه
حاديث التسعة، نستشف من خلاله
وبة ابن حجر، منهجه وطريقته، ثم
ف يورد الحديث، ويرد عنه الشبهات
دافع عنه للكشف عن حقيقته، وهل
د من الأحاديث الموضوعة؟ ثم ما مدى
سبته إلى النبي ـ ﷺ ـ؟ يقول المؤلف مثلا:

«حديث سعيد بن المسيب في شأن التسمية بالوليد، فنقول: علته قول ابن حبان. إنه باطل، دعوى لا برهان عليها، ولا أتى بدليل يشهد لها. وقوله: إن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يقله ولا عمر ولا سعيد ولا الزهري، شهادةُ نفيٍ صدرت من غير استقراء تام على ما سنبينه. فهي مردودة، وكلامه في إسماعيل بن عياش غير مقبول. فإن رواية إسماعيل عن الشاميين عند الجمهور قوية، وهذا منها، وإنما ضعفوه في روايته عن غير أهل الشام. نص على ذلك يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني، وعمرو بن علي الفلاس، وعبد الرحمان بن إبراهيم دحيم، والبخاري، ويعقوب بن سفيان ويعقوب بن شيبة، وأبو إسحاق الجوزجاني والنسائي، والدولابي، وأبو أحمد ابن عدي، وآخرون. وقد وثقه بعضهم مطلقا. والعجب أن ابن حبان موافق للجماعة، على أن حديثه عن الشاميين مستقيم. وهذه عبارته فيه: كان إسماعيل من الحفاظ المتقنين في حديثهم، فلما كبر تغير حفظه. فما حفظه في صباه وحداثته أتى به على وجهه، وما حفظه على الكبر من حديث الغرباء خلط فيه، وأدخل الإسناد في الإسناد.. فهذا كما تراه قيد كلامه بحديث الغرباء، وليس حديثه المتقدم من حديثه عن الغرباء، وإنما هو من روايته عن شامي وهو الأوزاعي. وأما

إشارتـه إلى أنه تغير حفظه واختلـط... فلا أحد نسبـه إلى الاختلاط، وإنما نسبـوه إلى سوء الحفظ في حديثه عـن الشاميين، كأنه كان إذا رحـل إلى الحجاز أو العـراق اتكل على حفظـه فيخطـئ في أحاديثهـم». وقـد يطول بنا المجال أكثر لو أننا تتبعنا طريقة ابن حجر - كما وضحها في مؤلَّفه، - لكننا يمكـن أن نستشـف أهـم الخطـوات التـي نهجها، وهي:

أولا : رده على ابن حبان الذي قال بأن ذلك الحديث بـاطل، بحيث لم يأت بـدليل فهو ادّعـاءٌ لا يقـوم على بـرهـان، بل إن كلامـه في إسماعيل بن عياش غير مقبول، لأن رواية هـذا الأخير مقبولة وقويـة عند الجمهور.

ثانيا : ذكـره لأولئك الـذين ضَعّفُـوا إسماعيلَ بـنَ عياش عـن غير أهل الشـام، وقد وثقه بعضهم مطلقا.

ثالثـا : ذكـر الـروايات المختلفـة عـن إسماعيل بـن عياش عن عبد الـرحمان بن عمر والأوزاعي عن ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب، ثم رواية من تابع إسماعيل عن الأوزاعي. بعد هذا، ذكر رواية هـذا الحديث كما أخرجها يعقوب بن سفيـان في تاريخه، وكما أخرج نفس الحديث الحاكم في المستدرك.

رابعا : ذكر روايـة بشر بن بكـر التي أخرجها البيهقي في (دلائل النبوة).

خامسا : ذكر رواية محمد بن كثير.

سادسا : ذكر رواية الزبيدي.

سـابعـا : ذكـر روايـة الطبراني في (المعجم الكبير).

ثامنـا : استنتاجه على بطـلان شهادة ابن حبان بـأن رسول الله -ﷺ- مـا قاله، ولا سعيد بن المسيب حدث به، ولا الزهري ولا الأوزاعي.

بعد إثبـاته لكل هـذه الأحاديـث، يقول ابن حجـر في خاتمة أجـوبته على الحافـظ العراقي: «ولما انتهى الكلام إلى هذه الغاية، وتبين لي أن أغلب هذه الأحاديث مع قلتها، لا يتجـه الحكم عليهـا بـالـوضع، فكيـف بالقطع بذلك».

بعد هذا، يستهـل ابن حجر كلامـه مرة أخرى بـالجواب عن الأحاديث التـي رواها الإمام أحمد أيضا في مسنـده، وحكم عليها ابن الجوزي بـالوضع، ولكـن لم يذكـرها الحافظ العراقي، وهذه الأحاديث هي:

1 — حديث حذيفة في عذاب القبر وغير ذلك.

2 — حديث شداد بن أوس: من قرض بيت شعـر بعد العشاء الآخرة لم تقبـل له صلاة تلك الليلة.

3 — حديـث أبي هريرة: إن طالـت بك مدة، أوشك أن ترى قوما يغدون في سخط اللـه عـز وجـل، ويـروحـون في لعنتـه في أيديهم مثل أذناب البقر.

4 — حديث أبي أمامة: يكون في آخر الزمان في هذه الأمة ناس معهم سياط كأنها أذناب البقر.

5 — حديث علي: إن في الجنة لسوقا ما فيها بيع ولا شراء.

6 — حديث أنس بن مالك، إن عبدا في جهنم ينادي ألف سنة يا حنان يا منّانُ.

7 — حديث العباس بن مرداس، أن رسول الله ﷺ دعا ربه عشية عرفة بالمغفرة لأمته.

8 — حديث بن عمر في قصة هاروت وماروت.

9 — حديث ابن عباس: يكون قوم في آخر الزمان يخطبون بهذا السواد كحواصل الحمام، لا يَرِيحون رائحة الجنة.

10 — حديث عبد الله بن عمرو: لا يدخل الجنة منان ولا مدمن خمر.

11 — حديث البراء: من سمى المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي طابة طابة.

12 — حديث عبد الله بن حنظلة: الغسيل درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زينة.

13 — حديث إذا أقبلت الرايات السود من خراسان، فأتوها، فإن فيها خليفة الله المهدي.

14 — حديث أم الدرداء أن رسول الله ﷺ لقيها يوما فقال لها: من أين جئت يا أم الدرداء، فقالت: من الحمام.

15 — حديث أم سلمى في غسل فاطمة الزهراء قبل موتها غسل الميت.

وحين يثبت ابن حجر صحة هذه الأحاديث، وأنها غير موضوعة، يقول:

«هذا آخر ما تتبعته من الأحاديث التي أوردها ابن الجوزي في الموضوعات، ولم يذكرها شيخنا وهي على شرطه، لكونه لم يقتصر في الحكم عليها بالوضع على النقل عن شخص مخصوص، بل اعتمد في الغالب على ابن الجوزي، فسلكت مسلكه في ذلك». ويضيف قائلا: «والذي أقول إنه لا يتأتى الحكم على شيء منها بالوضع لما بينته من الأجوبة عقب كل حديث. والله الهادي إلى الصواب». ثم يختم كلامه بقوله: «هذا آخر الجزء المسمى بالقول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد»، ثم يذكر بعد ذلك فراغه من كتابة هذا الجزء، وكان ذلك في سنة تسع عشرة وثمانمائة، ثم يحمد الله ويصلي على نبيه.

ومباشرة، يستهل الحديث عن بعض الذيول التي وضعت عل القول المسدد، وخص الحديث هنا على ذيل للعلامة المحدث قاضي الملك محمد صبغة الله المدارسي رحمه الله تعالى.

وفي البدء، يذكر تاريخ طبع هذه الرسالة، وكان ذلك في أوائل شهر ذي

الحجة عام 1319 هجرية. أما المصدر الذي نقل عنه، فهو للمولوي أبي محمد زين العابدين البهاري، ثم يذكر في نفس (الآن) المصدر الذي نقل عنه المولوي. يقول: «وكان هو (أي المولوي) نقله عن النسخة الموجودة في خزينة الكتب للمولوي خدايخش خان، وكانت هذه النسخة منقولة عن النسخة التي قرأها السخاوي على شيخه الحافظ ابن حجر، وقابل بأصل شيخه، ثم قابلها أيضا مصححو المطبعة حين الطبع، مع نسخة أخرى». انتهى كلامه.

وهكذا يورد هذا الذيل، وفي البدء يورد محمد صبغة الله المدارسي الباعث على وضع هذا الذيل ويقول: «إن الحافظ العراقي ذكر تسعة أحاديث، واستدرك عليه الحافظ العسقلاني، وزاد خمسة عشر حديثا، فصار المجموع أربعة وعشرين حديثا. وقد ذكر الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه: (النكت البديعات على الموضوعات) أن في موضوعات ابن الجوزي ثمانية وثلاثين حديثا من مسند الإمام أحمد رضي الله عنه. وها أنا أذكر الأحاديث التي فاتت الحافظ العسقلاني رحمه الله تعالى».

ثم يُورِدُ هذه الأحاديث، نقتصر على ذكر نماذج منها.

فالحديث الأول: هو حديث أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿**فلما تجلىَّ ربُّه للجبل جعله دَكاً، وخرَّ موسى صَعِقا**﴾.

الثاني: حديث أبي أمامة، قال: «من تمام العيادة للمريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو يده، فيسأله كيف هو، وتمام تحياتكم بينكم المصافحة».

الثالث: حديث ثوبان: إذا أصاب أحدكم الحمى.

الرابع: حديث جرير ابن عبد الله: خرجنا مع رسول الله ﷺ فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا.

الخامس: حديث أبي الأسود الديلمي، قال: كان معاذ باليمن، فارتفعوا إليه في يهودي مات وترك أخاه مسلما.

السادس: حديث مالك بن عتاهية: إذا لقيتم عاشرا فاقتلوه.

السابع: حديث أبي برزة: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فسمع رجلين يتغنيان.

الثامن: حديث أنس: ما من أحد يوم القيامة غني ولا فقير.... الخ الحديث.

التاسع: حديث عثمان بن عفان: الصحة تمنع الرزق.

العاشر: حديث علي. يقول: أنا أول رجل صلى مع رسول الله ﷺ.

لنأخذ نموذجا واحدا من هذه الأحاديث، لنقف على الكيفية التي يحقق بها العلامة المحدث قاضي الملك محمد

صبغة الله المدارسي، مقارنين بين ما أورده الحافظ بن حجر، وما جاء في ذيل محمد صبغة الله المدارسي.

ولنختار الحديث الأول: قال الإمام أحمد رضي الله عنه، حدثنا أبو المثنى معاذ ابن معاذ العنبري، ثنا حماد بن سلمة، ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل**﴾ قال: قال هكذا يعني أنه أخرج طرف الخنصر، قال أحمد: أرانا معاذ، قال: فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد، قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد، وما أنت يا حميد، يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ فتقول: أنت ما تريد إليه. ورواه أيضاً عن روح عن حماد أورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق عدي، قال حدثنا علي بن أحمد بن بسطام، ثنا هدبة، ثنا حماد بن سلمة، ثنا ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا**﴾، قال: أخرج خنصره على إبهامه فساخ الجبل. ونقل عن ابن عدي قال: كان ابن أبي العرجاء ربيب حماد بن سلمة، فكان يدس في كتبه هذه الأحاديث، قلت: قال الحافظ السيوطي في (اللآلئ المصنوعة) هذا الحديث صحيح، رواه خلق من حماد بن سلمة، وأخرجه الأئمة من طرق عنه وصححوه. ثم ذكر طريق أحمد، قال: وأخرجه الترمذي من طريق سليمان بن حرب عن حماد وقال: حسن صحيح غريب، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة من طريق أسد بن موسى، وحجاج بن المنهال كلاهما عن حماد، وأخرجه ابن مردويه في التفسير من طريق مسلم، بن إبراهيم عن حماد، وأخرجه الحاكم في المستدرك من طريق عنان بن مسلم وسليمان بن حرب، ومن طريق محمد بن كثير عن حماد. وأخرجه الضياء المقدسي في (المختارة) وصححه. وقد ذكر الزركشي في تخريج الرافعي أن تصحيحه أعلى مرتبة من تصحيح الحاكم، وأنه قريب من تصحيح الترمذي وابن حبان، وقال ابن طاهر في (تذكرة الحفاظ): أورد ابن عدي هذا الحديث في ترجمة حماد بن سلمة، ولعله أشار إلى تفرده به، وحماد إمام ثقة. وقال البيهقي بعد تخريجه: وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا، ثم أخرج من طريق عمرو بن طلحة عن أسباط عن السدي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا**﴾، قال تجلى منه مثل طرف الخنصر، فجعل الجبل دكا، وأخرجه الحاكم وصححه وأخرجه الطبراني في السنة من طريق عمرو بن محمد العنقزي عن أسباط، ثم وجدت

لحماد بن سلمة متابعا عن ثابت عن أنس به، وأخرجه ابن مردويه أيضا من طريق شعيب بن عبد الحميد الطمان عن قرة بن عيسى عن الأعمش عن رجل عن أنس رضي الله عنه به، وورد أيضا من حديث ابن عمر أخرجه ابن مردويه من طريق المسيب بن شريك عن ابن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا به (انتهى كلام السيوطي).

قلت: ما نقل أنه دس في كتبه فلا يصح، وإنما نقله محمد بن شجاع بن الثلجي. قال الذهبي في الميزان: (ابن الثلجي ليس بِمُصَدَّقٍ على حماد وأمثاله وقد اتهم).

وهكذا نستنتج أن العلامة الحافظ محمد صبغة الله يعتمد في تحقيقه هذا الخطوات التالية:

1 — إيراده للحديث كما ورد عند الإمام أحمد بسنده.

2 — ذكر ابن الجوزي لنفس الحديث في الموضوعات من طريق ابن عدي.

3 — قول الحافظ السيوطي في كتابه: (اللآلى المصنوعة) أن الحديث صحيح.

4 — بعد هذا يذكر مختلف المستخرجات كما وردت عند السيوطي، ومنها ما أخرجه ابن أبي عاصم، وما أخرجه الحاكم في (المستدرك) والبيهقي في (كتاب الرؤية) والضياء المقدسي في (المختارة) والطبراني في السنة وابن مردويه. ثم يعقب بعد هذا كله، ويدلي برأيه في الحديث من خلال هذه العملية الاستقرائية.

وهكذا يتبين لنا واضحا، أن ليس هناك فرق بين العالِمَيْنِ فيما يتعلق بإثباتهما لهذه الأحاديث التي قيل إنها موضوعة وواردة في مسند الإمام أحمد.

وعلى هذا النحو، ترسم الملامح المشتركة التي جمعت بين ابن حجر ووالده في وضع هذا الكتاب، واختيار الصورة اللائقة به. يقول صبغة الله بن محمد غوث في آخر الجزء الذي ذيل به على القول المسدد: «هذا آخر ما أردت جمعه، وقد رأيت في بعض التعاليق أن الحافظ السيوطي ذيل عليه أيضا، ولم أقف على ذلك الذيل. فمن وقف عليه فليحقق ما فاتنا وبالله التوفيق». ثم يضيف قائلا: «وفرغت من تحريره يوم الثلاثاء الثاني من ذي القعدة الحرام سنة ألف ومائتين وتسع وسبعين».

أما ابن حجر، فيختم الكتاب بقوله: «فرغت أنا من تحريره يوم الثلاثاء العشر من هجرة خاتم الأنبياء سيد البشر».

يتبين لنا إذن، أن الحافظ بن حجر وضع الكتاب في صورته الأولى، وكان عبارة عن جمع الأحاديث التي حكم ابن الجوزي بوضعها، وهي في مسند الإمام

حمد وأجاب عنها. ثم جاء الحافظ سيوطي فذيل على كتاب ابن حجر لقول المسدد) ذيلا سماه: «القول الحسن الذب عن السنن»، وهو ما يشير إليه سبغة الله بن محمد في الذيل الذي وضعه و كذلك على «القول المسدد».

يبقى بعد هذا أن نقف عند المنهجية تي سارَ وِفْقَها ابن حجر في كتابه. يقول المقدمة: «أذكر وجه الذب عن الأحاديث ذكورة على طريقة أهل الحديث من غير عسف ولا تكلف». ويضيف أيضا: جمعت في هذه الأوراق ما وقع في المسند ن رواية الإمام أحمد، ومن رواية ابنه عبد له مما قال فيه بعض أئمة هذا الشأن: ه موضوع، وبعض هذه الأحاديث مما لم وافق من ادعى وضعها على ذلك، فأبينه ع سلوك الإنصاف».

أول ما يلاحظ إذن، أن ابن حجر قد عتمد في كتابه القول المسدد على التحري الصدق والدقة والاستقصاء في الخبر، لأن ن شأن المدافع عن أمر ما أن تروعه دقة الشديدة في الرواية والإسناد الذي رومه، والحذر البالغ في الأخذ والتقصي، نجده يقارن ويقابل بين الروايات: وينص لى ما قد زيد على هذه الرواية أو تلك؛ كأن ابن حجر اتخذ من حديث رسول له في خطبة حجة الوداع: «نَضَّر الله مرءا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها؛ فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، مقياسا ومبدءا قويا، فكان يميز الثقات من الضعفاء والمتهمين، وهو لا يَتَّهِم لا عن بينة، ولا يقبل من الراوي إلا بعد التوثيق الشديد.

ولا يسع المرء في هذا المقام إلا الاعتراف - من خلال هذه المنهجية الدقيقة والخطة القويمة التي تبناها ابن حجر في مؤلفه - بأنه من كبار الحفاظ؛ حاز ثقافة واسعة بالحديث ووجوه صحته وحسنه وضعفه وعلله وطرقه ورواته. ولا أدل على هذا من اعتماده على أعلى الطرق كالسماع والقراءة.

ومن هنا تظهر جليا قيمة الكتاب، ويتجلى ذلك من خلال قدرته التأليفية، لأن جوانب قوته تبدو في طريقة تأليفه وفي منهجه، فهو عالم بأصول الحديث، حجة فيه، بارع في علوم الرواية والإسناد، له خبرة بالحديث وقوة على استحضار السند كاملا والتعقيب عليه، فتحس وأنت تقرأ كتابه كأنك طالب من طلابه يتدرج بك من البسيط إلى المركب، فهو لا يقدم المعلومات فقط، بل إنه زيادة على ذلك يمكن القارئ من وسائل معرفة أدوات الحديث بطريقة علمية ترتكز على الدقة.

وتلك خصائص قيمة تدفعنا إلى أن نتحدث عن كتاب «القول المسدد» وعن مؤلفه ابن حجر العسقلاني.

الرباط - منير البصكري

القول الفصل في مسألة

الرؤية واختلاف المطالع

انطلاقا من قول البخاري: باب قول النبي ﷺ:

«إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا»

للأستاذ أحمد بودهان
عضو المجلس العلمي الاقليمي بالناظور

في إطار الدراسات التي يقوم بها أعضاء المجالس العلمية الإقليمية للمملكة لصحيح البخاري، بمناسبة شهر رمضان المعظم، وطبقا لتوزيع كتب الصحيح على المجالس المذكورة، بما في ذلك أعضاء المجلس العلمي الإقليمي للناضور والحسيمة، الذي خصص له من كتاب «الصوم» إلى كتاب «الصلح»، كان نصيبي أنا من هذا التوزيع من كتاب «الصوم» إلى كتاب «المظالم».

ومن بين هذه الكتب، اخترت موضوعي المتواضع هذا، والذي هو من كتاب الصوم، الباب الحادي عشر عند قول البخاري: باب قول النبي ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا»، وقال صلة عن عمار: من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم ﷺ.

والشيء الذي جعلني أختار الكلام في هذا الموضوع بالذات، موضوع الرؤية واختلاف المطالع، هو كثرة التساؤلات المطروحة من طرف الناس، بخصوص إمكان أو عدم إمكان توحيد الصيام والأعياد والمناسبات الدينية، تبعا لإمكان أو عدم إمكان توحيد رؤية الهلال نظرا لاختلاف المطالع، وإلى أي حد يمكن أو لا يمكن التوفيق بين هذا التوحيد، وحديث الباب: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا».

وسوف أتطرق في بحثي المتواضع هذا إلى المحاور التالية:

أولا: ذكر حديث الباب مع شواهده كما جاء في الصحيح.

ثانيا: توثيق أحاديث الباب بذكر
واتها وألفاظها المختلفة.

ثالثا: تحديد مضامينها المتمحورة
ول **التقيد بالرؤية حسب الظاهر.**

رابعا: التقيد بالرؤية يبدو مناهضا
كرة توحيد الأعياد، نظرا لاختلاف
طالع.

خامسا: إلى أي حد يمكن أو لا يمكن
توفيق بين توحيد الرؤية واختلاف
طالع؟

أولا: ذكر أحاديث الباب كما وردت في
صحيح .

الحديث الأول :

قال البخاري: باب قول النبي ـ ﷺ ـ:
إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه
أفطروا». وقال صلة عن عمار: «من صام
وم الشك، فقد عصى أبا القاسم ـ ﷺ ـ».

الحديث الثاني :

حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن
افع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما
ن رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر رمضان فقال:
لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا
حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له».

الحديث الثالث :

حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الشهر تسع وعشرون ليلة، فلا تصوموا حتى تروه، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين».

الحديث الرابع :

حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن جبلة ابن سحيم قال: «سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «الشهر هكذا وهكذا. وخنس الإبهام في الثالثة».

الحديث الخامس :

حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا محمد بن زياد، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي ـ ﷺ ـ أو قال أبو القاسم ـ ﷺ ـ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُبِّيَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين».

الحديث السادس :

حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن يحيى بن عبد الله بن صيفي عن عكرمة بن عبد الرحمان عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ـ ﷺ ـ آلى من نسائه شهرا، فلما مضى تسعة وعشرون يوما، غدا ـ أو

راح ـ فقيل له: «إنك حلفت أن لا تدخل شهرا، فقال: «إن الشهر يكون تسعة وعشرين يوما».

ثانيا: توثيق أحاديث الباب.

أورد البخاري هذه الأحاديث في الباب الحادي عشر من كتاب الصوم. وأحاديث الباب ستة، بالإضافة إلى الحديثين المذكورين في العنوان. الأول لم يذكر سنده هنا في هذا الباب اختصارا، لأن السند ذكر في الباب الخامس من نفس الكتاب. (الصوم) في الحديث رقم 1900 عن ابن شهاب بلفظ: «إذا رأيتموه فصوموا.. إلخ». أما لفظه هنا كما رأينا وموافق للفظ مسلم: عن أبي هريرة: «إذا رأيتم الهلال فصوموا».

أما الحديث الثاني في العنوان أيضا فسنده مذكور. وعلى ذكر السند فإننا سوف لا نتعرض هنا لدراسة السند بذكر تراجم الرواة، لأن ذلك سيجعل هذا البحث المتواضع مطولا، وسنكتفي فقط بذكر أرقام الأحاديث الستة وألفاظها المختلفة أحيانا حسب الروايات، ومعاني هذه الألفاظ.

الحديث الأول: رقم 1906، «لا تصوموا حتى........ إلى فإن غم عليكم فاقدروا له».

الحديث الثاني: رقم 1907، «الشهر تسع وعشرون.... إلى فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين».

الحديث الثالث: رقم 1908، «الشهر هكذا».

والأحاديث الثلاثة كلها عن ابن عمر رضي الله عنهما. والملاحظ أن الأول ينتهي بقوله ـ ﷺ ـ فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له. أي إذا كان الجو غائما تعذرت معه رؤية الهلال، أو كان صحوا ولم تثبت الرؤية فعدوا الأيام من بداية الشهر إلى ثلاثين يوما ثم صوموا إذا كان الأمر يتعلق بشهر رمضان، أو أفطروا إذا كان الأمر يتعلق بشهر شوال. وينتهي حديث ابن عمر الثاني بقوله ـ ﷺ ـ: «فإن غم عليكم فأكملوا...» وهذا موضح ومؤكد للأول، حيث فسر الحديث بالحديث. أما الحديث الثالث فيحمل رقم 1908 لابن عمر أيضا ففيه: هكذا وهكذا. أي مرة تسعة وعشرون ومرة ثلاثون، وفي رواية أخرى لابن عمر أيضا في حديث رقم 1913: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا...».

الحديث الرابع: رقم 1909، عن أبي هريرة ينتهي بـ: فإن غبي عليكم.... إلخ. قيل من الغباوة، وقيل من التعمية لصعوبة الرؤية.

الحديث الخامس: 1910، ومثله عن
س رقم 1911 «الشهر يكون تسعة
شرون يوما».

ثالثا: تحديد مضامين هذه الأحاديث.

إن محل الترجمة التي من أجلها هنا رد البخاري هذه الأحاديث، هو النهي صيام يوم الشك مع تحديد عدد أيام شهر القمري ما بين تسعة وعشرين إلى لاثين، وبالتالي تعليق الصوم أو الفطر الرؤية وتقييدهما بها. ويفهم هذا ضوح من منطوق قوله ﷺ: «فإن غم يكم فاقدروا له» وقوله ﷺ: «فأكملوا دة ثلاثين». وقوله عليه السلام: أكملوا عدة شعبان ثلاثين».

ونلاحظ أنه بالرغم من اختلاف بعض لفاظ هنا باختلاف الروايات فإن عبارات الثلاث تؤكد بعضها بعضا بشكل ريجي إلى أن اتضحت العبارة أكثر في: أكملوا عدة شعبان ثلاثين.

ويفهم هذا أكثر من قوله ﷺ: «لا صوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا تى تروه» فهذا يعني النهي عن صيام مضان قبل ثبوت رؤية الهلال، وكذلك له ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، إذا رأيتموه فأفطروا». قال ابن حجر: وهذا ظاهر في النهي عن ابتداء صوم رمضان قبل رؤية الهلال، فيدخل فيه صورة الغيم وغيرها».

وهناك مسألة أخرى في هذا المجال. مجال الرؤية، وهي أن الأمر بالتقييد بالرؤية أو بالإتمام يتناول كل شهر من الشهور القمرية بما في ذلك شهر شعبان، وشهر رمضان، اللذان هما محل الترجمة هنا، وذلك بدليل قوله عليه السلام: «الشهر هكذا وهكذا» يعني تارة تسعة وعشرين وتارة ثلاثين، وكذلك قوله ﷺ: «إن الشهر يكون تسعة وعشرين يوما» وكذلك قوله ﷺ: «فأكملوا العدة» أي عدة أي شهر دون تخصيص شهر دون شهر.(1) وهذا التعميم المتمثل في تحديد أيام الشهر القمري بين تسعة وعشرين وثلاثين، دون تخصيص ذلك بشعبان ورمضان، هو تعميم مهم بالنسبة لمن يرى وجوب توحيد كل الأعياد والمناسبات الدينية: كالمولد والهجرة وبدر، والحج والأضحى إلخ... وليس فقط توحيد الصيام والفطر. وهنا تبرز الإشكالية الكبرى، ألا وهي اختلاف المطالع، أي أنه إذا كانت أحاديث الباب تقيدنا بالرؤية، فإن هذه الرؤية تختلف من بلد لآخر باختلاف مطالعها زمنيا، وهذا يعارض فكرة توحيد الأعياد...

(1) انظر: كتاب الفتح.

رابعا: التقيد بالرؤية مع اختلاف المطالع يتناقض مع فكرة توحيد الرؤية والمناسبات الدينية.

المراد بالتقيد بالرؤية، هو أننا ـ نحن معشر المسلمين ـ يجب علينا ألا ندخل في بداية أي شهر قمري هلالي إلا بعد التأكد من ثبوت رؤية هلاله عشية اليوم التاسع والعشرين من الشهر الذي سبقه، وإذا لم نتمكن من رؤية هلاله تلك العشية بسبب الغيم مثلا، أو لكونه لم يثبت رغم الصحو، فإننا نزيد يوما آخر إلى التسعة والعشرين لنكمل العدة ثلاثين، حيث تكون رؤية الهلال ثابتة قطعيا، سواء راقبناه وعايناه أو لم نفعل. وهذا يعني أن التقيد بالرؤية حاصل في كلا الحالين، إما عشية التاسع والعشرين، وإما عشية الثلاثين، ووجوب التقيد بالرؤية للانتقال من شهر إلى بداية الشهر الموالي هو الذي فهمناه من أحاديث الباب.

أما المراد باختلاف المطالع، فإننا نعلم أن المطلع في المبنى هو بداية الشيء أو هو أوله واستهلاله، أما المطلع من اصطلاح الفلكيين فيعني ظهور هلال الشهر لأول مرة، وبعبارة أخرى نقول: إن المطلع اسم زمان للوقت الذي يرى فيه الناس هلال الشهر للمرة الأولى. وبما أن الأرض كروية كما نعلم، وبما أن القمر يتنقل خلال الشهر عبر منازل معروفة، وبما أن تنقله قد يكون سريعا أحيانا وبطيئا أحيانا، وبما أن بلدان المعمور متباعدة فيما بينها من المشرق إلى المغرب، فإنه يستحيل جغرافيا وفلكيا وحسابيا أيضا أن يكون مطلع الهلال في عشية واحدة بالنسبة لكل بلدان العالم، بل إن مطلع هلال كل شهر يختلف من بلد لآخر زمنيا للأسباب المذكورة، وهذا ما يسمى عند الفلكيين وعلماء التنجيم الفلكي والحسابي بـ: «اختلاف المطالع».

أما المراد بفكرة توحيد الرؤية والأعياد الدينية، فتعني عكس «اختلاف المطالع» أي أنها تهدف أساسا إلى ما يمكن تسميته «باتفاق المطالع» أو توافقها، من الاتفاق والتوحيد في المناسبات الدينية. وهكذا نرى أن وجوب التقيد بالرؤية حسب الشرع في الأحاديث السابقة يقتضي عدم اتفاق بلدان المعمور في مطالعها الهلالية جغرافيا وزمنيا وحتى حسابيا، وبالتالي فإن فكرة توحيد الأعياد والمناسبات الدينية أمر قد يبدو صعبا إن لم نقل مستحيلا بالنظر إلى وجوب التقيد بالرؤية التي تختلف مطالعها باختلاف مطالع كل بلد زمنيا.

والسؤال المطروح الآن هو، إلى أي حد يمكن أولا يمكن التوفيق بين توحيد الرؤية وبين اختلاف المطالع؟ أو ذلك من أجل توحيد أعيادنا ومناسباتنا الدينية؟

خامسا: إلى أي حد يمكن أو لا يمكن توفيق بين توحيد الرؤية واختلاف طالع؟

هذا هو بيت القصيد في الموضوع، بعد هيد قصير، وتوثيق لنصوص أحاديث باب، وتحديد لمضامينها المتمحورة حول تقيد بالرؤية رغم اختلاف طالع.

أجل.. إن فكرة توحيد الأعياد لمناسبات الدينية عن طريق توحيد رؤية بتوحيد المطالع، هي فكرة ليست ليدة العصر، بل إنها مسألة شغلت بال أئمة المسلمين قديما، منذ البادية، أي منذ صر الصحابة إلى يومنا هذا، حيث لم ب عن المسلمين ما لهذا التوحيد والاتفاق من أجل دعم الصف وتقوية الأواصر روحية والمعنوية والأخوية - من فوائد إيجابيات.

إلا أن الشيء الذي حال دون تنفيذ هذه رغبة وتعميمها، هو تباين وجهة نظر لماء الأصول والفقه ما بين قائل بالفكرة معارض لها، الشيء الذي جعل المسألة لافية عند البعض، ومرفوضة أصلا عند بعض، ولكل حجته ودليله. أما السبب خلافي الحاصل في المسألة فراجع أساسا اختلاف في فهم ظاهر النص في قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته..» قوله ﷺ: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه...» وقوله عليه السلام: «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا». والشاهد في هذه النصوص التي سبق توثيقها آنفا، هو قوله ﷺ: «صوموا... وأفطروا...» فهناك من يرى أن الخطاب في النص موجه إلى الخصوص، وهم أهل الحجاز، أو على الأوسع سكان الجزيرة العربية خاصة. وهناك من يرى أن الخطاب في النص موجه للعموم، أي للأمة الإسلامية عامة في كل بلد، وهذا الأخير هو الموافق لظاهر النص عند العلماء، وعلى أساس هذا الخلاف في فهم ظاهر النص المحمول أحيانا على الخصوص، وأحيانا على العموم، كاتجاهين رئيسيين متقابلين متضادين، نشأ اتجاه آخر أي توفيقي بين الرأيين الأولين... وسوف نستعرض أصحاب الرأي القائل بعموم اللفظ مع ذكر حججه والردود عليه، ثم نستعرض أصحاب الرأي القائل بخصوص اللفظ مع ذكر حججهم والردود عليهم، كما نستعرض ذكر أصحاب الرأي الثالث القائل بالتقارب توفيقا ووسطا، وبعدها نحاول صياغة تركيبية للإجابة على الطرح الوارد: إلى أي حد يمكن أو لا يمكن التوفيق بين توحيد الرؤية واختلاف المطالع من أجل توحيد الأعياد؟

القول الأول: «رؤية بلد ما هي رؤية لكل البلدان الإسلامية».

هذا القول، هو قول الجمهور من أهل السنة والجماعة بما في ذلك أئمة المذاهب في بعض أقوالهم دون أقوالهم الأخرى.

وملخص قول الجمهور هذا، هو أن رؤية الهلال إذا ثبتت في بلد ما يكون ذلك ملزما لكل البلدان الإسلامية، حيث يكون الجميع تابعا للبلد الوحيد الذي ثبتت فيه رؤية الهلال، أي أن اختلاف المطالع المتقاربة أو المتباعدة لا يؤخذ بعين الاعتبار.

وحجة الجمهور في هذا التعميم والتوحيد وعدم اعتبار اختلاف المطالع، هو ظاهر النص، المحمول على العموم لا على الخصوص في خطاب الرسول ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته». وذلك على أساس أن خطاب الرسول ﷺ كان موجها لعموم المسلمين باعتبارنا أمة واحدة، بغض النظر عن الفوارق والأبعاد الجغرافية المؤدية طبعا إلى اختلاف المطالع في تقديم أو تأخير رؤية بلد عن آخر، ومعظم أحاديث الرسول ﷺ الموجهة للأمة تحمل ظاهريا على عمومها ما لم يدل نص صريح على التخصيص. هذا بالإضافة إلى استنتاج آخر ذكره الفقهاء وعلماء الحديث وهو: أن خطاب الرسول ﷺ في حديث الباب الذي يعلق الصيام والإفطار بالرؤية لا يعني وجوب رؤية الهلال على كل فرد كفرض عين بالنسبة لأهل بلد الرؤية، وإنما يعني أن الرؤية فرض كفاية، بحيث يكفي ثبوتها برؤية عدلين أو أكثر إلى حد الاستفاضة التي لم تبلغ طبعا حد التعميم على مستوى الأفراد. وإذا كان تعميم الرؤية الحسية ليس بواجب على كل الأفراد وجوب عين في بلد الرؤية، فكذلك ليس بواجب تعميم الرؤية الحسية على مستوى البلدان، إذ يكفي لثبوتها وتعميمها رؤية بلد واحد، فتسري رؤية البلد الوحيد هذا على كل البلدان عن طريق الخبر المنقول بشهادة عدلين أو بشهادة عن استفاضة، أو استفاضة عن شهادة، أو استفاضة عن استفاضة، أو بشهادة عن شهادة، كما هو مقرر فقهيا، سواء تعلق الأمر بأهالي بلد الرؤية الوحيد، أو تعلق الأمر بطريقة نقل وإيصال خبر الرؤية من البلد الوحيد إلى البلدان التي لم تتمكن من رؤية الهلال بسبب اختلاف المطالع في أبعادها وآفاقها.

وهذه بعض الأقوال المنقولة عن أئمة المذاهب، والتي تمثل الجمهور في هذا الاتجاه الأول في المسألة بخصوص «**رؤية بلد ما هي رؤية لكل البلدان**».

قال ابن حجر في «الفتح»: «إذا رؤي ببلدة لزم أهل البلاد كلها، وهو المشهور عند المالكية»؛ ونقل عن القرطبي قوله

فقال: قال القرطبي: «قد قال شيوخنا: إذا كانت رؤية الهلال ظاهرة قاطعة بموضع ثم نقل إلى غيرهم بشهادة اثنين لزمهم الصوم»؛ وقال صاحب «الفتح» أيضا وهو يتحدث عن وجوب هذا التعميم في المذهب الشافعي في وجه من أوجهه: «واختار أبو الطيب وطائفة الوجوب، وحكاه البغوي عن الشافعي». ويشير ابن حجر إلى حجة الجمهور في اتجاههم التعميمي الإلزامي هذا، كما أشرنا إليها من قبل بخصوص عدم وجوب رؤية كل بلد، قياسا على عدم وجوب رؤية كل فرد في بلد الرؤية فيقول: «وقد تمسك بتعليق الصوم بالرؤية من ذهب إلى إلزام أهل البلد برؤية أهل بلد غيرها». وهذا يعني الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوصه، ثم يرد ابن حجر على الذين يقولون بخصوص اللفظ، ويعتبر ذلك مخالفا لظاهر النص ومصروفا عنه فيقول في هذا الشأن بالذات: «ولكنه (أي النص) مصروف عن ظاهره، فلا يتوقف الحال على رؤية كل واحد فلا يتقيد بالبلد». أي أن خطاب الرسول ﷺ لا يوجب الرؤية على كل فرد بالنسبة لأهالي بلد الرؤية الوحيد، وكذلك لا يوجب الرؤية على كل بلد، بل يكفي رؤية الهلال بشاهدين داخل بلد الرؤية، ويكفي رؤيته في بلد واحد ليصوم كل البلدان.

وفي هذا الاتجاه دائما والمتعلق بقول الجمهور في المسألة يقول: (ابن رشد) في البداية بعد أن ذكر الخلاف: «فأما مالك، فإن ابن القاسم والمصريين رووا عنه أنه إذا ثبت عند أهل بلد، أن أهل بلد آخر رأوا الهلال، عليهم قضاء ذلك اليوم الذي أفطروه وصامه غيرهم، وبه قال الشافعي وأحمد. وقال الصنعاني في «سبل السلام» وهو يشرح حديث الباب في بلوغ المرام «لابن حجر»: وظاهره اشتراط رؤية الجميع من المخاطبين، لكن قام الإجماع على عدم وجوب ذلك، بل المراد ما يثبت به الحكم الشرعي من إخبار الواحد العدل أو الإثنين على خلاف في ذلك. فمعنى (إذا رأيتموه) أي: إذا وجدت فيما بينكم الرؤية، فيدل هذا على أن رؤية بلد، رؤية لجميع أهل البلاد، فيلزم الحكم وقيل: لا...» والشاهد عندنا هنا هو قوله: «إن رؤية بلد رؤية لجميع... إلخ...»، وهو موافق لرأي الجمهور رغم الخلاف الذي سيأتي.

ويقول ابن جزي في «القوانين الفقهية» في رؤية الهلال، (الفرع الثاني) مشيرا إلى قول الجمهور هذا: «إذا رآه أهل بلد لزم الحكم غيرهم من أهل البلدان وفاقا للشافعي... إلخ...»، ثم أورد توضيحا آخر في المسألة سنذكره في القول الثاني.

وجاء في كتاب «الفقه على المذاهب الخمسة» لمحمد جواد مغنية في ثبوت

الهلال ما يلي:

«قال الحنفية والمالكية والحنابلة: «متى ثبتت رؤية الهلال بقطر يجب على أهل سائر الأقطار من غير فرق بين القريب والبعيد، ولا عبرة باختلاف مطلع الهلال».

وهذا أيضا قول موافق لقول الجمهور.

وأورد السيد سابق في كتابه: «فقه السنة» ملخصا لرأي الجمهور بخصوص وجوب تعميم الرؤية انطلاقا من بلد واحد بغض النظر عن اختلاف المطالع فيقول: «ذهب الجمهور إلى أنه لا عبرة باختلاف المطالع، فمتى رأى الهلال أهل بلد وجب الصوم على جميع البلاد لقول الرسول ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، وهو خطاب عام لجميع الأمة فمن رآه منهم في أي مكان كان ذلك رؤية لهم جميعا». وسيأتي الكلام على الرأي المقابل في فقه السنة... وحسبنا أن نكتفي بهذا، بخصوص ذكر بعض آراء الجمهور، مع الإشارة إلى أن هذا الاتجاه الجمهوري يشمل كل أصحاب المذاهب الأربعة الكبار: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، إما نقلا عنهم مباشرة، وإما عن غيرهم من فقهاء هذا المذهب، أو ذاك. كما أننا قد اكتفينا هنا بذكر وجه واحد في المسألة، وهو قول الجمهور، المتمثل في تعميم الرؤية، وتوحيد الأعياد والمناسبات الدينية عن طريق «الإلزام»، أي إلزام البلدان التي لم ير فيها الهلال باتباع البلد الذي رؤي فيه الهلال، بناء على القول بعموم اللفظ حسب ظاهر النص، وقول الجمهور هذا ليس هو القول الوحيد، بل هناك مقابل له وهو القول الثاني المقابل لقول الجمهور، أو كوجه من أوجه قول الجمهور.

القول الثاني ـ القول المقابل: «لكل بلد رؤيته الخاصة به».

هذا القول الثاني، هو مقابل لقول الجمهور أي مخالف له، بمعنى أنه بالرغم من كون قول الجمهور يمثل الأغلبية، إلا أن هذه الأغلبية لها اعتبارها دائما عندما تقاس وتقابل بالفرق الأخرى غير السنية، أما هنا في مسألة العموم والخصوص في حديث الباب، فإن قول الجمهور يعني وجها من أوجه أهل السنة والجماعة، وبالتالي، فإن القول الأول الذي هو قول الجمهور، وهذا القول الثاني المخالف له، كلاهما يمكن اعتباره داخلا في القول الجمهوري العام من أهل السنة والجماعة، بدليل أن هذا القول الأول غير معمول به أحيانا، وخاصة في هذه المسألة، وما تصنيفه وترتيبه هنا في الأول إلا من باب الاحترام، مراعاة لتصنيفات القدامى، ومراعاة أيضا لمواجهته دائما للفرق الأخرى غير السنية، كفرق الشيعة

والخــــــوارج عـــلى كـــــثرتــــهـــا وتفـرعـاتـهـا.

إذن، فالقـولان معا، بـل وحتى القـول الثالث، كلها خـلاف داخلي منطلق من أهل السنة والجماعة، وإنما نسـب القول الأول للجمهور هنـا من بـاب ذكر الكـل وإيراد الجزء، أو مـن بـاب ذكر الكـل تغليبـا، أو ذكـر وجـه من أوجـه آراء الجمهـور، ثـم الوجه الثاني المقابل له.

ومضمـون القول الثـاني هـذا، المقابـل للقول الأول في مسألة الرؤية هذه، هو أنه إذا كان قول الجمهور يـرى وجوب تعميم الرؤيـة على كل البلـدان انطلاقـا من بلـد الرؤيـة الوحيد بغـض النظر عـن اختلاف المطالع بناء على ظـاهر النص المحمول على العمـــوم، لا على الخصـــوص، وبنـــاء على ثبوت الرؤية بالخبر نقلا داخل بلد الرؤية وخارجه، فإن هذا القـول الثاني الذي هو الـوجه المقـابـل والمخـالف للـوجـه الأول الجمهوري، يرى أصحابـه أن رؤية بلد ما لا تلـزم للبلـدان الأخـرى بمتـابعتهـا في الصيام والإفطار عن طريق التعميم، بل إن لكل بلد رؤيته، وذلك تبعا لاختلاف المطالع وأبعاد آفاقها، قربـت هذه البلدان أو بعدت فيما بينها على السواء.

وحجة أصحـاب هـذا الرأي المخـالـف للـرأي الأول يمكـن حصرهـا في دليلين رئيسيين عندهم هما:

أولا: صرف النص عن ظاهره العمومي، وحملـه على الخصوص في حـديث البـاب: (صوموا لـرؤيته وأفطروا لرؤيتـه) بمعنى أن الـرسول ﷺ كان يـوجـه خطابـه (صـومـوا.... وأفطـروا....) إلى مخاطبين خصوصيين، وهم أهل بلد الرؤية خاصة، وهـذا يقتضي أن لكل بلـد رؤيته الخاصـة تبعا لمطـالعها المختلفة بـاختلاف أبعـادها وأفقها زمنا ومكانا.

ثانيا: حديـث كريـب وحواره مـع ابن عباس، حيث صام كـريب أول رمضان في الشـام حين رأوا الهلال ليلة الجمعـة، ولما عاد مـن سفره في آخـر الشهر إلى المدينـة، وكان أهلها قـد صاموا بعد الشـام، وذكر ذلـك لابن عبـاس، أمـره ألا يعتـد برؤيـة الشام لكون ذلك مخالفا للسنة، مشيرا إلى النـــص في حــديــث البــاب، وحملـــه على الخصـــوص، والقــاضي عنده أن لكـل بلـد رؤيته.

وهذا حديث كريب إذ يقول:

«قـدمـت الشـام، واستهـل علي هـلال رمضان وأنـا بالشام، فرأيـت الهلال ليلة الجمعـة، ثـم قـدمـت إلى المدينـة في آخـر الشهر، فسألني ابن عباس، ثم ذكر الهلال فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة، فقال: أنت رأيته؟ فقلت: نعم، ورآه الناس، وصـامـوا، وصـام معاويـة، فقال: لكننا رأيناه ليلة السبـت،، فلا نزال نصوم

حتى نكمل ثلاثين، أو نراه، فقلت: ألا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا. هكذا أمرنا رسول الله ﷺ» رواه أحمد ومسلم والترمذي.

وهذه بعض آراء وأقوال واستنتاجات أصحاب هذا القول الثاني المخالف للقول الأول، نوردها منقولة عنهم زيادة على الحجتين المذكورتين (خصوصية اللفظ ـ حديث كريب).

ذكر ابن رشد في «البداية» وجها آخر لمالك في المسألة مخالفا للقول المذكور، فقال: وروى المدنيون عن مالك أن الرؤية لا تلزم بالخبر عند غير أهل البلد الذي وقعت فيه الرؤية، إلا أن يكون الإمام يحمل الناس على ذلك، وبه قال ابن الماجشون والمغيرة، من أصحاب مالك، وأجمعوا أنه لا يراعى ذلك في البلدان النائية، كالأندلس، والحجاز...

ويفهم من هذا الوجه المنقول عن مالك من طرف المدنيين أن لكل بلد رؤيته، في حين رأينا في الوجه الأول المذكور والمنقول عن ذلك أيضا من طرف المصريين ـ لا المدنيين ـ العكس، أي تعميم الرؤية. ويعلل ابن رشد سبب الخلاف في هذين الوجهين المنقولين عن مالك، فيقول:

«وسبب هذا الخلاف تعارض الآثار والنظر...» ويعني بالنظر الرأي القائل بالتعميم، وخاصة مع تقارب المطالع، ويعني بالأثر حديث كريب القاضي بتقييد كل بلد برؤيته قرب أم بعد.

وبهذا القول، قال أيضا بعض فقهاء الشافعية والحنفية والحنبلية كوجه ثان من أوجه أقوال الجمهور المؤيد لهذا القول الثاني المقابل للقول الأول، أي أن لكل بلد رؤيته تبعا لفهم النص المحمول على الخصوص في قوله عليه السلام: «صوموا... وأفطروا...».

وهو خلاف القول الأول الذي حمل فيه النص على العموم.

القول الثالث: البلدان المجاورة والمتقاربة في المطالع توحد.

هذا هو الوجه الثالث من أوجه أقوال الجمهور من علماء السنة.

ومفاده باختصار هو أن: «رؤية بلد ما، هو رؤية للبلدان المجاورة له». أي أن البلدان المتجاورة والمتقاربة في المطالع وآفاقها تلتزم بتوحيد الأعياد والمناسبات الدينية، بما في ذلك توحيد الصيام والإفطار والأعياد، بناء على وحدة الرؤية، نظرا لتقارب المطالع. وهذا القول المتمثل في الوسط بين العموم والخصوص لظاهر النص «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» يعتبر توفيقيا وملائما للواقع المعاش، وعليه جرى السلف والخلف إلى يومنا هذا.

ذلك على أساس أن حمل ظاهر النص على عموم مطلقا لا يخلو من التكلف، لأن خطاب الرسول ﷺ والموجه بصيغة جمع «صوموا... وأفطروا..»، كان في زمن م تكن رقعة الإسلام واسعة وشاملة لكل ذه البلدان العربية والإسلامية، وبالتالي م تكن المطالع الهلالية وآفاقها بهذه لأبعاد الجغرافية، بل كان الخطاب النبوي تسم بنوع من العمومية المحدودة لا تجاوز الجزيرة العربية، وعليه سار ابن باس في حواره مع كريب في الأثر السابق، ين فرق بين الجزيرة والشام في الرؤية. كما أن حمل النص الخطابي النبوي على خصوص الضيق داخل الحجاز دون سائر البلاد العربية، هو أيضا فيه نوع ن التعسف والمبالغة، حيث يقتضي أن لكل لد رؤيته قرب أم بعد، وفي هذا ما فيه من لتشدد والإيغال في التفرق بين البلدان لتقاربة والمتجاورة، مع الإشارة إلا أن حتى حديث كريب الذي يفهم منه خصيص كل بلد برؤيته، فيه مجال للنظر ند العلماء من حيث صحته وحكمه.

وعليه فإن القول بالوسط بين عموم خطاب وخصوصه، يبقى دائما هو القول فصل في مسألة الرؤية واختلاف المطالع، حيث لا يعقل أن يعمم النص فتتوحد جميع البلدان الإسلامية في رؤية الهلال في شية واحدة، والحالة هذه أن المطالع الهلالية تختلف زمنيا وفلكيا وجغرافيا وحسابيا، نظرا لتباعد هذه البلدان، كما أنه لا يعقل أن يتخصص كل بلد على حدة برؤيته، والحالة هذه أنه هناك مجموعات من البلدان تتقارب وتتجاور مع بعضها في الرؤية، أفقيا ومطلعيا وفلكيا وزمنيا وجغرافيا، كدول الخليج مثلا، ودول الشرق الأوسط والأدنى والأقصى، ودول المغرب العربي... إلخ.

والقول الفصل في المسألة يعني ـ هنا ـ أن رؤية بلد ما، هو رؤية للبلدان المجاورة له، وبالتالي فإن فكرة توحيد الأعياد والمناسبات الدينية يجب أن تتم على مستوى كل مجموعة بلدانية على حدتها زمنيا، لا على مستوى كل بلدان العالم الإسلامي، ولا على مستوى كل بلد. والمعتبر في المجاورة هنا هو تقارب أفق الرؤية، بغض النظر عن الحدود السياسية.

وهذا القول المتمثل في توحيد الأعياد والمناسبات الدينية بتوحيد المطالع بالنسبة للبلدان المتقاربة، يعني:

أولا: التوفيق بين العموم والخصوص في خطاب الرسول ﷺ رفعا للالتباس والإشكال، ودفعا للوقوع في الخطأ في فهم النص.

ثانيا: التوفيق بين الأثر الوارد في حديث كريب والرامي إلى التخصيص

تشددا، تقاربت البلدان أم تباعدت، وبين النظر الرامي إلى التعميم المحدد بناء على المجاورة.

ومن فقهاء المالكية الذين ذهبوا إلى هذا القول الوسط (ابن رشد) في (البداية) فقال مستعرضا سبب الخلاف ومؤيدا هذا القول الوسط: «والسبب في هذا الخلاف تعارض الأثر والنظر، أما النظر فهو أن البلاد إذا لم تختلف مطالعها كل الاختلاف، فيجب أن يحمل بعضها على بعض، لأنها في قياس الأفق الواحد، وأما إذا اختلفت اختلافا كثيرا فليس يجب أن يحمل بعضها على بعض. وأما الأثر، فما رواه مسلم عن كريب (الحديث). ثم يقول ابن رشد: «فظاهر هذا الآثار يقتضي أن لكل بلد رؤيته قرب أم بعد. والنظر يعطي الفرق بين البلاد النائية والقريبة...». (2)

ومن فقهاء المالكية أيضا (ابن جزي) في «القوانين الفقهية»، حيث يقول مؤيدا هذا القول الوسط: «البلدان المجاورة والقريبة لبلد الرؤية هي ملزمة باتفاق الثلاثة إلا الشافعي، أما البلدان البعيدة لبلد الرؤية كالأندلس والحجاز، هي غير ملزمة إجماعا».

ويقول الصنعاني المعروف بالأمير، وهو شافعي المذهب: «وفي المسألة أقوال، ليس على أحدها دليل ناهض، والأقرب لزوم أهل بلد الرؤية وما يتصل بها من الجهات التي على سمتها». (3)

وقال ابن حجر في «الفتح» نقلا عن ابن عبد البر الذي قال: «وأجمعوا على أنه لا تراعى الرؤية فيما بعد من البلدان كخراسان والأندلس». ومفهوم كلامه أن البلدان المتقاربة يجب أن تخضع لرؤية أحد بلدانها. ثم قال ابن حجر: وقال بعض الشافعية: «إن تقاربت البلاد كان الحكم واحدا». ويقول السيد سابق في هامش كتابه «فقه السنة»، مشيرا إلى هذا القول الوسط الذي قال به بعض الشافعية أعلاه، كما قال به الصنعاني وغيره وكلهم شافعيون، مؤيدا ومستحسنا هذا الوجه من أوجه الجمهور: «هذا هو الشاهد، ويتفق مع الواقع. (4)

هذا هو القول الفصل في مسألة الرؤية واختلاف المطالع، والذي يوفق بين الخصوص والعموم من جهة، وبين الأثر والنظر من جهة أخرى، مع التذكير بالحكمة الإلاهية في اختلاف مواقيت

---

(2) كتاب الصيام: الجزء الأول.

(3) سبل السلام شرح بلوغ المرام.

(4) كتاب الصيام. ص: 369.

الصلوات والعبادات زمنيا باختلاف مطالع الأهلة وأوقات العبادات والمناسبات الدينية من بلدان لأخرى، حتى يكون ذكر الله قائما في كل وقت وحين، بحيث إذا توقف هناك ليلا مثلا، يكون قائما هناك نهارا، نظرا لولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل.

ومن هنا، فإن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى حين قال عليه السلام: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته...».

الناضور - أحمد بودهان

إشارة وتوجيه

يسر مجلة دعوة الحق، أن تغتنم هذه الفرصة لتعبر عن تقديرها لكافة الكتاب الذين يوافونها بابحاثهم القيمة، تجاوبا مع الدعوة التي وجهتها لهم هذه المجلة على صفحاتها.

وإنها لتهيب بهم عند إرسال مقالاتهم أن تكون إما مكتوبة بخط واضح، أو مضروبة على الآلة الكاتبة، وذلك من أجل تسهيل عملية الطبع على المطبعة، وعملية التصحيح على المكلفين به، حتى يصدر المقال أو البحث في الصورة التي يريدها صاحبه، خاليا من الأخطاء التي تغير المعنى والمضمون، والتي تعمل المجلة جاهدة على تلافيها، وعدم الوقوع فيها.

كما ترجو المجلة من السادة الأساتذة المحترمين مراجعة أبحاثهم مراجعة دقيقة قبل إرسالها، للتاكد من سلامتها، وصولا إلى الرؤية التي نتوخاها جميعا من صدورها في صورتها اللائقة والمشرقة.

وشكراً.

الصّحوة الحقيقية

للشاعر
عبدالواحد السلمي

قف بباب الرسول، وارج القبولا ... وتضرع، والزم حماه طويلا
أيها الشعر؛ هاهنا تتجلى ... كعبة المجد، فاتخذها مقيلا
واسأل الله في رحاب أمين ... وتبتل بجاهه تبتيلا:
أيها الشعر موسم النور وافى ... يحمل البشر يكشف المجهولا:
فتنزه في روضة الحسن واقطف ... من رياض القريض زهرا جميلا
إن إخوانك المجيدين جادوا ... وأجادوا، وفصلوا تفصيلا
فاحذ حذو الرفاق لا تتوانى ... أنت مازلت بالعطاء كفيلا
إن ثغر الزمان يفتر إعجا ... با لمن ساهموا، فكانوا الفحولا
هاهنا السحر بالمعاني يحيي ... والمباني: فهل تطيق الوصولا:
غن في مولد الرسول نشيدا ... تجتبيه الأجيال جيلا فجيلا
واشد في مسمع الزمان قصيدا ... يتهاداه بكرة وأصيلا:
هلل الفجر بالنداء فأصغت ... كائنات الورى لما قد قيلا:
وأفاقت من نومها بعد لأي ... تتلقى التكبير والتهليلا:
وأضاء السنا البطاح مشعا ... فأنار الربى، ووشى السهولا

* * *

مشهد يبهر العيون رواء ... وسناء ينساب فيها سيولا
ذاك نور للمصطفى شع ومضا ... وضياء الهدى ينير السبيلا
إزدهى الكون يوم مولد طه ... من أتانا بالمعجزات دليلا
وعلى أرسها: الكتاب الذي لا ... ريب فيه: هدى أنار العقولا
فهو دستور أمة خططته ... قدرة الله للبرايا أصيلا



رسم النهج مستقيما مبينا   فاستحق التقديس والتبجيلا
حل في غور كل قلب، فمن فا   ز نجا: والشقي بات جهولا
رب طاو على الضغينة صدرا   بتلقيه صار سمحا خجولا!
أرهف السمع صاغيا في انكسار   خاشع القلب شاردا مذهولا
وهو من هو مرسل من قريش   يتلظى حقدا ليؤذي الرسولا
يختفي في الظلام: يسترق السمـ   ـع لوحي مرتل ترتيلا:
أهو السحر؟ لا: وما ذاك سحر!   أم هو الشعر صيغ نثرا جميلا؟
ثم عاد الوليد: للقوم يحكي   ما تلقاه خفية مخبولا
قال ياقوم: إنه الوحي حقا   هد سمعي ترنما، وهذيلا
أصله ومغدق، وإن له في   كل قلب حلاوة وقبولا!
الكتاب، الكتاب؛ معجزة الدهـ   ـر لطه: قد سجلت تسجيلا:
فيه هدي، وفيه أمر ونهي   فهو للمتقين أهدى سبيلا
يتحدى بآيه كل عقل   بشري: لو يستطيع المثيلا
قال فأتوا بسورة مثله إن   رمتموا خرق حجبه تضليلا
مزق الحجب، حزر العقل، ربى   أمة ما لها سواه بديلا
سلكت نهجه فسادت وباتت   تحكم الأرض عرضها والطولا
صدقت ما أتى به من بيان   محكم: لا شكا، ولا تأويلا:
حسبها الحق، والهداية مسعا   ها: فنالت مجدا أشم أثيلا
تلكم الصحوة الحقيقية الأو   لى: على نهجها نود الوصولا
فبها عزنا يعود، ومنها   نستمد التأييد والتأهيلا
ولها سيد البلاد دعانا   وعلى خط دربها لن يحولا

* * *

جمع الأتقياء من كل ربع   للتباري، وللحوار طويلا
وعلى دربه نكون منها   جا، ورأيا محببا معقولا
بالحوار المجد نرقى إلى غا   يتنا، أو ندنو إليها قليلا

* * *

نحن في مولد المتوج بالنو   ر، تجلى شعاعه إكليلا
مصطفى الله، من أتانا بشيرا   ونذيرا، ومرشدا ورسولا

مل الهدي، حـــارب الشرك، أحيـــى منهـــج اللـــه، قـــاوم التـــدجيـــلا
ـــاالإلاهـــي صـــن للبـــلاد حماهـــا مـــن عـــدو، وخـــذه أخـــذا وبيـــلا
ـزنـــا بطشـــك الشـــديـــد المرجـــى قـــد تخذنـــاك في الخطـــوب الـــوكيـــلا
لنـــا بـــاســـط الأكفين نـــرجـــو منـــك يـــابـــارئ الأنـــام الســـولا
ـــاالإلاهـــي، رحماك دارك بلطـــف «حسنـــا» مـــن نصبتـــه مســـؤولا
تكفـــــل بنصرة الحق في ظـــــل مليكـــي حتـــى يصـد الـــدخيـــلا:
ـــاحمه، واحفـــظ الأميريـــن يـــامـــن يمســـك النيريـــن كـــي لا تـــزولا

البيضاء ـ عبد الواحد السلمي



رواد المغرب في العلوم البحتة

للأستاذ عبد الحميد محيي الدين
أستاذ بكلية اللغة العربية بمراكش

يسود لدى بعض المهتمين بعالم الفكر في المغرب، اعتقاد بقصة اهتمام العلماء المغاربة بالرياضيات والعلوم، ولا سيما في تاريخهم السابق عن الحقبة المعاصرة، وهذا ينطوي على تَجَنٍّ كبير، وظلم غير مقبول، في حق الفكر المغربي الموسوعي، الذي كان يستوعب كل المعارف والعلوم الرائجة في جميع العصور المتعاقبة، ويعنيني هنا ما واكب فترات الحكم الإسلامي، إثر الحقبة الإدريسية، وقبل العهد المرابطي، حتى أوائل القرن 14هـ (أواخر القرن 19م).

فإذا كان الرياضيون والفلكيون المسلمون، يهتمون اهتماما كبيرا، بالوسائل التي تمكنهم من إتقان عملهم، كآلات الرصد الفلكي، المتعددة المنافع، والمختلفة الأسماء (كالأسطرلاب، والصفيحة، والرخامة) ويؤلفون فيها كتبا ورسائل عديدة، فإن عناية العلماء المغاربة بالرياضيات، لا تقل عن عنايتهم بغيرها من العلوم والفنون كما سنرى، ويؤكد هذا ما توافر لدينا من المؤلفات القيمة، التي خصصها علماء المغرب لهذا العلم، وكذا قائمة الأعلام المرموقين، الذين كان لهم نصيب كبير في تطوير علوم الرياضيات، والفلك وضبط مقاييس الرصد.

ولعل أول عمل في هذا المضمار، يرجع إلى ما قبل الفترة المرابطية، في أثناء القرن الهجري الرابع (العاشر الميلادي)؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أن للجنوب المغربي دورا بارزا في التراث

ـرياضي والفلك، تمثل في إنتاج الأعلام، ـلذين طبقت شهرتهم الآفاق، والذين ـسيأتي ذكر بعضهم في هذا السياق، إلا ـن الملاحظ هو اهتمامهم بالحساب ـعملياته المعروفة، وبالهيئة التي كان يقصد بها كل ما يتعلق بعلوم الأفق، من علم تتبع سير النجوم، وعلم ما يعرف به ذلك من الآلات، كالاسطرلاب والربع ـنحوهما، وعلم التوقيت، وعلم ـلرخاميات، وما إلى ذلك مما هو معروف قبل العصر الحديث، وقد كان للسوسيين ـد طولى في هذا الفن الجليل».(1)

ومفهوم الرياضيات عند علماء الجنوب، ـرتبط ارتباطا وثيقا بالفرائض، لعلاقتها بقسمة المواريث، لذلك يقرر العلامة مؤرخ ـلجنوب (المختار السوسي)(2) هذا ـلمفهوم بقوله:

«لا يتداول عندهم في الرياضيات إلا علم الحساب فقط، ففن الأرجوزة السملالية التي أتمها أحمد بن سليمان الرسموكي، وشرحها أيضا بشروح ثلاثة، وفيها الجمع والطرح والضرب والقسمة، هذه صحيحة ومكسَّرة، وطرق ذلك، وليس فيها الجبر ولا ما يماثله، وحسابها على النمط القديم، ولكن السوسيين يتقنونه إتقانا عجيبا، حتى تحصل لهم فيه ملكة، بل فيهم نوابغ لا يجارون فيه وفي الفرائض».

وإذا كان الهدف من وراء هذا الموضوع، هو إثبات رسوخ قدم العلماء المغاربة في علم الرياضيات وما إليها في مختلف العصور، فإن المنطلق سيكون البحث عن الأعلام البارزين في هذا العلم، ومن هنا يقودنا البحث إلى ربط الأندلس بالمغرب، باعتبار أنهما يكونان قبل العصر المرابطي ما يمكن تسميته بالوحدة الفكرية، قبل الوحدة السياسية، في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وبالرغم من صعوبة الحسم في تحديد بداية تاريخ الرياضيات في المغرب، فإنه من الممكن أن نقول: إن علوم الرياضيات، كانت من جملة المواد التي كانت تدرس في المغرب في وقت مبكر، وليس ما يذهب إليه (أحمد بن القاضي) في كتابه «المنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس أحمد المنصور»(3) من أنه ظهر في أيام هذا السلطان علوم وصناعات مهمة، لم تكن قبل في المغرب، (ويذكر من بين ذلك

(1) المختار السوسي، سوس العالمة، ص: 51.

(2) انظر: مدارس سوس العتيقة، ص: 64.

(3) المنتقى المقصور، (الباب 14) مخطوط م. ع. بالرباط، رقم 1059ج.

الحساب، والهندسة، والمساحات) دليلا حاسما على تأخر العلوم الرياضية في المغرب إلى العهد السعدي، إذ الواقع أن هذه الفترة التي يعنيها (ابن القاضي المكناسي) وجدت رصيدا علميا نتج عن عصور المغرب السابقة، ثم آل إلى هذا العهد، فانبعث من جديد مطبوعا بطابع العصر السعدي.

فهذا (محمد بن عبد السلام سحنون) الفقيه المغربي المالكي يقول في القرن الثالث الهجري (ت 256) في رسالته(آداب المعلمين): «وينبغي أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له...»(4) وذلك لاحتياج الناس إليه في المعاملات، وقسمة الوصايا والمواريث وغير ذلك.

ومن الطبيعي أن يتطور علم الرياضيات، ويتجاوز هذا المستوى المشار إليه في رسالة الفقيه المغربي (ابن سحنون)، ويصل إلى الدرجة التي يومئ إليها (ابن القاضي) خلال العهد السعدي، حتى غدا المتعلمون في المغرب حينذاك «يدرسون الجبر والمقابلة، إضافة إلى حساب الأعداد الصحيحة، والنسبية، والجذور، وكانوا يستعملون الأرقام العربية المعروفة حتى اليوم، وسموها (حروف الغبار)»(5) وهي التي تسميها الكتب الأجنبية بالأرقام العربية، وهي لا تستعمل إلا في المغرب من الوطن العربي، على أنها منتشرة في جميع أقطار العالم (.....)، ومع العلم بأنها عربية قطعا، لا ندري أول من استعملها، ولكنها قديمة؛ ونسبتها إلى الغبار، لأنهم كانوا يرسمونها عليه، ليسهل محوها، وأقدم نص ذكرها بهذا الإسم - على ما يرجح - كتاب لابن الياسمين(6) (عبد الله بن محمد بن حجاج) في العصر الموحدي.

وفي القرن العاشر الهجري درس المتعلمون كذلك أشكال الخطوط والسطوح والأجرام، وأتقنوا رسم مختلف الأشكال الهندسية، من دوائر، وزوايا، وبرعوا في صناعة التكسير المتعلق بالمساحات؛ ولتعميق علم الرياضيات وما إليها، ألف العلماء المغاربة ومختلف العصور كتبا علمية، تشهد بجهودهم المتميزة في هذا المجال، وتجعل المرتاب في مكانتهم المتميزة في الرياضيات يقر بهذه المكانة، ويقتنع بريادتهم، خاصة إذا برزت تلك المؤلفات على يد المختصين، وخرجت من رفوف الخزائن والمكتبات، إذ

(4) آداب المعلمين، ص: 102 - رسالة نشرها حسن حسني عبد الوهاب، وصدرها بترجمة وافية لابن سحنون.
(5) انظر محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد السعديين، ج 1/ 91.
(6) انظر عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص: 289-290 (ج 1).

ى جلها مازال لم ير النور، ولم يعرف
ى العموم، إلا بعض مؤلفات (ابن البَنَّاء
عددي المراكشي) في العهد المريني،
بعض مؤلفات أبي الحسن الأندلسي
سلا، والتونسي وفاة، المعروف
القلصادي، والمتوفى أوائل العهد
وطاسي. ولعل قائمة المؤلفات الآتية،
بين إلى أي حد بلغت جهود العلماء
مغاربة في الرياضيات خلال العصور
متعاقبة، مرتبة حسب وفيات أصحابها.

ففي القرن الرابع/هـ (العاشر/م) نجد
جموعة من الكتب العلمية، لإمام
رياضيين في عهده، وأوسعهم إحاطة
علم الأفلاك والنجوم، مسلمة بن أحمد بن
اسم ت 398هـ/1007م، وصفَه مترجموه
أنه «رياضي فلكي» في وقته
لأندلس،[7] ومن كتبه: (ثمار العدد) في
حساب، يعرف بالمعاملات، و(اختصار
عديل الكواكب من زيج[8] البتاني)
غيرهما، وأغلب كتبه مخطوط على ما
بدو (والبتاني) الذي اعتمده مؤلفنا هو
حمد بن جابر أبو عبد الله المعروف
البتاني، فلكي مهندس، اشتغل برصد
كواكب من سنة 264 إلى 306هـ وهو في
حران (ت 317هـ). وفي القرن (5هـ/11م)

قبل العهد المرابطي، ترد مجموعة من الكتب العلمية لأمثال: أبي القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر (ت 426هـ/1035م) المعروف بابن الصفار، المهندس الفلكي، له رسالة في (الأسطرلاب) مازالت مخطوطة.

وفي القرن الموالي، إبان الحكم المرابطي في المغرب والأندلس، نجد من علماء الرياضيات: (أبا إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبي) المعروف بابن الزرقالة (ت 493هـ/1100م).

قال مترجموه: إنه فلكي أندلسي. وقال ابنُ الأبار في (تكملة الصلة): «كان واحد عصره في علم العدد، والرصد، وعلل الأزياج؛ ولم تأت الأندلس بمثله، من حين فتحها المسلمون إلى وقتنا هذا»[9] ومن مؤلفاته: (العلم بالصفيحة الزيجية) و(المدخل إلى علم النجوم) ورسالة في طريقة استخدام الصفيحة المشتركة لجميع العروض في الفلك؛ ولكنها مخطوطة على ما نعلم، وترجمت بعض رسائله وكتبه إلى لغات أجنبية.

وفي العهد الموحدي، خلال (ق 6هـ/12م) يمكن ذكر الخليفة (يعقوب المنصور الموحدي، ت 595هـ) الذي أقام

---

7) انظر على سبيل المثال العلة لابن بشكوال 564، وفيها أنه توفي سنة 395هـ، وانظر معه، الزركلي في الأعلام، مج 7/ 224.

8) الزيج في علم الهيئة: جدول يستدل به على حركة السيارات (الكواكب) كالمريخ، والمشتري، وزحل، والزهرة.

9) انظر الزركلي في الأعلام، مج 1/ 79.

أول مرصد في اشبيلية، حيث أسس في مسجده بها لوحا عاليا للرصد، كما أنه وضع أزياجا فلكية عن كسوف الشمس؛ وكذا (السموأل بن يحيى المغربي المتوفى حوالي 570هـ/1175م) الموصوف بأنه «مهندس رياضي...) أصله من المغرب، أقام مرة في بغداد، وانتقل إلى فارس؛ من كتبه (المثلث القائم الزاوية) و(إعجاز المهندسين)، ويرجَّح أنه آخر مؤلفاته، و(الباهر) في الرياضيات، وهذه التسمية من وضع أحد الذين اطلعوا عليه، كما عند (الزركلي) في «الأعلام»(10)

ومن الذين ساهموا في العلوم البحتة خلال هذا العهد الموحدي (القرن 6هـ) (محمد الحصار) المكنى (بأبي زكرياء) فقد ورد في مادة «حساب» بدائرة المعارف الإسلامية، أن له كتابا اسمه (الكتاب الصغير في الحساب) نوه به العلامة ابن خلدون في مقدمته حين قال: «ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها (في العلوم العددية) لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير».(11)

وربما هذا هو الذي أوقع المؤرخ (عمر فروخ) في الوهم، حين قال: وهو يتحدث عن ابن البَنَّاء المراكشي، «وله كتاب مفصل مشهور في الحساب اسمه: «الحصار الصغير» فجعل الحصَّار العالم الرياضي اسما لكتاب مزعوم لابن البناء!! وذلك في كتابه (تاريخ العلوم عند العرب).

ومن العلماء المبرزين في العلوم البحتة في هذا العهد: (عبد الله بن محمد بن حجاج) المعروف (بابن الياسمين) من أهل فاس، ومن أصل أمازيغي (بربري)، ويذكر بعض مترجميه أنه من أهل مراكش،(12) وقد وصفوه بأنه رياضي برع في عدة علوم كالهندسة، والتنجيم، والهيئة، وخاصة الحساب والعدد، فكان لا يدرك شأوه فيها، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقها، وغوامض مسائلها»(13) «وبأنه عالم بالحساب، ومن الكتاب» كان من خدام يعقوب المنصور، وولده الناصر، له (أرجوزة في الجبر) قرئت عليه، وسمعت منه، وله كذلك (أرجوزة في أعمال الجذور) و(تلقيح الأفكار، في العمل بحروف الغبار) في الرياضيات، وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط، وكتبه كلها مازالت، على ما يرجح، مخطوطة، (ت 601هـ/1204م).

(10) مج 3/ 140.

(11) مقدمة ابن خلدون، الفصل الرابع عشر في العلوم العددية، ص: 405.

(12) انظر الزركلي في الأعلام، مج 4/ 124.

(13) كنون في النبوغ، ص: 166 (ج 1).

ومن رواد العلوم البحتة في العهد الموحدي كذلك: أبو علي الحسن بن علي بن عمر، شرف الدين المراكشي (المتوفى نحو 660هـ/1262م) نعته الأستاذ كنون «بالعالم الرياضي الشهير»، ووصفه الزركلي بأنه «موقت مغربي»، له كتاب (جامع المبادئ والغايات وعلم الميقات) قال عنه (الحاج خليفة): «أعظم ما صُنِّفَ في هذا الفن»(14) وقد رتبه على أربعة فنون:

1) في الحسابيات، ويشتمل على سبعة وثمانين فصلا.

2) في وضع الآلات، ويشتمل على سبعة أقسام.

3) في العمل بالآلات، ويشتمل على خمسة عشر بابا.

4) في مطارحات يحصل بها الدربة، والقوة على الاستنباط، ويشتمل على أربعة أبواب. في كل باب منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة.

وعلى هذا الكتاب قامت شهرة أبي علي المراكشي بين علماء الغرب، واعتبروه من أعظم فلكيي العرب، وقد نقل العلامة (سيديو) زبدته إلى اللغة الفرنسية، وكذلك نقل (البارون كارادوئو) فصلا منه يتعلق بالأسطرلاب»،(15) وهذا الكتاب مازال مخطوطا على الأرجح، ولأبي علي المراكشي كتب غير هذا، في مباحث رياضية هامة.

وفي العهد الموحدي كذلك، ظهر أحد أعلام الرياضيات في المغرب، وهو أبو الحجاج يوسف بن يحيى الرياضي المعروف بابن سمعون، عرف به (ابن القفطي) في أخبار الحكماء فقال:

«كان طبيبا إسرائيليا من أهل فاس (....) وعاشر العلوم الرياضية، وأجادها، وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة.

أما في الفترة المرينية، فقد تطورت العلوم البحتة، وبرز فيها أعلام مغاربة، من أشهرهم: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، المعروف بابن البَنَّاء، حكوه بنعوت كلها تجمع على مكانته الفريدة، فهو «العلامة الفلكي، والحاسب المشهور»، وهو «الرياضي الباحث من أهل مراكش مولدا ووفاة»، «برع في العلوم الفلسفية، ولا سيما الرياضية، فكان لا يدرك شأوه فيها، ولا يبلغ مداه، وبالأخص الهيئة والعدد منها، فإن إليه انتهى علمهما بالمغرب، وعنده اجتمع ما تفرق منهما بأيدي قدماء الرياضيين، من إسلاميين

) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 572.

) انظر النبوغ، 1/ 166.

) انظر النبوغ، 1/ 167.

) الأعلام، ج 1/ 222.

وغيرهم»، «حتى إن غاية العلماء بعده تفهم كتبه، وتناولها بالشرح والتفسير»(18).

من كتبه المطبوعة: (تلخيص أعمال الحساب) الذي نظمه (ابن غازي الآتي ذكره في هذه الفترة قريبا) وشرحه، وكل منهما مطبوع بفاس أولا، ثم حققه محمد السوسي سنة 1969. (رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب)(19) حلاه (ابن خلدون) في المقدمة بهذا الوصف: «هو كتاب جليل القدر، أدركنا المشيخة تعظمه، وهو كتاب جدير بذلك». ومن كتبه أيضا: (علم الأسطرلاب)، و(قانون معرفة الأوقات بالحساب) و(رسالة في تحقيق رؤية الأهلة).

و(ابن البناء المراكشي)، إلى جانب تبريزه في الرياضيات، مشارك في معارف عصره، بل إنه «أتقن العربية وآدابها، وحصل علوم الشريعة» فكان بذلك نموذج العالم المغربي الموسوعي ما بين القرنين السابع والثامن توفي حسب بعض مؤرخيه عام (721هـ/1321م).(20)

ولئن كان (ابن البناء) فريدا في العلوم البحتة، فلأن العصر الذي عاش فيه، امتاز بنشاط منقطع النظير فيما يرجع للرياضيات، والعلوم المرتبطة بها، كعلم التوقيت، والفرائض، وغير ذلك.

وعرف هذا العصر ما لم تعرفه عصور سابقة أو لاحقة، من شخصيات كثيرة لامعة، نبغت في هذه العلوم، وتقدمت فيها تقدما باهرا (...) فكان منها من أصبح أستاذا لمن أتى بعده، بفضل ما قام به من أبحاث، وما خلفه من آثار، ظلت إلى يومنا المرجع الأساسي لكثير في هذه العلوم (كتلخيص ابن البناء)».(21)

وقد توافرت مجموعة من العوامل، حفزت إلى تطوير العلوم الرياضية، خاصة خلال هذا العهد، وقد يكون من أبرزها، أن الرياضيات ظلت العلم الوحيد، الذي لم يعرف تنافرا ولا تضادا مع علوم الدين السائدة وقتذاك، ولم يكن ملوك المغرب المرينيون ينفرون من المشتغلين بها، بل كانوا يدنونهم، ليستفيدوا من تجاربهم ونتائج أبحاثهم، كما فعل (أبو سعيد عثمان ابن عبد الحق) حين استدعى (ابن البناء) وطلب منه إطلاعه على وقت وفاته! وهذا أمر - وإن كان فيه ما يدعو إلى الاستغراب من الناحية العقدية - فإنه

---

(18) انظر النبوغ، 1/ 223.

(19) الكتاب مخطوط بالخزانة الحسنية، بالرباط، تحت رقم 2186؛ ويقوم أحد الباحثين المغاربة بتحقيقه في فرنسا. (ويراجع ابن خلدون في المقدمة، ص: 405.

(20) انظر الأعلام، مج/ المذكور، ونيل الابتهاج/65، والإعلام بمن حل مراكش لومات من الأعلام، للتعارجي.

(21) ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية في عهد بني مرين، ص: 216.

يدل على مكانة (ابن البَنّاء)، وفي الوقت نفسه، يشير إلى أن الرياضيات تتداخل مع التنجيم، باعتبارهما معاً من العلوم البحتة، وقد يكون من هذه العوامل، حاجة الدولة إلى ضبط أحكامها، ومواردها، ومصاريفها، واستخلاص الضرائب، إلى غير ذلك مما يحتاج إلى دراسة في علم الحساب. إلا أن أهم العوامل على ما يبدو، هو حاجة جمهور المسلمين في العصر إلى ضبط أوقات الصلوات، وبداية الأهلة المرتبطة بالشعائر (كالصيام، والحج، والأضحى، والفطر)، وتحديد الأنصبة المتعلقة بالمواريث، لحاجة الناس الماسة إلى ضبطها بإتقان، وذلك لا يتأتى إلا بعلم الحساب، لذلك قرر (ابن خلدون)، وهو يتحدث عن «العلوم العددية»(22) أن من فروعها «الفرائض»، وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات إذا تعددت، وهلك بعض الوارثين، وانكسرت سهامه على ورثته (....) فيحتاج في ذلك كله إلى عمل يبين به سهام الفريضة، (...) فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير في صحيحه، وكسره، وجذره، ومعلومه، ومجهوله (...) فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه، وهو أحكام الوراثة، من الفروض، والعول والإقرار، والإنكار، والوصايا، والتدبير، وغير ذلك من مسائلها، وعلى جزء من الحساب». ثم إن «علمي الفرائض، والتنجيم، كانا من أهم الأسباب التي جعلت الرياضيات تتقدم وتنهض، نظرا للترابط الوثيق الموجود بينها، فالسبب إذن كان دينيا في جوهره».(23)

وقد كان (ابن البناء) نموذجا فريدا، صقلته هذه البيئة، وحفزته على التفوق والتبريز في هذه العلوم البحتة، خاصة الرياضيات، حتى أصبح كثير ممن اهتموا بها عالة عليه، وتلاميذ تابعين له، ليس في المغرب وحده، بل في المشرق أيضا.

ومن مشاهير هذا العلم في العصر المريني العلامة (محمد بن النجار التلمساني (ت 749هـ/1348م) تتلمذ على (ابن البناء) حتى غدا متفوقا في علم النجوم، فضمه أبو الحسن المريني إلى قصره حتى وفاته في التاريخ المذكور؛

ومن المشاهير في الرياضيات بالمغرب، في هذا العهد، (أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالقلصادي (891هـ/1486م) وهو مغربي أندلسي كما ينسبه مترجموه، أو أندلسي تردد على تونس وأخذ منها مجموعة من معارفه؛(24)

(22) انظر المقدمة، ص: 406.

(23) ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية في عهد بني مرين، ص: 219.

(24) نيل الابتهاج، بهامش الديباج المذهب: ص: 209ـ210.

وهو نموذج من رواد الغرب الإسلامي، في العلوم البحتة، ولا سيما الرياضيات، ويدل ما شهد به أحد تلاميذه، كما نقل مؤلف (نيل الابتهاج) على أنه موسوعي متعدد الاختصاصات، إذ ألف في أغلب معارف عصره، وترك آثارا كثيرة تشهد بموسوعيته، قال (أحمد بابا التنبكتي):(25) إنه «آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس». وقال تلميذه (أبو عبد الله الملالي): «له تآليف أكثرها في الحساب والفرائض (كشرحه العجيب على تلخيص البناء) (وشرحه العجيب على الحوفي).(26)

ومن بين مؤلفاته في الرياضيات، والحساب خاصة: (كشف الجلباب، عن علم الحساب) و(كشف الأسرار عن علم حروف الغبار) وهو مقتطف من سابقه، كما يقول في المقدمة: «اقتطفتها (يعني رسالته كشف الأسرار) من كتابي المسمى بكشف الجلباب، عن علم الحساب، لتكون غنية لبعض الطلاب، وتذكرة لذوي الألباب، وسميتها بكشف الأسرار»... إلخ(27) وهذه الرسالة وقع تأليفها عام 852هـ بالقاهرة. وله (شرح ابن الياسمين في الجبر والمقابلة) و(الضروري في علم المواريث) ورسالة في (قانون الحساب)(28). وذكر (الزركلي في أعلامه)(29) أن له (شرح الأرجوزة الياسمينية) وهو المتقدم آنفا بعنوان (شرح بن الياسمين في الجبر والمقابلة) حسب ما جاء في (نيل الابتهاج) وابن الياسمين هذا هو عبد الله بن محمد ابن الحجاج.(30)

وفي القرن التاسع والعاشر من هذا القرن، برز أيضا رائد من رواد العلوم البحتة في المغرب، وهو أبو عبد الله محمد ابن أحمد المكناسي، المعروف بابن غازي (ت 919هـ/1513م)(31) قال فيه (الكتاني في فهرسه)(32): «الفقيه الحيسوبي الفرضي» ذو التصانيف المفيدة المجيبة، ألف في القراءات، والحديث، والفقه، والعربية، والفرائض،

---

(25) نيل الابتهاج، بتطريز الديباج: ص: 209.
(26) نفس المصدر والصفحة.
(27) المقدمة، ص: 2 (طبع فاس على الحجر).
(28) المقري: نفح الطيب، ص: 684.
(29) الأعلام، مج 5، 10.
(30) راجع أعلام العهد الموحدي من هذا البحث (رقم:3).
(31) في «النبوغ المغربي»، أنه توفي سنة 917، انظر ص: 219.
(32) فهرس الفهارس، ج 1، ص: 288.

الحساب، وغيرها» (33)، له في الرياضيات: غُنْية الطلاب في شرح مُنْية الحساب) وهو طبوع.

وهناك من الرواد غير هؤلاء في العصور لتقدمة قبل الأشراف السعديين والعلويين، ما في عهدهم، فقد تطورت العلوم البحتة، لا سيما الرياضيات، وبرز أعلام رموقون ازدان بهم تاريخ المغرب.

ففي العهد السعدي، انبعث المغرب نبعاثا علميا تمثل في عدد من العلوم رياضية وفي الهيئة، والطب، «وكان لمنصور السعدي فضل تشجيع هذا لانبعاث»، (34) يضاف إليه الرصيد العلمي ذي تبقى من عصور المغرب المزدهرة، ثم ل لهذا العهد، فانبعث من جديد مطبوعا طابعه، وهذا الانبعاث تناول علم لهندسة، كما تناول بعض فروعه من ساحة ومناظر.

ويأتي في مقدمة رواد هذه العلوم خلال لعهد السعدي:

أحمد المنصور الذهبي (ت 101هـ/1591م) (35) نفسه، الذي كان ياضيا شغوفا بدراسة الكتب الأصيلة.

وقد جمع حوله طائفة من الرياضيين ليدرسوا معه الكتب المتعلقة بهذه العلوم. وقد كان لإقباله عليها أثر كبير في تشجيع العلماء، واهتمامهم الكبير بهذا الاتجاه العلمي البحت، حتى أصبح تعلم الرياضيات والهندسة أمرا شائعا في هذا العهد. (36)

ومن الرواد البارزين في هذا العهد، الذي لا يجارى في العلوم البحتة:

شهاب الدين أحمد بن محمد المكناسي الزناتي، المعروف بابن القاضي (1025هـ/1616م)، وصفه مترجموه بأنه مؤرخ «رياضي» وأنه متضلع في علوم العربية والشريعة، بَلْهَ «الحساب والفرائض» (37)، له مؤلفات، منها في الرياضيات: (غُنْيَة الرائض، في طبقات أهل الحساب والفرائض)، (المدخل في الهندسة) وغيرها.

ومن الفلكيين الرياضيين خلال هذا العهد: أبو زيد عبد الرحمان البعقيلي الجزولي (ت 1006هـ/1597م)، العالم الفلكي البارع، تفوّق في الحساب والتنجيم، حتى إن المنصور السعدي نقله إلى مراكش

33) نيل الابتهاج، ص: 333 بهامش الديباج.

34) محمد المنوني، دعوة الحق، ع 2 س 9 (دجنبر 1965) تحت عنوان «أساتذة الهندسة ومؤلفوها في العهد السعدي».

35) المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، ص: 12.

36) انظر الحركة الفكرية في المغرب في العهد السعدي، ج1 ص: 91 بتصرف.

37) النبوغ المغربي، ج 1، ص: 224.

للتوقيت بها، وهي عاصمة الدولة إذ ذاك، له من المؤلفات: (قطب الأنوار، من روضة الأزهار) في علم التوقيت، طبع على الحجر بفاس، و(تحصيل المطلوب، في ربع الجيوب) أرجوزة في عشرين بابا، وهو مخطوط، وله غير هذا.(38)

هكذا إذن ينضاف العهد السعدي إلى ما قبله من العصور، ولا سيما المريني، ليساهم في بناء صرح العلوم البحتة في المغرب، ولو بشكل جزئي.

أما في عهد الأشراف العلويين، فقد نبغ رواد مغاربة في الرياضيات وما إليها، ولا سيما التوقيت، والفرائض، والتنجيم، وكان لتشجيع الملوك العلويين أثره الأكبر في الإقبال على هذه العلوم البحتة. فقد ورد في منشور(39) أصدره السلطان (محمد بن عبد الله) عن حالة التعليم في المغرب، ما يدل على العناية بعلماء دولته، خاصة المشتغلين منهم بالرياضيات. ومما جاء في الفصل الثالث منه: «والفقهاء الذين يقرأون «الأسطرلاب» وعلم الحساب، يأخذون حظهم من الأحباس، لما في تلك من المنفعة العظيمة، والفائدة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث، وعلى هذا يكون العمل إن شاء الله».

وإذا كان لنا أن نذكر بعض الرواد الأعلام في هذا العصر، فإننا نكتفي بأهمهم، متخذين إياهم نماذج عن السكوت عنهم، توخيا للاختصار، ومراعاة لحدود هذا المقال.

فأولهم في القرن الهجري الحادي عشر محمد بن سعيد المرغتي السوسي الأصل والمنشأ (ت 1089هـ/1678م)، كان في عهد السلطان مولاي رشيد، والسلطان مولاي إسماعيل، وفي عهده توفي بمراكش، وكان قبلهما «قد استكتبه بعض أمراء الدولة السعدية»،(40) وبهذا يكون مخضرم الدولتين، على أنه في عهد العلويين برز في العلوم البحتة التي نحن بصددها في هذا المقال، ومن تآليفه المشهورة: (المُقْنِع) في علم التوقيت، وقد شرحه بشرحين، ونال إقبالا كبيرا، وما زالت المدارس العلمية العتيقة بسوس تعتني به، «مع أنه مزْجَى البضاعة في ذلك الفن» كما نقل صاحب (المعسول).

وفي عهد مولاي إسماعيل كذلك، عرف المغرب علما آخر من رواد هذه العلوم، هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الروداني السوسي، أدرك الدولة السعدية، وعاش

---

(38) انظر المعسول، ج 8، ص: 153 مع الحركة الفكرية بالمغرب في العهد السعدي، 1/158.

(39) انظر النبوغ المغربي، 1/286-287.

(40) المعسول، ج 10، ص: 185 وما بعدها.

أزهى فترات إنتاجه في خلال الدولة العلوية، وتوفي سنة (1094هـ/1683م).

وصفه (الكتاني) بأنه «فَرْدُ الدنيا في العلوم، وقوة المشاركة»(41). وقال (كنون) في حقه: «العلامة الجامع الفيلسوف الفلكي البارع»، «وابتدع آلة نافعة في علم التوقيت والهيئة لم يسبق إليها، (.....)، وهي تغني عن كل آلة في فن التوقيت والهيئة، وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها، وقد ألف رسالة يبين فيها كيفية استعمالها، وكيفية صنعها».(42)

وفي القرن11هـ، وتحت ظل العهد العلوي، ظهر أحد أعلام الرياضيات، هو (أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفهري الفاسي، المتوفى سنة 1096هـ/1684م)، «كان له مشاركة في العلوم الفلسفية، والطبيعية، والرياضية، من حساب وهيئة وجبر، وهندسة، وطب، وكيمياء، ومنطق، وما إلى ذلك»، «وألف في هذه العلوم كلها كتبا منظومة ومنثورة، ومن تآليفه كتابه المسمى (الأقنومُ في مبادئ العلوم)، وله كذلك (المختار في حساب الغبار) و(قلائد العسجد في علم العدد) و(النتائج الحسية، في المعالم الهندسية) و(كشف الحجاب في علم الأسطرلاب) إلى غيرها مما ذكره مؤرخوه».(43)

وفي العهد الإسماعيلي، ظهر فلكي حيسوبي، عالم بالفرائض، وهو (أحمد بن سليمان الرسموكي الجزولي) الذي كان في وقته «الإمام الكبير، والفرد الحيسوبي العروضي، وعلم الأعلام».(44)

من آثاره المطبوعة: (الجواهر المكنونة) في الفرائض، وله عليه ثلاثة شروح، أحدها، (إيضاح الأسرار المصونة) ومن كتبه في الفرائض والحساب: (كشف الحجاب) وهو مخطوط شرح به رجزا في الفرائض والحساب لإبراهيم السملالي.

وفي عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام، وولده محمد بن عبد الرحمان، والسلطان مولاي الحسن الأول، نبغ في المغرب، بالنسبة للعلوم البحتة، (إبراهيم بن محمد الحسني الطالبي، أبو إسحاق التادلي) الذي وُصِفَ بأنه «شيخ مشايخ الرباط في عصره»؛(45). ومما أتاح له تميزه في هذه العلوم، أنه في أثناء عودته من رحلة

(41) فهرس الفهارس والأثبات، ج 1، ص: 425 (تحت رقم 214).
(42) انظر النبوغ ج 1، ص: 295.
(43) انظر النبوغ نفسه، ص: 320.
(44) انظر المعسول، ج 18، ص: 330-331.
(45) الزركلي في الأعلام، مج1، ص: 71.

إلى المشرق، «مر بإسبانيا حيث أخذ بعض العلوم الحديثة». (46)

وكان من المكثرين المغاربة في التأليف، إذ خلف أكثر من مائة مصنّف، ويهمنا منها ما يتعلق بالحساب والفرائض والتوقيت، ونذكر منها: (رفع الحجاب، عن مطالب التوقيت بالحساب)، وهو مخطوط، و(تحفة الأحباب، بأعمال الحساب) ورسالة في (حساب الفرائض والتركات).

وتجدر الإشارة أخيرا إلى أنه في القرن الرابع عشر الهجري (19م) كان المغرب مسايرا للحركة العلمية، وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان يأمر بترجمة الكتب العلمية، من فلك وغيره، لينتقل نفعها إلى المغرب، مقتفيا بذلك أثر أسلافه، في الاهتمام بمختلف معارف العصر، ومنها العلوم البحتة.

هذه إلمامة بالعلوم البحتة في المغرب منذ العصور الإسلامية الأولى، وهذه الإلمامة لا تهدف إلى الاستيعاب والاستقراء، ولكنها ترمي إلى إبراز هذا الجانب من معارف العلماء المغاربة، ردا وجوابا على الذين يعتقدون أنهم لم يكونوا يهتمون بالرياضيات والهندسة وما إليها، وقد كان العزم أكيدا، لتحقيق هذا المرمى، أن يذكر، في عصور المغرب منذ ما قبل المرابطين، أعلام بارزون في هذه العلوم، حتى يكون ذلك مدعاة إلى الاقتناع بأنهم اهتموا بالعلوم البحتة، وألفوا فيها مصادر أصيلة، كما اهتموا بالعلوم الشرعية، والعلوم اللغوية، وبالأدب وما إليه.

مراكش ـ عبد الحميد محيي الدين

من بُيوتات سَبتة في القرن الثامن

للدكتور
عبد السلام
شقور

أستاذ بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية
بتطوان

من الظواهر التي تستوقف الباحث في التراث المغربي هذه البيوتات الكثيرة التي تمتلىء بأخبار رجالها كتب التراجم وكتب التاريخ والمناقب وغيرها، ومن هذه البيوتات من يتسلسل العلم والجاه في بنيها لمدة قد تتجاوز القرنين. كيف تظهر هذه البيوتات؟ ما أسباب ظهورها؟ ما وظيفتها أو وظائفها في التاريخ؟ كيف تختفي وتتلاشى؟ ما عوامل اختفائها وتلاشيها؟ إلى أي حد يعتبر ظهور هذه البيوتات وتطورها ظاهرة لها قوانين تخضع لها وتفسر ما يطرأ عليها؟

أعتقد أننا لو تمكنا من الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها لأمكننا التوصل إلى فهم عنصر هام من العناصر التي تحكمت في مسيرتنا التاريخية عبر مختلف الأجيال والأحقاب، نظرا إلى العدد الكبير من البيوتات التي كان لها أثر كبير في الحياة السياسية والثقافية في تاريخنا. ويخيل لمتتبع تراجم أبناء تلك البيوتات أن تاريخ المغرب كله، وفي جميع مجالاته إنما هو في نهاية التحليل تاريخ بيوتات صغرى وكبرى، توزعت فيما بينها السلطات السياسية والثقافية، وأن ما عداها من شرائح المجتمع لم يكن إلا تابعا لها.

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة، فإن الأمر الذي لا شك فيه هو أن البحث لن يستطيع تفسير كثير من الظواهر السياسية والثقافية في تاريخنا إذا أغفل نشاط هذه البيوتات.

لقد أثار انتباه القدماء أهمية هذه البيوتات فصنفوا فيها، وعنوا بإبراز

نشاطها فيما دونوه من تواريخ البلدان، فمنهم من أفردها بكتاب، مثال ذلك صاحب كتاب: «بيوتات فاس الكبرى» وفيهم من أولاها عناية خاصة فيما دونوه في باب التراجم وتواريخ البلدان ومن هذا الصنيع ابن غازي في الروض الهَتُون.

ولا أعرف كتابا مستقلا ببيوتات سبتة، ومن المعروف أن الأنصاري أشار في كتابه «انتصار الأخبار» إلى عدد من بيوتات سبتة؛ وفي «الكواكب الوقادة» حسبما وصل إلينا من نقل عنه في النيل، وطبقات المالكية، إشارات إلى بعض بيوتات سبتة، وفي (بُلغة الأمنية) كذلك إشارات إلى بعضها، وفي الإحاطة وأوصاف الناس لابن الخطيب تراجم لعدد كبير من أبناء سبتة، وجلهم من أبناء القرن الثامن.

والمتتبع لفهارس هذه الحقبة يجد حضورا قويا لأبناء سبتة من أعيان القرن الثامن. وقد ضمن المقري فيما بعد ما وقف عليه في المصادر المذكورة وفي غيرها من المجاميع والكنانيش من قواعد تخص أبناء البيوتات السبتية، وذلك في كتابه «أزهار الرياض» ثم في «النفح».

وسبتة السليبة من الحواضر المغربية التي اشتهرت ببيوتاتها العريقة، وكان ذلك سببا في خلق مشاكل عديدة للمرابطين والموحدين والمرينيين، وذلك لكون بعض هذه البيوتات صارت تتطلع بسبب ما أحرزته من جاه وثروة، إلى الاستبداد بالمدينة. والإشارة في هذا إلى ما قام به القاضي عياض أولا، وإلى صنيع أبي القاسم العزفي ثانيا، فقد كان عياض رحمه الله متزعم ثورة بلده في وجه الموحدين، وإذا كان عياض لم يوفق فيما سعى إليه، فإن بلديه أبا القاسم العزفي تمكن من أن يستبد بسبتة ويورثها أبناءه. ومما كان يشجع بيوتات سبتة على الثورة والاستبداد بالمدينة، ويذكي مطامعهم، موقع سبتة وبعدها عن مقر السلطة المركزية، وضعف هذه السلطة، وإلى جانب هذين المذكورين من أبناء سبتة هناك آخرون من أبناء هذه المدينة، قاموا بها، وانفردوا بحكمها.

ولما كان هدفنا الأول في هذا البحث هو «الاقتراب» من ظاهرة البيوتات في إطارها العام لاستخلاص بعض عوامل التحول والثبات في تاريخ سبتة خصوصا، وفي تاريخ المغرب عموما، فإننا سنقف عند أشهر بيوتات سبتة في القرن الثامن، مُرَكِّزين حديثنا عل ما كان لأبناء تلك البيوتات من يد في مجالَيِ السياسة والفكر.

من أشهر وأقدم بيوتات سبتة بيت القاضي عياض، وهو بيت تسلسل العلم والجاه في بنيه خلال ثلاثة قرون أو يزيد، فكان منه القضاة والأئمة والمدرسون،

ٓخر المذكورين من أبنائه: محمد بن أحمد
ن عياض الحفيد، كان شأن أجداده «آية
الحفظ والمداومة على الدرس ليلا
نهارا» وتوفي في الطاعون الذي اجتاح
عالم الإسلامي سنة 749هـ. والظاهر من
رجمته أنه ترك سبتة واستقر في
أندلس، موطن أجداده في القديم قبل
زوحهم إلى المغرب، ولم يفلح الموحدون في
ص أجنحة هذا البيت برغم العداء الذي
ان بين الجد عياض وبين عبد
ومن، وظل أبناء البيت المذكور
حط تبجيل معاصريهم.

ومن بيوت سبتة خلال القرن الثامن
يت بني عزفة، وهو بيت نجح بنوه في
تطاع سبتة والاستبداد بها مدة، ثم
فرط عقدهم، وكبا بهم حصان السياسة،
ركبوا متن الأدب، فكان لهم فيه غنية، لقد
تجعوا بشعرهم القصور، وتنقلوا بين
سبتة وغرناطة وفاس، واشتهر منهم
شعراء منهم: أبو زكرياء بن أبي طالب
عزفي، وأبو القاسم العزفي، وأبو عبد الله
عزفي، وأبو يحيى العزفي، وهؤلاء كلهم
ن أعيان المائة الثامنة.

كان أبناء البيت العزفي رجال سياسة،
علم، وأدب، وكان العلم هو الذي فتح لهم
ب السياسة.

ومنها بيت الشرفاء الحسينيين، واشتهر
ن هذا البيت جماعة، وآلت زعامتهم إلى
الشريف أبي العباس أحمد ابن محمد بن أحمد بن طاهر الحسيني، وهذا رجل انفرد بخيرات سبتة، ولم يكن ينقصه من الملك غير شارة الملك، وذلك أن أبا عنان أطلق يده في سبتة، فكان يولي ويعزل، وذهب أبو عنان في إكرامه مذهبا غريبا، فكان يسك له دينارا ذهبيا زنته مائة دينار، ينقش عليه اسم الشريف، ويقدم إليه هدية في فاس يوم الاحتفال بمولد الرسول الكريم، ومن المعلومات التي أوردها المقري عن هذا الشريف؛ يظهر أن الرجل كان محتكرا لجميع خيرات البلاد، وليس غريبا على المرينيين أن يكلوا له أمر سبتة، فقد كانوا في أمَسِّ الحاجة إليه وإلى أمثاله من الشرفاء، إذ كانوا كما قال صاحب الاستقصا بحق: «يرون في أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الأشراف وغيرهم من بني عمومتهم من الشرفاء الأدارسة».

وسياسة أبي الحسن مع الشرفاء وتقريبه إياهم وإتحافهم بالجرايات والهبات أمر معروف، وعلى هديه سار ابنه أبو عنان، بل لعله ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ عمل على تنظيم تجمعات الشرفاء والأولياء، وعقد لهم من أجل ذلك تجمعا وطنيا عام 754هـ على ما ذكر مؤلف كتاب «بهجة الناظرين». والظن أنه إنما صنع ذلك ردا على التجمعات التي كان متصوفة

المغرب يعقدونها سنويا في الساحل الأطلسي بالقرب من آسفي، وهي تجمعات قدم ابن قنفذ وصفا عنها في كتابه: «أنس الفقير وعز الحقير». وكان من نتائج العناية الفائقة التي كان الشرفاء يلقونها على يد ملوك بني مرين أن نشطت هجرة الشرفاء من الحجاز إلى المغرب.

وبرز من البيت الحسيني أعلام الشعراء، منهم أبو العباس بن عبد الله بن أبي الشرف الحسيني، وله قصائد في الفخر والمدح والوصف، وفي شعره المثبت في مذكرات ابن الحاج، وهو قدر لا بأس به، نَفَسٌ كُمَيْتِي متميز.

ومن البيوتات السبتية خلال القرن الثامن بيت الشرفاء الَحسنيين، بفتح الحاء، ومن أبنائه أبو العباس الَحسني، وابنه أبو القاسم الشهير عند المشارقة المحدثين بالشريف الغرناطي، وابنا هذا الأخير وهما: أبو العباس، وأبو المعالي، وهؤلاء من الفقهاء الأدباء على هذا العصر، وأبناء هذا البيت وإن لم يدركوا ما أدركه بنو عمومتهم من الشرفاء الحسنيين من جاه وثروة، فإنهم كانوا في مجالي العلوم والآداب شموس زمانهم. فهذا أبو القاسم السبتي «شيخ الدنيا جلالة وعلما ووقارا ورئاسة»، فيما قاله عنه تلميذه المؤرخ الكبير والعالم الشهير: عبد الرحمان بن خلدون. أما ولداه أبو العباس وأبو المعالي فقد كانا من حكام ملوك غرناطة، فكان أبو العباس من شعراء أبي الحجاج المقربين حسبما يظهر من نصوص كتاب: «مظهر النور الباصر» وقد انتهى أخوه أبو المعالي محمد، بعد تردد طويل، إلى التقرب من الجهات الرسمية، وإلى قبول خططها.

اتخذ أبناء البيوتات الشريفة من انتسابهم إلى الرسول ﷺ وسيلة إلى التقرب من ملوك عصرهم، تسعفهم في تحقيق ما راموا مكانتهم العلمية، فنالوا حظوة لدى حكام زمانهم.

ومنها بيت بني عبد المومن الحضرمي، وآخر المذكورين منه على هذا القرن، أي القرن الثامن، عبد المهيمن ابن أبي سعيد بن أبي محمد: عبد المهيمن الحضرمي، وأبوه أبو سعيد من كبار شيوخ عصره في فاس. ومن أشهر أبناء هذا البيت: أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي، خدم أكثر من ملك، فبعد سقوط سبتة في يد النصريين، عَبَرَ البحر إلى غرناطة، ثم عاد إلى سبتة بعد رجوعها إلى المغرب، ولما استدعاه أبو علي إلى سجلماسة، وكان هذا أقام بها ملكه، لحق به، ثم عَنَّ له أن يتركه إلى أخيه أبي الحسن لما رأى بوادر الانتصار في صفه خلال الحرب التي اشتعلت بين الأخوين ، وفي ظل أبي الحسن أدرك مجدا وجاها، وظل معدودا

ي حاشيته العلمية إلى حين وفاته في وباء الطاعون الجارف عام 749هـ.

ومنها بيت ابن رشيد السبتي، وهو بيت علم متوارث، فابن رشيد محدث أهل المغرب ومسنده، كان حريصا على استجازة الشيوخ لأبنائه في رحلته، وبرز منهم ابنه الفقيه يحيى وحفيده أبو سعيد رشيد بن يحيى، وهو آخر المذكورين في كتب التراجم من أبناء هذا القرن من بيته. والظاهر أن عدة أبناء هذا البيت في تسلق السلم الاجتماعي إنما كان ما حصلوه من علم، وما أدركوه من مجد موروث عن جدهم المحدث: ابن رشيد.

ومنها بيت بني الدَّرَّاج، وأصل هذا البيت من تلمسان، ومعلوماتنا عن هذا البيت محدودة، لا تكاد تتجاوز ما في صلة الصلة (المخطوط)، ومذكرات ابن الحاج واختصار الأخبار.. وأغلب ما في هذه المصادر إشارات يظهر منها أن أبناء هذا البيت اقتصروا على خدمة العلم، فلم يتلبسوا بشيء من الخدمة الرسمية، ولعل ذلك سر قلة ما وصل إلينا عنه.

ومنها بيت أبي العيش بن يربوع السبتي، وبيت أبي العيش شهير، ومن أبنائه: أبو عبد الله محمد بن يربوع، وأبو العباس أحمد بن أبي العيش محمد بن أبي يربوع، «وكانت له عند سلطان المغرب حظوة ومكانة، واستعمله في السفارة بينه وبين الملوك».

تلك هي أشهر البيوتات السبتية في القرن الثامن، اكتفينا في استعراضها بما نعتقد أنه المهم فيما نحن بصدده، ولو حاولنا تتبع أبناء هذه البيوتات ممن نبغوا في القرن الثامن واحدا واحدا، لخرجنا عن الهدف المرسوم، إذ غايتنا هنا منصرفة إلى استخلاص «القوانين» العامة التي كانت تنتظم هذه البيوتات، بقصد الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها في بداية العرض.

ولعلنا من خلال الأسماء التي تعرضنا لها من أبناء بيوتات سبتة في القرن الثامن أمكننا أن نسجل ما يلي:

تنحدر كل البيوتات المذكورة من أصول عربية،(1) ولم نقف على بيت سبتي شهير عاش أبناؤه في هاته الفترة من أصل غير عربي. فما سر ذلك؟

كانت سبتة كما هو معلوم صلة وصل بين المغرب والأندلس، يمر بها الداخلون إلى الأندلس والخارجون عنها، وقد استقرت بها مع مرور الزمن أُسَرٌ عربية كثيرة آلت إليها زعامة البلد في مرات عديدة. ومن كتابات العصر يبدو أن النسب العربي كان ييسر على صاحبه تسلق السلم الاجتماعي، بمعنى أن الانتساب للأصل العربي كان امتيازا

1) وبيت بني غرفة عربي على الأرجح، وأن ذكر بعضهم غير ذلك.

اجتماعيا، يظهر هذا جليا في كتابات ابن الخطيب، وأظن أننا في غنى عن تتبع الشواهد في هذا الباب، وهي على أي حال كثيرة، ويكفي هنا إيراد فقرة من رسالة لأبي الحسن العشبي، وهو «غربي» كان بعث بها إلى صديقه أبي المطرف بن عميرة المخزومي.

قال أبو الحسن المذكور: وكيف وأنت ريحانة قريش، التفت عليك بطحاؤها، واقتفت آثارك فصحاؤها، وعُرفت بك طرق البلاغة وأنحاؤها، وأنا وما أنا! نسب في البرابر عريق، وسبب من التعليم لا ممتد ولا وثيق، درجت حيث جفاء الطبع...

إن الانتساب إلى الأصل العربي كان ييسر العلم على المتعلم، ويسهل عليه بعد الإفادة من علمه، وهكذا فإننا نجد عامة أبناء البيوتات المذكورة خدموا الدول في عصرهم، فكان منهم الكتاب والقضاة والخطباء والأئمة والشعراء، فحفلت بأسمائهم كتب التاريخ والتراجم، على أنه يجب أن لا نتسرع فنقضي بكون العنصر العربي وحده كانت له السيادة، وما عداه لم يكن له حضور في الواقع الثقافي أو العلمي على الأصح. لقد أحصينا نحوا من مائة بيت من بيوتات المغرب المريني ممن أدركوا جاها وشهرة بسبب من الأسباب، فلم نجد ذوي الأصول العربية منهم يصلون إلى النصف، على أن البيوتات «الغربية» إنما كانت شهرتها في فاس، وتازة، ومكناس خاصة، ومن تلك البيوتات: بيت المزدعي، وبيت المكودي وبيت ابن آجروم، وبيت بني المليلي، وبيت أبي مدين، وبيت الفشتالي، وبيت القبائلي، وبيت ابن عطية الونشريسي، وبيت ابن جابر المكناسي، وبيت أبي العافية المكناسي، وبيت الجاناتي، وبيت بني الغرديس، وبيت بني المغيلي، وبيت العبدوسي....

هذا، ومن الأكيد أن البيوتات التي اتصلنا بأخبارها إنما هي تلك التي اشتغل أبناؤها بالعلم أو بالسياسة، أما تلك التي كان أبناؤها في التجارة وغيرها من المهام فلا نعرف عنها شيئا.

ومن البيوتات السبتية المذكورة من كانت تنتسب إلى الرسول -ﷺ-، وفي ذلك زيادة تقديم.

وهنا تجب الإشارة إلى أن الشرفاء أخذوا ابتداء من هذا العصر يتطلعون إلى القيام بأدوار هامة في مجال الحياة سياسيا واجتماعيا، شجعهم على ذلك سياسة دولة بني مرين مع الشرفاء، وكان من نتائج تلك السياسة أن نشطت رحلة الأشراف إلى المغرب، وقد أحسن الأشراف استغلال الظروف لصالحهم، فجنوا ما أرادوه من تمام النعمة، وصاروا بذلك ملوكا في عصرهم لا ينقصهم إلا التتويج، يتطارح الناس على أعتابهم، ويتقربون

هم بالتأليف فيهم، والشرفاء الحُسَينيون
ـبتة وأبناء عمومتهم من الشرفاء
جوطيين بفاس كانوا على رأس الأشراف
زمانهم.

وكان لظروف مدينة سبتة المتميزة
لاضطرابات السياسة المستمرة أثر في
ياة أبناء بيوتات المدينة، لقد تمكنت
ض بيوتات المدينة من أن تستبد بها،
لك في خضم تقلبات سياسية عنيفة،
ُربُ سبتة من الأندلس أطمع بني
حمر فيها، وكانت غايتهم التشويش على
غرب منها. ولا شك أن سكانها عانوا من
زعازع التي عصفت بها، وقد اضطر كثير
ن أبناء البيوتات التي ذكرنا إلى إعمال
رحلة إلى فاس أو غرناطة، وكانوا يجدون
ٔبواب مفتوحة في وجوههم حيثما
جهوا، نظرا لِما كانوا عليه من علم، ولِما
انت لديهم من طاقات أدبية، ولم تكن
ـبتة على أي حال لتفي بتحقيق طموح
نابغين من أبنائها، لكثرتهم، ومن ثم فقد
جدناهم في فاس وغرناطة وتلمسان
غيرها من الحواضر الكبرى، وقل من لم
رحل من أبنائها إلى جهة من الجهات بحثا
ن الجاه والمال. فهذا ابن رُشَيد تضيق به
دينة، فييمِّمُ وجهه شطر الأندلس، ثم
تركها مُرْغَما، ويقصد فاس بعد مقتل
ـديقه الوزير والشاعر: ابن الحكيم؛
قصَدَ أبناء البيت العزفي بعد سقوط
إمارتهم الأندلسَ وفاسَ كذلك، وفي فاس استقر أبو القاسم ابن أبي زكرياء العزفي، وابنه أبو يحيى، وظل هذا الأخير بها يتعيش فيما يظهر من شعره، وارتحل أبناء البيت الحسني عن سبتة، فاستقر أبو القاسم بغرناطة قاضيا، وتعلق ابنه أبو العباس بخدمة ملوك بني نصر، فصدر عنه في حقهم من المبالغات الشعرية ما لا يصدر عن عاقل كما قال بحق السلطان أحمد المنصور الذهبي، وكان اطلع على شعر له فيهم، وسار أخوه على نهجه فيما يظهر بعد تردد، ولم ينج بيت بني عبد المهيمن الحضرمي من الاضطرابات التي عصفت بسبتة، فغداة سقوط المدينة في يد بني نصر، انتقل أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي إلى غرناطة، وانتظم هناك في سلك الكتاب، ثم عاد إلى بلده، والتحق بسجلماسة، استجابة لطلب أبي علي، ولما ترجحت كفة أبي الحسن في حربه لأخيه، انضم إليه عبد المهيمن فيمن التحق به، وبقي في حاشيته أسيرا عنده إلى أن أدركته وفاته بتونس في وباء الطاعون، واستمر بنوه في فاس، وكان في جملتهم أبو سعيد محمد بن عبد المهيمن الحضرمي من شيوخ السراج.

إن المتتبع لتنقلات أبناء سبتة من أعيان علمائها وأدبائها، يحس وكأن المدينة ضاقت ببنيها، ومن ثم فقد مدت الحواضر

الشهيرة بهم، فكان منهم الخطباء، والأئمة، والكتاب، والشعراء، وشيوخ العلم. وسيطول الحديث إن حاولنا حصر ما خلفه هؤلاء من آثار في الفقه والأدب بشكل خاص، وجل ما انتهى إلينا من شعر شعراء المغرب في القرن الثامن ينصرف إليهم، هذا إلى جانب ما لهم من آثار في فهارس العصر، وكثير منهم اشتهروا بحلقات العلم التي كانوا يعقدونها في سبتة، وغرناطة، وفاس، فكان لهم أثر مباشر في تنشيط الحركة العلمية، وإذكاء شعلة الأدب.

وابتداء من نهاية القرن الثامن وبداية التاسع، فإن هذه البيوتات أخذت تتلاشى، ولا ينتصف التاسع حتى تختفي أو تكاد، ولم يبق لها من ذكر في غير «شواهد» مقبرة «زجلو» وغيرها من مقابر سبتة.

كان بروز هذه البيوتات نتيجة عوامل متعددة: منها ما يرجع إلى الظرف التاريخي، ومنها ما يعود إلى غير ذلك، ونعتقد أن الظروف التاريخية، وطبائع العصر السياسية وانشغالاته، تتحكم إلى حد بعيد في ظهور هذا العنصر الاجتماعي أو ذاك. آية ذلك، أننا نجد لكل عصر سياسي بيوتات قليلة هي تلك البيوتات التي تمكنت من تجاوز عصرها، وهكذا فإننا سنجد بيوتات جديدة تظهر في العصر السعدي.

ولعل اختفاء البيوتات السبتية من الساحة السياسية والثقافية بعد الثامن يؤكد تحكم النظام السياسي في ظهور «البيوتات» واختفائها.

وأخيرا فإذا كنا لم نحسم الأمر فيما يخص نشأة البيوتات في التاريخ المغربي عامة من خلال بيوتات سبتة في القرن الثامن، فحسبنا أننا أثرنا هذا الموضوع، موضوع البيوتات ودورها السياسي والثقافي في تاريخ المغرب.

تطوان ـ عبد السلام شقور

مصادر البحث :

ملء العيبــة لابن رشيـد: الجزآن المخطــوطـان: السادس والسابع، والأجزاء الثلاثة المطبوعة من تحقيق الشيخ د. بلخوجة.

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، لأبي زيد عبد الرحمان بن خلدون.

الذيل والتكملة، السفر الثامـن لابن عبد الملك، من تحقيق: د. محمد بن شريفة.

الأنيس المطـرب لابن أبي زرع تحقيـق الأستاذ: عبد الوهاب بن منصور.

صلة الصلة لابن الزبير، القسم المخطوط.

مذكرات ابن الحاج، مجموعان مخطوطان بمكتبة الاسكوريال.

الإحاطة لابن الخطيب ـ تحقيق المرحوم عنان.

الإحاطة (نصوص لم يسبق نشرها) جمع وتقديم وتخريج: د. عبد السلام شقور.

نثيرا الجمان كلاهما لابـن الأحمر، ومن تحقيق: د الداية.

بيـوتات فـاس الكبرى تحقيـق عبد الـوهاب بـن منصور.

النفاضة ج 2 لابن الخطيب ت. العبادي.

المنتقى المقصور لابن القاضي ت. د. رزوق.

المرقبة العليا للنباهي ت. بروفنسال.

أزهـار الريـاض للمقري، تحقيـق مجمـوعة مـن الأساتذة.

النفح للمَقري، تحقيق د. إحسان عباس.

ديوان ابـن فركون تحقيق د. محمـد بن شريفة.

مظهر النور الباصر، لابن فركون مخطوط.

بهجـة النـاظـريـن لابـن عبـد العظيـم الزموري.

ليلة النور

للشاعر محمد نجيد

ألق الفجر شفيفا رفرفا — فاستضاء الكون، والجو صفا
وعلى الأرض مشى مؤتلقا — خير نور مثله ما أشرفا
لم يدع أفئدة إلا انتشت — من مسرات به إذ أزفا
ليلة الإثنين أسمى ليلة — وقف الكون لها وانعطفا
لست أغلو إن أقل : حقا لها — هو ذا الكون جميعا وقفا
مدركا قيمة ما نورها — بل وعنها كل هم قد نفى
وقف الكون يطأطي رأسه — خاشعا مستكنها مستكشفا
إن يكن سر بما أدركه — فلكم قد سره أن عرفا
إنه يحظى بأندى ليلة — ليلة الهادي الأمين المصطفى
سر فتح الله والنور الذي — في رحاب الأرض طرا طوفا
أي هاد غيره قد يحتذى ؟ — أي نهج دونه قد يقتفى ؟
حاملا خير الرسالات هدى — في كتاب يتلالا أحرفا
سالكا بالناس سبلا لم تكن — غير سبل الصدق حقا والوفا
داعيا للسلم من لم يلتزم — أبدا بالسلم مكرا وجفا

* * *

يا لدنيانا بطه استقبلت — أكرم الخلق ونبع الشرفا
وشفيع الخلق في يوم اللقا — من كمثلي للذنوب اقترفا
وأتى مولاه يرجو عفوه — وكأني بإلهي قد عفا
قابل التوبة إني تائب — ذبت من ذنبي وإثمي أسفا
وصفك النفس بهذا مقنعي — أنني إن تبت لن أنكسفا

فاقبل التوبة من عبد أتى ... باكيا مستشفعا معترفا

كيف لا ؟ والوعد وعد صادق ... منك للتائب مهما أسرفا

ليتما أم القرى تسعدني ... زائرا تلك المغاني لهفا

ليتني أكحل عيني بالتي ... لم يشد ربك منها أشرفا

طائفا بالبيت أسعى محرما ... وأصلي ناسكا معتكفا

شافيا في عرفات غلتي ... ليس الا تم لي كل الشفا

* * *

يا إلهي بالحبيب المصطفى ... قد تشفعت، بحسبي وكفى...

فأقل عثرة نفسي، واهدني ... لصراط آمن ما انحرفا

واغمرني بالرضى يوم يجي ... كل عبد لك، يقرا صحفا

وأدم خير صلاة للذي ... منك بالخلق عظيما وصفا

سلا ـ محمد نجيد



مكانة تازة العلمية

من خلال النصوص التاريخية والإنتاجات الأدبية والفقهية

للأستاذ محمد بن أحمد الأمراني
رئيس فرع رابطة علماء المغرب بتازة

يلاحظ في هذه السنوات الأخيرة أن كل بلد في المغرب بدأ علماؤه يبحثون عن تاريخه الفكري الذي يتجلى من خلال ما أنتجه رجالات ذلك البلد من آثار في مختلف الميادين: الفقهية والأدبية والشعرية، وعلم القرآن والتجويد، وأدب التصوف، والفتاوى الشرعية، وغير ذلك من ألوان المعرفة الإنسانية والحضارية والفكرية، مع إظهار قيمة ذلك الإنتاج في عصر أولئك الرجال، ومدى إمكان الاستفادة منه في عصرنا الحاضر، ذلك التراث الذي يمثل حضارتنا المغربية الأصيلة أحسن تمثيل وأصدقه، والذي لو نفض عنه الغبار، وأخرجته المطابع، لأضيف إلى تاريخ المغرب الفكري صفحات مشرقة أخرى لازالت مطمورة في غياهب رفوف الخزانات العامة والخاصة، والتي تشتمل على نفائس المخطوطات والذخائر الفكرية والإنتاجات الأدبية الرفيعة.

ثم إن هناك ظاهرة تلفت نظر الباحث، وهي أن المدن الكبرى ذات المجد العريق كفاس ومراكش مثلا تجتذب علماء المدن الصغرى، بحيث كلما نبغ شاعر أوكاتب أو شخصية مشاركة في كثير من العلوم إلا وتنتقل تلك الشخصية المرموقة إلى أحد المراكز الثقافية الكبرى. ذلك أن رجال الحكم في هذه المراكز العلمية كانوا أحيانا يعملون على استقطاب أعلام الفكر والأدب والدين ليكونوا بجانبهم، لأنهم يعتبرونهم زينة مجالسهم، وواسطة عقدهم لا يستغنون عنهم بحال.

هذه الظاهرة تنطبق على كثير من رجالات تازة الذين انتقلوا منها للأسباب

السالفة الذكر، ولأسباب أخرى، واستقروا بفاس وغيرها، بحيث كان نشاطهم الأدبي والعلمي والدبلوماسي خارج بلادهم تازة.

• وذلك كابن البقال التازي الفقيه الفيلسوف دفين باب الفتوح.

• وكإبراهيم التسولي التازي الملقب بابن أبي يحيى السفير المغربي لدى أبي الحسن المريني، والذي توفي بفاس أو تازة.

• وكالشاعر أحمد بن شعيب الجزنائي التازي الذي اتخذه أبو الحسن المريني كاتبا في ديوان إنشائه، والذي مات غريقا بشاطئ تونس.

• وكالشاعر الصوفي إبراهيم التازي دفين وهراس.

• والشيخ أحمد زروق دفين مصراتة بليبيا.

• ومثل الفقيه النوازلي أبي الحسن علي ابن عبد السلام التسولي، شارح التحفة، ودفين فاس.

• وكيحيى بن الحسن التسولي التازي المعروف بابن أبي دلامة، كاتب العلامة مع ثلاثة ملوك مرينيين، وصاحب العلامة أو كاتب العلامة هو الذي يتولى التوقيع باسم السلطان، ويضع شارته على المخاطبات والمراسيم الملكية؛ وكانت هذه الوظيفة من أهم الوظائف الإدارية في القصور المغربية.

• وغير هؤلاء من رجال الفقه والتصوف الذين عاشوا خارج مدينتهم تازة.

وليس قصدي من هذا المقال عرض حياتهم أو إبراز إنتاجهم، وإنما قصدي هو التعرض لمكانة تازة العلمية، وذلك من خلال النصوص التاريخية، والإنتاجات الأدبية، والفقهية والصوفية.

ولعله من المفيد أن أنقل للقارئ بعض الفقرات مما قاله البحاثة المغربي الدكتور عبد الهادي التازي في مقاله القيم الذي نشره بمجلة «دعوة الحق» عدد: 241 محرم 1405 - أكتوبر 1984 حول تاريخ مدينة تازة قال:

«لقد توجه إليها بنو مرين بنفس العناية والحماس الذي توجهوا به إلى عاصمتهم فاس، بل إنهم اتخذوا من تازة مدرسة لفلذات أكبادهم، وقاعدة للأمراء وكبار رجال الدولة... لقد بلغت تازة في العهد المريني ما لم تبلغه معظم المدن في المغرب الأقصى...» ثم يقول:

«ولم تكن المدينة (محطة إعلام وأخبار) فقط، ولكنها مركز إشعاع ثقافي وعلمي وحضاري. وفي الحوالات الوقفية انعكاس لأخبار تازة ونشاطها العلمي والثقافي في المعامل والمصانع التي كانت

تحتضنهـا، من دبـاغـة وصبـاغة وسبـك النحاس والزجاج والورق، ونحن نعلم عن المثـل المغـربـي السـائر الـذي يضـرب (بصابون تازة) والذي يعبر عن جانب من جوانب اهتمـامات المدينة، بمعنـى صناعة الصابـون التي تعتبـر من أبـرز الدلالات الحضـارية... كـراســي العلـم، الخزانـات العلمية، المدارس الطلابية، أحاديث الناس بعضهم بعضـا كانت تعكس هـي الأخرى درجة ثقافة الناس...

لقد كانت تازة بذلك في صدور القواعد الثقـافيـة الكبـرى للمغـرب، مثـل: فـاس وسبتة ومراكش وسلا ومكناس... بل كما رأيناه مثلا بالنسبة للقـاضي عياض الذي اضطهده الموحـدون،والذي وجدنا خـزانة المسجد الأعظم تنشـأ برسم حفظ كتـابه «الشفا».

ثم يختـم الدكتور عبد الهـادي التازي مقاله بهذه الكلمات:

«إن تازة لا تعـد فقط إسما لمدينـة بل تُعَدُّ علمـا على ربـاط جهاد تحطمـت على أبوابه سـائر المناورات، علما لمركـز علم، سـاهَـمَ فـي صنـع رجـال الفكـر، رمـزا لمـــدرســـة صنعـــت السيـــاسييـــن والـدبلـوماسيين، علمـا لتـاريخ حـافـل بالمواقف الشريفة التـي اتخذها في سبيل الحفـاظ على وحـدة المغـرب، ليس فقـط وحدة ترابه الذي نمشي عليه، ولكن وحدة ترابه الروحي المتجلـي في وحدة المذهب والعقيدة» هـ.

بالإضـافة إلـى هذه النصـوص، هناك نصوص تاريخية أخرى تثبت أن المجتمع التـازي كـان مجتمـــع العلمـاء والفقهـاء والقضـاة والمفتيـن والشعراء والمقـرئيـن والمتصوفة الكبار، كما أنهـا كانت متأثرة جدا بالجو العلمي الطافح الذي كان يسود مدينة فاس، وكان بعـض فقهاء المدينتين يتبادلـون الفتاوى، وقـد ذكر بعـض هذه النوازل الفقيـه العلامة الـونشريســي في كتابه الجامع «المعيار...» المطبوع.

يقول محمد بن شعيب المجاصي وهو أديب مقـرئ، تعلم بربـاط تازة علـى ابن بـري التازي، فـي شـرحـه على «الـدرر اللوامع في أصلِ مَقْـرَإ الإمام نافع»، وهذا الشرح مخطـوط عندي «وطلبني إلـى هذا الشـرح بعــض الطلبـة ممـن هـــو أهـل بالقـراآت، وممن أثق به بعـد أن استخرت الله فـي ذلك سنين» ثـم يقول فـي نفس الشرح:

«وأخذنـا هذه القراءة، واتصلنا بهـا من وجوه وعـن شيوخ عـديدة: منهـم الشيخ المحـدث المقـرئ سيـدي أبـو عبـد اللـه المالقـي وكان بمدينـة تازة حرسهـا الله، قرأت عليه لنافع عـرضتين: ختمة لورش، وختمة لقالون، مستظهرا لـذلك، وكتب لي بذلك، إجازة».

وبالإضافة إلى شيوخه الذين أخذ عنهم بفاس، أخذ أيضا بتازة عن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن أحمد بن أبي بكر التسولي اللنتي. يقول المجاصي: «قرأت عليه ختمة من طريق أبي العباس أحمد بن يزيد الحلواني، وكتب لي بذلك إجازة».

ويذكر المجاصي في آخر شرحه على «الدرر...» «إنه ألف شرحه هذا بمحضر جماعة من الطلبة ممن يفهم الرواية وأقول: من له سؤال يسأله؟ ومن عنده اعتراض يعترضه؟ فإني راجع إلى الحق حيثما تبين من كبير أو صغير، ثم بعد ذلك أكرر النظر مع ما وقع من الكلام والبحث، ثم أضعه في الكراس».

ويقول الوزير الإسحاقي في رحلته الحجازية وهو يتحدث عن تازة في مخطوط بالخزانة الحسنية رقم: 11867، وكانت الرحلة سنة: 1143هـ:

«وزرناها فإذا هي مدينة آخذة من الحضارة بطرف وحصن حصين من المعاقل التي تعقل بها أثر الحسن القديم، وبها جامع كأحسن ما أنت راء من الجوامع سعة وحصانة وبناء متقنا محكم الشكل... وتلاحقه مدرسة عجيبة مكتوب على بابها:

لعمرك ما مثلي بشرق ومغرب
يفوق المباني حسن منظري الحسن
بناني لدرس العلم مبتغيا به
ثوابا من الله، الأمير أبو الحسن

أقول: هذه المدرسة التي أشار إليها الإسحاقي هي المدرسة المشهورة عندنا بتازة بمدرسة «المشور»، وقد أدخلت عليها إصلاحات هامة، وأثناء الإصلاح أعيد نقش البيتين المذكورين سابقا على الخشب فوق بابها كما كانا منقوشين من قبل، وقد وجد المشرفون على الإصلاح صعوبة كبيرة في قراءة البيتين المنقوشين على الخشب القديم. ويقول الأستاذ محمد المنوني البحاثة المغربي في كتابه «ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين» ص: 200:

«استعادت الثقافة المغربية نشاطها في ظل العصر المريني الأول، وبلغت مراكزها في المدن خاصة، ثلاثة عشر، تستوعب مختلف جهات المغرب، فكان في المناطق المرتفعة، مكناس وفاس وتازة، وعلى حوض المتوسط وما إليه: مدن بادس وسبتة وطنجة. وبعد القصر الكبير، تأتي المدن المطلة على المحيط: سلا والدار البيضاء وأزمور وآسفي، وفي الجنوب: مراكش وأغمات».

«وبين المدن المنوه بها تأتي ثلاثة في الطليعة فاس... ثم سبتة مركز الدراسات

اللسانيـة، وثالثـا، مدينـة مراكـش مدينـة الرياضيات وما إليها».

«وتأتـي بعد هذه القـواعد مدينـة تازة حيث المـواد العربيـة ناهضـة، والمعارف الأخرى متدارسة».

وهناك نص آخر ورد في كتاب «أزهار الرياض» ج 3 ص: 32 ـ 33 جدير بأن نتوقف عنده قليـلا لنستشف من سطوره القليلة بعض المعطيات العلمية التي تفيدنا فـي موضـوعنـا، ولنستنتـج منه بعـض ملامح الجو العلمي الذي كان يسود مدينة تازة آنذاك، وهذا النـص وإن كان موجزا، إلا أنك عنـدما تتأملـه، وتستنطق عبـاراته المجمـلة، تخـرج ـ ولاشـك ـ بفكـرة واضحة، وهي أن المجتمع التازي ـ وقتذاك ـ كـان مجتمـع أهـل اللسان، وفـرسان المعارف. قال مؤلف «أزهار الرياض»:

«إِعْلَمْ أرشـدك اللــه، أن الشيـخ أبـا الحسن كان إمـام وقته في فقه المـدونة، وهو المستقل برياستها بعد شيخه الفقيه راشد... ولم ينظر في الفقه حتى أتقن علم الفرائض وفنـون البلاغة، وتلقى ذلـك من أربابه، وارتحل وانتقل إلى تازة فلازم أهل اللسان وفرسان المعارف وقتا طويلا، ثم اعتكف على قراءة «التهذيب»، ولازم الفقيه راشدا واقتصر عليه...».

والذي يهمنا مـن هذا النص هو قـوله بالخصوص: «وانتقل إلى تازة، فلازم أهل اللسان وفرسان المعارف وقتا طويلا، ثم اعتكف علـى قراءة (التهذيب)، أي تهـذيب البراذعي القيرواني».

والذين كتبوا عـن أبي الحسن الصغير الفقيه المالكـي الحافظ يذكرون أنـه تولى قضاء مـدنية تازة أولا أيـام أبي يـوسف يعقـوب بن عبد الحق المرينـي الذي تـولى سنـة 656هـ، ثـم تولى بـعد ذلك قضاء مدينـة فاس. وفـي هذه المـدينة العلميـة قضـى معظـم حيـاتـه فـي التدريـس والفتـوى رغـم اشـتغالـه بمهمـة القضـاء.

وعلى هذا فليس من المستبعد ـ وحالة أبي الحسن هذه ـ أن يكـون قد ساهم في الحركة الفكـرية التي كانـت سائدة آنذاك فـي تازة بـالتدريـس فيها رغـم اشتغالـه بالقضاء، إلا أن النص يقـول: «وانتقل إلى تازة فلازم أهل اللسان وفرسان المعارف وقتـا طويـلا...» هكذا بـالفـاء التي تفيد التعقيب، فمـنْ هُمْ أهـل اللسان وفـرسان المعـارف الـذيـن لازمهـم أبـو الحسـن الصغير وقتا طويلا؟ لاشـك أنهم من أهل تازة، لأن النص يقول بعد هذا: «ثم اعتكف على قراءة «التهـذيب» هكذا ثم، التـي تفيد التراخي. ومن المعلـوم المشهور أن قراءة كتاب «التهذيـب» حفظا وفهما إنما كـانت بعد رجوعه إلى فاس التي توفي بها سنة 719هـ.

وجود خزانة كبيرة بالمسجد الأعظم
بهذه المدينة العريقة، على أي شيء يدل؟
يدل على أنه كانت هناك حركة فكرية،
أن هذا المسجد كان بمثابة جامعة
قرويين يؤمه الطلاب من نواحي تازة
تزود من المعرفة.

يقول بعض الأساتذة المهتمين بتاريخ
ازة: إنه ـ حسب الإحصاآت الموجودة
ي الحوالة الحبسية ـ كان بخزانة
مسجد أكثر من عشرة آلاف مجلد في
صر بني مرين، أقول لم يبق من هذه
مجلدات إلا ما يقرب من سبعمائة
خطوط!

وحينما ترجم العلامة المرحوم سيدي
بد الله كنون لشخصية ابن بري التازي
ي جريدة «الميثاق» عدد: 236 قال عن
ازة ما يلي:

«وكان الوسط العلمي في تازة إبان
لك مزدهرا بسبب عناية الدولة الجديدة ـ
هي دولة المرينيين ـ بهذه المدينة، لأنها
انت من أوائل المدن التي دخلت في
اعتهم، وصارت بعد ذلك هي وناحيتها
نطلقهم إلى الغرب، وقد جددوا معالمها،
أنشأوا فيها مساجد ومدارس لطلبة
علم، ورتبوا بها المدرسين حتى أصبحت
الثة مدن المغرب الكبرى كما يقول
حسن الوزان، وهي من قبل كانت دار
لم ظهر منها العلماء والأدباء والمتصوفة
الكبار. وقد اكتمل مجدها بإمام القراء المغاربة ومعتمدهم، أعني: مترجمنا هذا».

وحينما عرف ابن بري ـ كما في «المعيار» آابن البقال التازي قال:

«إنه قرأ أولا بتازة، وأخذ بها علم العدد والفرائض على أبي عبد الله العباس بن مهدي، كما أخذ علم النحو والكلام على أبي عبد الله الترجالي، ثم استوطن مدينة فاس، وتوفي بها».

وقال محمد الشرقي الإسحاقي في رحلته الحجازية: «وزرنا بتازة من الصالحين المشهورين: سيدي محمد بن يجبش، وسيدي عزوز، وسيدي ابن بري التسولي النسب التازي الدار، نشأ بتازة بزقاق الزفانين منها، واجتهد كثيرا في الذكر والبحث والمطالعة، وكان من طلبة تازة وعدولها، وانتقل إلى فاس كاتبا سنة 724هـ».

ويقول ابن بري التازي: «إنه قرأ القرآن كله برواية نافع من طريق ورش وقالون على نحو ما نظمه في رجزه على ابن حمدون المتوفى بتازة...» وهو مدفون معه في ضريحه، وإلى هذا يشير في رجزه:

حسبما قرأت بالجميع
على ابن حمدون أبي الربيع
المقرئ المحقق الفصيح
ذي السند المقدَّم الصحيح

وأبو مهدي عيسى بن عبد الله الترجالي كان من تلاميذ ابن بري البارزين، وطلبة تازة المتفوقين، ثم وَلِيَ قضاءَ تازة، وأصبح من شيوخها المرموقين، وقد وجدت له فتوى في «المعيار» للونشريسي تتضمن أنه حكم على رجل من أهل تازة في قضية ما... ثم عرض نص حكمه على فقهاء فاس بسبب تشكي الأب من الحكم في قضية ابنته، وفي آخر الفتوى قال الترجالي: «فبعثت عقد الحكم اليزناسني ـ نفعه الله ـ فكتب بيده تحت سجل الحكم: إنه صحيح جار على الكتاب والسنة، وطالعه الفقيه السطي وغيره من الفقهاء، ووقع فيه مجلس بحضرة المولى نصره الله، حضره الفقيه أبو سالم ابن أبي يحيى قبل مضيه إلى الحج، وأعلم المولى أن ذلك الرجل يعرف حاله، وانفصلت القضية... ثم يقول الترجالي:

«وكان وقف على ذلك الحكم بالأمر العلي فقهاء تازة: أبو عبد الله بن عطية مع عبد الله بن عمر المفتي، وعبد الرحمان بن أبي زيد الوادي، وغيرهم، فلم يجدوا بابا للفسخ». هذا، وقد ذكر مؤلف كتاب «المعيار» بعض الفتاوى الفقهية لهذا القاضي التازي. وبالإضافة إلى هؤلاء الفقهاء التازيين هناك فقيه تازي آخر ضرب في ميدان الفتوى بسهم وافر، وساهم في الحركة الفكرية بتازة مساهمة كبيرة، هذا الفقيه هو أبو عبد الله محمد بن عبد المومن التازي، فقد وصفه العلامة الونشريسي في «المعيار» بقوله: «وسئل فقيه تازة ومفتيها أبو عبد الله محمد بن عبد المومن، وأثبت نص السؤال مع الفتوى، ومرة حلّاه بقوله: «وأجاب الفقيه القاضي المدرس المفتي القدوة أبو عبد الله محمد بن عبد المومن رضي الله عنه ونفع به بما نصه. وثالثا ذكره حينما وقعت نازلة بحضرة فاس، وسئل عنها ــ كما يقول الونشريسي ــ أعيان أئمتها، وأئمة تلمسان من أهل هذا الشأن، وأثبت نص السؤال، وكان أول المفتين الذين ذكرهم «المعيار»، في هذه النازلة الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد المومن التازي، وأثبت فتواه التي كانت سنة 782هـ.

وعقّب على هذه الفتوى بالصحة كل من العالمين الفقيهين الجليلين: إبراهيم اليزناسني، وعبد الرحيم اليزناسني، الفقيهين المفتيين الشهيرين بفاس.

وما ذكرته من فتاوى القاضي الترجالي، ومحمد بن عبد المومن، إلا مظهر واحد من مظاهر الاحتكاك والتبادل العلمي بين فقهاء تازة وفاس.

ولم تقتصر علاقة تازة العلمية على فاس فقط، بل كانت هناك علاقة علمية مع

مسان، فقد ورد في كتـاب «المعيار» ما اتي:

«وسئـل الشيخ أبـو عبـد الله سيـدي حمـد بـن أحمـد مرزوق مـن بلـد تـازة محروسة بـالله عن مسألة تتعلـق برجل بس على أولاده أملاكـا، ثم على أولادهم أولاد أولادهم الذكور دون الإناث.... إلخ، أجاب رحمه الله بما نصه، وأثبت الجواب ذي كان بتاريخ جمادى الأولى 809هـ.

وكذا العـلاقات العلمية المتبادلـة التي انـت بين ابن يجبـش التاريخي الشـاعر صوفـي، وبين الشيخ الإمام السنـوسي، قـد مدح ابـن يجبـش بقصيـدة شعريـة رح العقيـدة الصغرى التي ألفهـا الإمام سنوسي الذي كان قـد وجه هذا الشرح ى ابن يحبش الذي قرظ بقصيدة شعرية خرى إحدى مؤلفات الشيخ السنوسي في حديث...

وإذن فلا غرابة إذا قال الحسن الوزان ذي زار مدينـة تازة في العهد الـوطاسي أنها: «تحتـل الدرجة الثالثـة في المملكة ن حيث المكانة والحضـارة، ففيها جامع كبر من جامع فـاس، وسكانها الشجعان رماء... مـن بينهم عدد كبير مـن العلماء الأخيـار والأثـريـاء، لأن أراضيهـا تنتج حيانا ثلاثين ضعف ما يبذر فيها».

«ومن عادة ملوك فاس لهذا العهد أنهم تطعون لهذه المدينة لثـاني أبنائهم. ومن الواجـب، والحق يقـال، أن تكون حـاضرة المملكة لطيب هوائهـا صيفا وشتاء، وكان ملوك بني مرين يقيمـون بها الصيف كله، لا لهـذا السبب فحسـب، ولكـن لحراسـة البلاد وحمايتها من أعراب الصحراء الذين يأتـون كل سنـة ليمتاروا ويحملـوا تمور سجلمـاسة قصـد استبـدالهـا بالحبـوب، ويكسـب أهـل المدينة ربحـا وافـرا مـن الحبـوب التي يبيعـونهـا لـلأعراب بثمـن مرتفع، وباختصار فإن تازة محظوظة جدا سـواء فيمـا يخـص المدينـة ذاتهـا أو السكان...».

والجـدير بـالذكر أن تازة كـانت فـي بعـض العصـور ملتقـى العلمـاء والأدبـاء والـرحـالـة والفقهـاء ورجـال التصـوف والتاريخ، فقد زارها:

1 — لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة 776هـ.

2 — كمـا زارها الفقيـه الإمام الحجـة القـاضي أبـو عبد اللـه محمـد بن أحمـد المقرئ التلمساني حيث قال: «وكنت لقيت بتـازة الفقيـه أبـا عبـد اللـه بـن عطيـة، والأستاذ أبا عبد اللـه المجاصي، والأستاذ أبا الحسن الجيار وغيرهم».

3 — ومن الشخصيـات العلمية التـي زارت تازة الشيـخ الإمام العلامة أبـو عبد اللـه محمد بـن إبراهيـم بـن أحمد الأبلـي التلمسـانـي، حيـث التقـى بـابـن بـري

والترجالي، وجرت بينهم مساجلات أدبية...

4 — وزارها الرحالة ابن بطوطة الذي كان على قيد الحياة عام: 770هـ.

5 — والشيخ حسن بن علي بن عمر القسطنطيني المعروف بابن الفكون، وهو من شعراء المغرب الأوسط، له قصيدة شعرية ضمنها رحلته من قسطنطينية إلى مراكش من جملة ما قال فيها:

ولما جئت وجدة هِمْتُ وجدا
بمخنث المعاطف معنوي
وحل رشا الرباط رشارباطي
وتيّمني بطرف بابلي

ويعني الشاعر بالرباط رباط تازة، وكانت المدينة نفسها تدعى رباط تازة، وكثيرا ما تلتبس على الكتاب برباط الفتح الذي تأسس بعدها بعدة قرون.

6 — بالإضافة إلى ابن الحسن الوزان المتوفى بتونس سنة 960 والذي زار تازة في العهد الوطاسي.

هذه نصوص تاريخية ناطقة بمكانة تازة العلمية.

أما إذا رجعنا إلى الإنتاجات الأدبية بما فيها الشعر والنظم فإننا نجد أن تازة وإقليمها أنجبا عددا من الأعلام في هذين الميدانين في مختلف العصور:

1 — فهذا عيسى بن عمران التسولي التازي قاضي الجماعة المتوفى بمراكش 578هـ، وجدت له قصيدة ومقطوعة تبلغان 35 بيتا.

2 — وهذا أحمد بن شعيب الجزنائي التازي المتوفى سنة 749هـ، وجدت له سبع قصائد تبلغ 107 أبياتا.

3 — وكذا إبراهيم التازي الشاعر الصوفي دفين وهران والمتوفى سنة 866هـ وجدت له تسع قصائد يبلغ عدد أبياتها 213 بيتا.

4 — وهذا ابن يجبش التازي الشاعر الصوفي دفين تازة والمتوفى سنة 920هـ، عثرت له لحد الآن 24 قصيدة، يبلغ عدد أبياتها أكثر من 500 بيت.

5 — وهذا أحمد الحبيب اليعقوبي الرشيدي الشاعر الصوفي دفين رشيدة، والمتوفى بها سنة 1243هـ، عثرت له على ثمان قصائد تبلغ 225 بيتا.

6 — وكذا أبو العباس أحمد بن فتوح التازي الشاعر الصوفي الذي كان حيا أواسط القرن الثاني عشر، وله علاقة وثيقة بالزاوية الشرقاوية، عثرت له في الخزانة الحسنية على خمس قصائد تبلغ 240 بيتا.

هذا بالنسبة للشعر أما بالنسبة للنظم، فإننا نجد:

• منظومة في غريب القرآن، ولازالت

طوطة في الخزانة العـامة، تبلغ أبياتها 6 بيتا، وهي من نظـم محمد بن شعيب جاصي، أحد تلامذة ابن بري التازي.

• منظومة أخرى للشيـخ أحمد زروق، توفى بليبيـا سنة 899هـ، تبلغ ستمائة ت فـي بيـان عيـوب النفـس، وطـرق لاجها وهي مخطوطة في خزانة تطوان.

• منظومة ثـالثة للأستاذ أبـي عبد الله مـد بـن منصـور العـامـري التـازي، توفـى بالمشـرق عام 1170هـ، وتبلغ 3 بيتا، يتعلق مـوضوعها ببيان مـراحل طريق التي يقطعهـا الحاج منذ خروجـه ن تـازة إلـى وصـوله للحرمـين شريفين.

• منظومة رابعـة لابـن بري التـازي، مسماة: «الـدرر اللوامع في أصـل مَقْرَأ ـع»، يبلغ عدد أبيـاتها، 274 بيتا وهـي علق بالقراآت وقواعد التجويد.

• نظم على لسان «بهرام» لعلي بن عبد سلام التسولي، شارح تحفة ابن عاصم، غ 31 بيتا.

• وللفقيـه العـلامـة سيـدي محمـد خصاصـي التازي قصيدة شعريـة تبلغ بيتا، يمدح بها أخاه أحمد المتوفى سنة 131هـ.

وتُكَوِّنُ هـذه المجموعـة مـن الشعـر نظـم لحـد الآن أكثر مـن ثـلاثـة آلاف ت...

وبالنسبة للإنتاج الفقهي، فإني قسمته إلى قسمين:

- قسم خاص بالفتاوى الشرعية.
- وقسم خاص بالمؤلفات الفقهية.

فبـالنسبـة للقسم الأول، فإن مـا استطعـت أن أجـرده وأجمعه مـن كتـاب «المعيـار...» وكتـاب «النـوازل» للعلمـي، بالإضـافة إلـى كتاب «النـوازل» المطبوع بـالطباعـة الحجريـة الفاسيـة لمحمد بـن الحسن المجاصي نزيـل مكناس بلغ ثلاثا وستين ومائة فتوى لفقهـاء تازيين، وهذا بقطع النظـر عن النـوازل المخطوطـة في الخزانة الحسنيـة رقم: 12574 والتي تبلغ ست مجلـدات وهي للنوازلـي حامـل لواء المذهب المالكي أبـي الحسن علي بن عبد السلام التسـولي، نزيـل فاس، والمتوفى بها عام 1258هـ، ولم أنقل منها أيَّة فتوى، ولـذا لا أتحـدث في هـذا المقال إلا عـن الفتاوى التي تحت يدي.

وإلى القارئ اسم الفقيه التازي المفتي مع بيان عدد فتاويه:

1 — الفقيه محمد بـن سليمان السطي الأَوْرَبِـي نسبة إلَـى أَوْرَبَة إحدى قبـائل تازة، وكـان مدرسـا بحضرة أبـي الحسن المريني بفـاس، والمتوفى غريقـا بشاطئ تونـس عام 749هـ، وقد وجـدت له فـي كتاب «المعيـار» ثمان فتـاوى في قضـايا مختلفة.

2 — ابن البقال التازي، دفين باب الفتوح بفاس والمتوفى بها عام: 725هـ، وجدت له في «المعيار» 29 جوابا عن 29 سؤالا كان قد وجهها إليه ابن العشاب من مدينة تازة.

3 — أبو مهدي عيسى الترجالي قاضي تازة، وجدت له في «المعيار» 3 فتاوى.

4 — محمد بن عبد المومن التازي، وجدت له في «المعيار» كذلك إحدى عشرة فتوى.

5 — عمر بن عبد الرحمان الجزنائي نسبة إلى جزناية، القبيلة الأمازيغية النازلة شمال مدينة تازة، وكان حيا عام 900هـ، وجدت له في كتاب «النوازل» للفقيه العلمي (الجزء الأول)، فتوى طويلة حول مسألة «الوزيعة» وفتوى أخرى طويلة في «المعيار» (الجزء الأول) حول ما جرى عليه العامة من ستر الموتى بالحرير.

وقد ورد كلام طويل لهذا الفقيه في كتاب «أزهار الرياض» ج 4/ ص: 1183. انتقد فيه بعض الأبيات للقاضي عياض في تشوقه إلى المدينة المنورة؛ إلا أن مؤلف «أزهار الرياض» قال: «إنه وقف لبعض المتأخرين من أهل فاس (ولم يذكر اسمه) على تأليف بديع يتعلق بهذا الموضوع، وقد رد فيه على عمر الجزنائيَ، وسمى مؤلفه: «الإعلام للقريب والنائي في بيان خطأ عمر الجزنائي».

وقد نقل الْمَقَّرِي هذا التأليف الذي استغرق الرد عليه من صفحة: 183 إلى صفحة: 239 من «الأزهار»، وأن هذه المناقشة وقعت في ربيع الأول عام: 908هـ.

6 — الفقيه خَلَف الله بن يحيى المجاصي، نزيل فاس، والمتوفى بها عام: 732هـ، والمجاصي نسبة إلى «مجاصة» إحدى قبائل تازة الواقعة بأهل بودريس، وقد انتسب إليها كثير من الفقهاء والمقرئين، وقد وجدت له في «المعيار» ثلاثة من الفتاوى.

7 — الفقيه النوازلي محمد بن الحسن المجاصي، نزيل مكناس، والمتوفى بها عام: 1103هـ له كتاب «نوازل المجاصي» في جزء يشتمل على 136 صفحة، عدا الكلمة الختامية والفهرس، وعلى 93 فتوى.

وقد وجدت هذه «النوازل» في مكتبة المرحوم العلامة سيدي عبد الله كنون بطنجة وقد قدمها إلي مصورة كمساعدة ثقافية منه نور الله ضريحه.

وقد قرظ هذه الفتاوى عبد المالك التاجموعتي السجلماسي فقال:

«طالعني الأخ في الله العلامة الهمام قاضي الإسلام أبو عبد الله سيدي محمد

الحسن ـ أحسن الله في الدارين، قبة الجميع بالنبي الشفيع ـ بما صدر ـه من الفتاوى في الأحكام الشرعية نوازل الوقتية، وغير ذلك من أماليه في سايا غيرها، ومناحيه التي قلد جيد سره جَيِّدَ دُرِّها:

ى البرايا بحسن الذكر محترما
من كان فتواه توقيعا عن الله
أيت مجموعا جموعا
لكثير من الفوائد والنوادر
كال معك وجبرائيل كلاهما
مدد لنصرك من عزيز قادر

لو بصر به صاحب «الدر النثير» أو سلامة ابن الأثير لابتدرا القسم معا يمين: إنه الحقيق بقوله:

إذا ما راية رُفِعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

ناهيك من جواهر تروق في أصدافها، شباه ونظائر تترجم عن آثار بقايا حجة في أوساط الأرض وأطرافها، يحق عيار أن يغار، ولابن عرفة أن ينظر في رير حد المعرفة، ولابن رشد أن يراجع سه في تحقيق معنى السفه والرشد، بن عاتٍ أن ينشد هذه الأبيات:

دير كَتْبُتُهَا بسواد عين
عزيز كسبها بنفيس عين
. صفرت خزائن لم تحزها
وإن ظفرت بتاج ذي رُعَيْن

فتاوٍ من قضايا الفقه صيغت
تسوق الخصم قهرا دون عون
بما عهد الإمام لتابعيه
ووصى التابعين بها ابن عون
أبا عبد الإله لأنت بحر
وكم للبحر من نهر ومن عين
أعيذك بالمقشقتين مما
تحاذره ومن إلمام عين
مدحتُ ومَدْحى الفتيا بحق
يحط مديح مروان لمعن

هذا، وقد وجدت فتاوى أخرى لهذا الفقيه في كتاب «النوازل» تأليف الشيخ عيسى بن علي الحسنى العلمي (ج 1 و3). بلغ مجموعها أربع عشرة فتوى.

وأما بالنسبة للإنتاج الفقهي، فإننا نجد أن بعض فقهاء تازة وإقليمها خلَّفوا مؤلفات فقهية ما بين مطبوع وهو قليل، ومخطوط وهو أكثر، والذي لازال راقدا في رفوف الخزانات!

وها أنا أشير إلى بعض هذا التراث الفكري الذي خلفه هؤلاء الفقهاء وعلى رأسهم:

1 ـــ الفقيه النوازلي أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي، فبالإضافة إلى نوازله التي لازالت مخطوطة بالخزانة الحسنية ـ ونرجو أن ترى النور في أقرب وقت ـ نجده خلف مؤلفات فقهية وهي:

* «البهجة على شرح التحفة» وهو مطبوع في جزأين.

* شرح أو حاشية على لامية الزقاق، ويوجد هذا الشرح مخطوطا بمكتبة المرحوم العلامة سيدي عبد الله كنون الحسني تحت رقم: 6503.

* تكملة شرح «الشامل» للفقيه بهرام، ويوجد مخطوطا في أربعة أجزاء بخزانة القرويين تحت رقم: 460. وقد أتمه بأمر من مولاي سليمان، فقد شرحه بعض العلماء، ومات قبل إتمامه، وأراد مولاي سليمان إتمامه على منوال صاحبه فقيل للسلطان: هذا هو الذي يتممه على نحو ما أردت، فلما أكمله ورآه السلطان قدس الله ضريحه، أعجبه هذا الصنيع وأحسن إليه.

ورد هذا الكلام في كتاب مخطوط بالخزانة الحسنية، وهو «نزهة الأبصار والاستبصار» للمشرقي حينما تحدث عن ترجمة قصيرة للفقيه التسولي ويحمل المخطوط رقم: 1655. يقول الأستاذ المرحوم العابد الفاسي في الجزء الأول من مخطوطات خزانة القرويين: إن الفقيه التسولي أتم شرح «الشامل» في أربعة أجزاء، وأن المؤلف تعرض في آخره إلى قضية حانوت بسوق السباط حبسها السلطان مولاي سليمان على من يدرس «الشامل» لبهرام، وكان الشارح يتصرف في خراجها مدة، ثم بيعت أيام الفتنة 1236هـ، وقدم الشيخ التسولي لأمير وقْتَه قصيدة تائية في الموضوع، مُنْكِرا بيعها من الوجهة الشرعية، وطالبا رجوعها لأصلها من التحبيس، وعقب القصيدة وثيقة استرعائية بتحبيس الحانوت المذكورة بعام 1248هـ، ثم علامة عدلين. وقد أثبتت هذه القصيدة في بحث قصير تحدثت فيه عن فقهاء تازة الشعراء والناظمين.

* تقييد على قول المختصر، وخَصَّصَتْ نيَّة الحالف، ويوجد مصورا عندي.

* بالإضافة إلى مؤلف آخر وهو: «مناقب وكرامات مولاي العربي بن الشيخ الطيب الوزاني» وهو مخطوط بخزانة القرويين رقم 2436.

* «البسيط» فقد جاء في «مذكرات من التراث المغربي» المجلد الخامس ص: 26 ـ 27 ما يأتي تحت عنوان: «محاولات الإصلاح في بداية القرن العشرين» للكاتب أحمد الكوهن المغيلي:

«كان أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المسمى مديدش قاضيا وأستاذا في القرويين سنة 1242هـ، واهتم هو أيضا بالجهاد وبتنظيم الجيش» وساق أهم ما جاء في كتاب «البسيط» إلا أنه لم يذكر أين يوجد هذا الكتاب؟ وهل هو مطبوع أو مخطوط؟

2 — كما ترك الفقيه أحمد البويعقوبي التازي الشهير بالملوي أحد تلامذة الشيخ الإمام الفقيه سيدي محمد التاودي بنسودة المري — الأندلسي أصلا، الفاسي منشأ ودارا — مؤلفات في الفقه هي:

* «تحفة القُضاة ببعض مسائل الرعاة»، ويوجد هذا الكتاب مخطوطا عندي، كما يوجد مخطوطا بخزانة تطوان رقم 489 ضمن مجموع ص: 61.

* «التحرير بمسائل التصيير».

ويوجد هذا الكتاب مخطوطا عندي، كما يوجد مخطوطا بالخزانة الحسنية رقم: 5171 . وبخزانة تطوان رقم: 105، ومطبوعا طباعة حجرية بمكتبة المرحوم العلامة عبد الله كنون رقم: 6514.

* «مناسك الحج» وهو مخطوط بالخزانة الحسنية رقم: 2/228، وبخزانة تطوان رقم 520.

* «رسالة في الزكاة» وهو مخطوط بخزانة تطوان 520 ضمن مجموع، توفي عام: 1196هـ.

يقول الأستاذ أبو بكر البوخصيبي في كتابه «أضواء على ابن يجبش التازي» ص: 51. «إن أحمد الملوي هذا هو نزيل ضفة وادي ملوية ودفينها فيما بين بركين واوطاط»، إلا أنني وجدت في مخطوط بخزانة تطوان رقم: 520 ضمن مجموع ص: 244 ما يأتي، وقد قرأت ذلك بصعوبة:

«وجه سؤال عن مسألتين بخط الطلبة وجواب عنهما.... بخط شيخنا المرحوم بفضل الله تعالى الفقيه المحقق المدرس المفتي البركة سيدي أحمد الشهير بالملوي البويعقوبي، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته آمين».

«وقبره ـ رحمة الله عليه ـ قرب باب ضريح الإمام العالم البركة الصالح سيدي على بن بري ـ نفع الله به ـ من المقبرة القديمة من مدينة تازة، وبين قبر الفقيه سيدي أحمد المذكور، وباب الروضة المذكورة نحو ذراع» هـ.

ويوجد هذا القبر حقيقة كما ورد في المخطوط السالف الذكر.

3 — ومن فقهاء ناحية تازة الذين تركوا آثارا فقهية الشيخ أحمد زروق البرنوسي الأصل، فقد ترك:

* شرحا على رسالة أبي زيد القيرواني في جزأين كبيرين وهو مطبوع.

* كتابا في الفقه والتصوف.

* وشرحا على المختصر.

* «إفادة الوالدين لبعض مسائل الدين».

ذكر هذه المؤلفات الثلاثة الأخيرة البحاثة المغربي الأستاذ عبد العزيز بن

عبد الله في كتابه القيم: «الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية» ج 3 ص: 90.

4 — الفقيه التازي الرابع هو عبد الله ابن حم، الذي تولى قضاء تازة وناحيتها عام: 1229هـ، ولم يشغله القضاء عن التأليف، بل كان إلى جانبه مؤلفا، حيث ألف في الفقه تأليفا سماه: «القانون المعتبر في تقرير كلام المختصر» وهو يشتمل على جزأين...

5 — ومن علماء وفقهاء القرن الثالث عشر الهجري أبو عبد الله سيدي محمد الخصاصي، الذي كان بارعا في ميدان الفقه والفرائض وعلم الحساب والفلك، وقد ألف تآليف في هذه الفنون منها:

* «العِطْرُ المطيَّبُ في استخراج الأوقات من الرُّبُعِ المَجَيَّب».

* «تحفة الألباب في استخراج الأوقات بعلم الحساب».

* «فتح الأقفال في تصريف الجامعات مع أئمة المثقال».

وقد نظم فيه منظومة قال في مطلعها:

حمدا لمن ورثنا الكتابا
وبين الفروض والحسابا
في قوله سبحانه تعالى
يوصيكم الله على ما قالا

وتشتمل على 37 بيتا.

6 — الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى التازي، ورد ذكره في مخطوط بالخزانة الحسنية رقم: 1/188، جاء في أوله ما يأتي:

«قال الشيخ الفقيه العالم أبو الحسن علي ابن الشيخ الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى، التازي الدار، الأوْرَبي النسب، رحمه الله تعالى، وعفا عنه بمنه وفضله وجوده وكرمه»:

«الحمد لله حق حمده، والصلاة على أفضل خلقه، وعلى آله الطيبين، وبعد»

فهذا كتاب أتعرض فيه لشرح ألفاظ قصيدة أبي الحسن علي بن عطية الونشريسي الأوْرَبي رحمه الله ورضي عنه، وأنبه على جَلِيِّها وخَفِيِّها على حسب ما يعطيه صاحب العطية، ومن الله أسأل المعونة على حصول المراد، وإياه أسأل التوفيق والسداد...».

وفي «درة الحجال» ج 2 ص: 442، أن هذا الفقيه توفي بمكناسة عام: 781هـ.

7 — وتجدر الإشارة هنا إلى المؤلفات التي خلفها الفقيه المقرئ العروضي الفرضي النحوي الأديب أبو الحسن علي بن محمد الشهير بابن بَري، التازي الدار، التسولي النِّجار، والتي تبلغ اثني عشر مؤلفا في علم القراآت والتجويد والفقه والتوثيق والنحو والفرائض والعروض والأدب وهي:

* المنظومة الشهيرة المسماة: «الدرر اللوامع في أصل مَقْرإ الإمام نافع» والتي تشتمل على 274 بيتا وعليها شروح عديدة، أكثرها مخطوط.

* تأليف في القراءة.

* واختصر الشريسي على المقامات.

* والقانون في رواية ورش وقالون.

* وتأليف في الوثائق.

* ذكر هذه المؤلفات الأربعة الأخيرة الوزير الإسحاقي في رحلته الحجازية المخطوطة بخزانة القرويين رقم 1258 ص: 29 حينما تحدث عن زيارته لتازة، ولأوليائها الصالحين.

* «الكافي في علم العروض والقوافي»

* «اقتطاف الزهر واجتناء الثمر» اختصر فيه «زُهر الآداب» للحُصرَي القيرواني. ويوجد هذا المؤلف مصورا في حوزتي.

* اختصر شرح الإيضاح في النحو لأبي الربيع السبتي.

* شرح وثائق الغرناطي.

* شرح عروض ابن السقاط.

يقول ابن القاضي في شرحه «الفجر الساطع...» على «الدرر اللوامع» لابن بري: إنه رأى لابن بري شرح عروض ابن السقاط، كما قال في نفس الشرح، وبلغني أنه ابتدأ وضع:

* شرح على تهذيب البراذعي، وفي شرح آخر للدرر، إلا أنه لم يكمله.

* شرح قصيدة في الفرائض، ويوجد هذا الشرح مخطوطا في الخزانة الحمزاوية بالجنوب المغربي، ذكر هذا الأستاذ البحاثة السيد محمد المنوني في مجلة «تطوان» عدد: 8 سنة 1963، حينما تحدث عن ذخائر الخزانة الحمزاوية.

هذه نظرة إجمالية عما خلفه بعض أعلام تازة من آثار فكرية في مجال الفقه والقراءة والشعر والنظم والفتاوى، دون التعرض لما خلفه متصوفتها من إنتاج في ميدان التصوف، ذلك الإنتاج المتفرق في مختلف الخزانات المغربية الخاصة والعامة.

وهذه النصوص التي عرضناها تدل على مكانة تازة العلمية، وهي غنية عن كل تعليق.

تازة ـ محمد بن أحمد الأمراني

رحلة أبي المطرف ابن عميرة البحرية إلى حضرة بجاية

للأستاذ إدريس العلوي البلغيثي

سخر الله سبحانه وتعالى - بديع السماوات والأرض - البحر لخلقه ليركبوه وينتفعوا به في مآرب أخرى، وقد استهوى ركوبه الإنسان منذ فجر التاريخ، حيث احتفظت لنا كثير من الآثار المكتوبة والمرسومة بهذه الظاهرة العجيبة، وفي شتى المجالات: التجارية والحربية وأشهرها على الإطلاق رحلة الإيمان لسيدنا نوح عليه السلام مع الفئة المؤمنة من قومه المتعنتين والضالين المضلين، والتي كانت حدا فاصلا بين الإيمان الثابت والراسخ، والكفر الواهي والمنهار، حيث ظهرت فيها معجزة السماء في السفينة التي أوحى الله سبحانه إلى نبيه نوح عليه السلام، وكان نجارا ماهرا، أن يصنعها، وكانت مثار سخرية قومه العند،

إنها السفينة التي تجري وترسو بسم لله، وتمخر عباب بحر خضم، أمواجه عاتية متلاطمة، تشبه الأعلام التي تطاول أعنان السماء بكواهلها. وقد صور القرآن الكريم هذه الرحلة الإيمانية في مشهد رائع ورائق، يعجز التصوير الفني عن رسم لوحاته، وتعجز السينما الحديثة عن تشخيصه وإخراجه. ومن متجليات صورة هذه الرحلة الحية والمثيرة معا، قوله تعالى في محكم كتابه: ﴿**وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، وهي تجري بهم في موج كالجبال**﴾.(1)

إنها رحلة النجاة من أهوال الطوفان الذي سلطه الله سبحانه وتعالى على القوم الفاسقين، فأحال اليابسة إلى بحر،

(1) سورة هود، الآيات: 41 - 42.

تزج ماؤه العذب الفرات بماء البحر الملح أجاج، وجرف معه كل الأدران والأدناس. النجاة من مخاوف البحر العاتي الذي رتفع أمواجه إلى أعلى عليين، مما يحسر ها الطرف ويكل، ويدهش لها الرائي يذهل. ولكنها إرادة رب العالمين متحكمة في ملكوت السماوات والأرض، لم تتعرض السفينة لخطر هذا الموج عظيم، ولم يصب أحد من راكبيها بسوء ثناء هذه الرحلة المحفوفة بالأخطار المحدقة بالمخاوف، لأن المدبر الحكيم ان يحيطها بعنايته، ويشملها برعايته.

وما أظن — والظن يحمل على الشك — ن سفينة حديثة، تستطيع أن تواجه موجا الجبال في الارتفاع والهيجان، ثم تخرج نه سالمة.

وإن ما صورته لنا بعض القصص كتب التاريخ من رحلات بحرية، مثل حلات السندباد والفتية المغررين لتمثل نصر المخاطرة، فهي في الأغلب من نسج الخيال، يعمد فيها الكتاب إلى عنصري الفجوات والمفاجآت.

ويزخر التراث العربي والإسلامي بالرحلات البحرية بمختلف أنواعها، ويحتفظ لنا الشعر العربي في العصر الجاهلي الأخير بنماذج شعرية رفيعة، يصف فيها الشعراء البحر وركوبه في معرض وصفهم للظعن والرواحل في أعماق الصحاري، أمثال عبيد بن الأبرص، والمثقب العبدي، والمرقش الأكبر، وغيرهم ممن تعاقبوا على تشبيه الظعن بالسفن، وأجادوا فيها أيما إجادة.

ويعد طرفة بن العبد من أكبر الشعراء الجاهليين براعة ودقة في وصف السفين وحركاته العجيبة في البحر، من خلال صورة الظعن، المتجلية في الأبيات التالية:(2)

كأن حُدُوجَ المالكيـة غُـدوةً

خلايا سفين بالنواصف من دَدِ(3)

) من معلقته المشهورة التي مطلعها:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

لمعلقات السبع، الزوزني، ص: 51 ـ 52)

) الحدوج: ج حدج، وهو مركب من مراكب النساء. والمالكية: منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضُبيعَة؛ وهي قبيلة من كلب، والخلايا: ج خلية، وهي السفينة العظيمة. والنواصف: ج ناصفة، وهي الرحبة الواسعة في الوادي، ودد: موضع.

لمعنى: كأن مراكب هذه المالكية غدوة فراقها بنواحي دد سفن عظيمة. فشبه الإبل وعليها الهوادج بالسفن العظام.

عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدي(4)

يشق حَبابَ الماء حيزومُها بها
كما قسم الترب المفايل باليد(5)

وليس وكدي من هذه المقدمة التأريخ لركوب البحر، وما صاحبه من مغامرات ومفاجآت، فذاك مجاله التاريخ، وهو مما يحتاج إلى وقت طويل، ولكن وكدي هو توكيد أصالة هذه الظاهرة في تاريخ شعوب الأرض، وفي تراثها الأدبي والحضاري.

ومن أهم الرحلات البحرية الرائعة التي احتفظ بها لنا التراث الأدبي في الغرب الإسلامي في عصر الموحدين، رحلة أبي المطرف ابن عميرة(6) من بلاد المغرب إلى الجزائر، انطلاقا من مدينة سبتة.(7)

وقد أجاد وأبدع في وصف مراحل هذه الرحلة المشوقة في دقة متناهية وفنية رائقة، مضفيا عليها من أحاسيسه وعواطفه ما جعلها تتميز بالحيوية والجمال.

ويصور في مستهلها الأهوال التي تجشمها ورفاقه، مثيرا تخوف المتتبع وتشوقه في آن واحد، ومتفننا في أسلوبها بيانيا وبديعيا: «وحملت الجواري(8) من أطارته الأشواق، وكان البحر قد خبأ طوفانه،(9) وأعد رجفانه،(10) حتى إذا وارى عنا جانب البر، أبدى لنا ناجذي الشر، فأرسل كراديس(11) موجه،

---

(4) عدولية: منسوبة إلى قبيلة بالبحرين اشتهرت بسفنها. ابن يامن: ملاح من أهل هجر. يجور: يميل. طورا: تارة. والمعنى: هذه السفن التي تشبهها الإبل من هذه القبيلة، يجريها الملاح مرة على استواء واهتداء، وتارة يعدل بها فيميلها على سنن الاستواء، اختصارا للمسافة.

(5) حباب الماء: طرائقه. والحيزوم: الصدر. والمفايل: الذي يلعب لعبة الصبيان الأعراب. يقال لها الفيال والمفايلة؛ وهي تراب يكومونه، أو رمل، ثم يخبؤون فيه خبيئا، ثم يشق المفايل تلك الكومة بيده فيقسمها قسمين، ثم يقول في أي الجانبين خبأت؟ فإن أصاب ظفر، وإن أخطأ قمر.
والمعنى : إن شق السفن الماء يشبه شق المقابل التراب المجموع بيده.

(6) هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي، ولد بجزيرة شقر (Jucar) سنة 582هـ وتوفي بتونس سنة 658هـ. انظر: «أبو المطرف ابن عميرة» للدكتور محمد بن شريفة.

(7) توجد في مجموع رسائله بالخزانة العامة بالرباط، رقمه: ك 232.

(8) الجواري، ج الجارية: السفينة.

(9) الطوفان: الماء الغالب يغشى كل شيء.

(10) الرَّجَفان بفتحتين: الاضطراب الشديد.

(11) كراديس، ج كردوسة بضم الكاف: طائفة عظيمة من الخيل.

وأطار الأغربة(12) من حضيضه(13) إلى أوجه،(14) وجاشت(15) مع المساء غواربه،(16) وتلاقت مع غياهب(17) الليل غياهبه، فلا غراب إلا وقد لقيه بكل فتك، وضغمه(18) بين فك وفك، وناشبه(19) القتال وقد بز(20) أسلحته، وسامه(21) الطيران بعدما حص(22) أجنحته».

ويصف استئناف الرحلة في مرحلتها الأولى، والتي انتهت بهم إلى المرسى الأول بعد أن فعلت الرياح بهم أفاعيلها: «ثم إنا رحلنا والريح تدفعنا بالراح، وتجاذبنا عنان الاقتراح، إلا أنا دابرناها وكابدناها، وجاهرناها وجاهدناها، ونحن نرجو حدوث الدفاع ودفع الحوادث، حتى بلغنا مرسى وهران(23) في يومين وبعض الثالث».

وقبل وصولهم إلى هذا المرسى باتوا ليلتهم بموضع قريب منه، ويصف أبو المطرف ذلك وصفا حيا يعتمد على أساليب البيان ومحسنات البديع، وبالأخص السجع الذي تفنن في حروف رويّه، متبعا فيه طريقة المزاوجة والتوازن: «وكنا نزلنا أقرب منزل إليه والأصيل(24) قد رق ثوبه، وسال فوق أديم الماء ذوبه، وبتنا والليل ساج،(25) والبحر كأنه لا عهد له بارتجاج.(26) وفي نصف الليل أرسل الله الغمام قطعا مبثوتة، وعمائم في رؤوس الجبال ملوثة(27) وما راعنا إلا التئام تفاريقها،(28) وانسجام أفاريقها، فما

(12) الأغربة: ج: غراب.
(13) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل، ومعناه هنا: أسفل.
(14) أوجه: عكس الحضيض، أي: أعلى.
(15) جاشت: هاجت.
(16) غواربه: أعالي موجه.
(17) غياهب: ج غيهب: ظلمة.
(18) ضغمه: عضه بملء فمه.
(19) ناشبه: نابذه وجاهره.
(20) بزَّ: غلب.
(21) سامه: كلفه.
(22) حص: قطع.
(23) وهران: تقع في أقصى شمال غرب الجزائر.
(24) الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب.
(25) ساج: ساكن.
(26) ارتجاج: هيجان.
(27) ملوثة: ملفوفة.
(28) تفاريق الغمام: ما تفرق من أجزائها.

رأينا كتلك الليلة برقا أخطف للعيون، ولا رعدا أقصف للمتون».

وزرع هذا الجو الرهيب الهلع في نفوس السفر، وقض مضاجعهم، وجعلهم يفكرون في الانتقال إلى موضع آخر أكثر أمنا من أخطار الرياح الهوجاء: «ولم يكن بُدٌّ من التحول عن منزل جاره يفرق، ووجاره يطرق، وبعد لأي ما وصلنا وهران، وقد سئمت أغربتنا من هذا المرسى فكان أعز وكورها».

وأجاد أبو المطرف في وصف المرسى الذي حطوا به الرحال، وكان خير ملاذ لهم من سَوْرَةِ البحر: «مرسى لا تخدش(29) صفحته صَكَّةُ(30) الهبوب، ولا تصيب جنابه معرة(31) الصَّبا(32) والجنوب».

ويواصلون الرحلة بعد أن سكنت الريح الهوجاء، وسكنت معها نفوسهم من الفزع الذي دب فيها، وأصبحوا أكثر تفاؤلا في تخطي المرحلة الثانية من هذه الرحلة البحرية الملأى بالمفاجآت: «وبعد خمس رحلنا وذاك يوم الخميس أول جمادى الآخرة وثاني أكتوبر والريح التي فعلت بنا الأفاعيل، وأرسلت علينا طيرها الأبابيل،(33) قد عقلت(34) من المسير ركابها، وسدت في وجه المستثير بابها، وحينئذ جدت المجاذيف(35) وشق ذلك التكليف، حتى وصلنا مرسى عرفوه بني زيان(36)».

وما كادت تمضي ليلة على وصولهم إلى هذا المرسى حتى اكفهر الجو، وعاد إلى سيرته الأولى، فجرت بهم الرياح بما لم تشته سفنهم، إلى أن رست بهم في محطة أخرى سالمين، ومنهكين من وعثاء السفر ومعاناتهم للأهوال. وقد صور الكاتب هذا المشهد في أسلوب بديع يعتمد على التحليل النفسي: «وقد استطلنا ذلك الزمان، وأصبتنا فيه من الليل سماء قلنا عندها اللهم بطون المجارى، لا ظهور الجواري، وجاء النهار ووجهه مكفهر، وريحه فيها صر.(37) فأقمنا هناك يومين إقامة مستثقلة، ثم أرسلنا من ركائبنا نعما

---

(29) تخدش: تخمش.

(30) صكة: لطمة.

(31) معرة: عيب.

(32) الصَّبا: ريح مهبها جهة الشرق ويقابلها الدبور.

(33) الأبابيل: الفرق، وهي جمع لا واحد له، و«طير أبابيل» متتابعة متجمعة.

(34) عقلت: منعت.

(35) المجاذيف: ج: مجذاف: خشبة طويلة مبسوطة في أحد الطرفين تسير بها القوارب.

(36) بنو زيان: لعله أرزيو الذي يلي مرسى وهران.

(37) الصِّرُّ: بالكسر بَرْدٌ يضرب النبات والحرث.

معقلة. وبكرنا يوم الأحد مشرقين، ولعين الحزم مؤرقين، ومن هول الأثباج فرقين،(38) وفي تلك الفجاج(39) متفرقين، ثم إنا استوهنا الريح، وتمنينا يأسها المريح، وتمادى ذلك حتى أفضى جريها إلى الانقطاع، ولم نجد لها نبضا في ذراع الشراع، فاستكفينا من المجاذيف كل كاف واف، وأجلنا العمل منها على قوادم(40) وخواف،(41) حتى بلغنا مرسى يعرف بجوج،(42) خيره أقل من إناء ممجوج، والمقيم به أذل من وتد مشجوج(43)».

ولم يكن لهم مناص من التعجيل بمغادرة هذا المرسى في جنح الظلام، مغتنمين فرصة سكون الريح وهدوئها، راجين النجاة بأنفسهم، ومارين بموضعين دون العوج إليهما: «ثم سرنا عنه مدلجين،(44) وفي ذلك الجون(45) البعيد المدى ملججين،(46) والريح الغربية تزجينا،(47) وعادة الله الجميلة بالسلامة تَعِدُنَا وترجينا، فطوينا تنسا(48) بعد وادي شلف،(49) ومررنا عليهما مرور غير ذي مقة(50) ولا كلف(51)».

ويصف أبو المطرف تغير الريح من جديد، وما اعترى نفوسهم من غبطة وانشراح برغم غلظتها: «وفي أثناء ذلك انتقلت الريح إلى أخرى فرجوا بها، واستبشروا بهبوبها، وسموها باسم هو عندنا يدل على ريح نجدية(52) النوع، ندية الضوع،(53) فأبدلت في هذه البلاد من الرقة غلظة».

ويباغت الموج السفينة من كل جهة، وتنتاب السفر الوجل، ويستولي اليأس

---

(38) فرِقين: فزعين.

(39) الفجاج: ج فج: بالفتح: الطريق الواسع بين الجبلين.

(40) القوادم: الريشات التي في مقدم الجناح، وهي كبار الريش. وقادم الرحل: خلاف آخره.

(41) والخوافي: صغار الريش، وهي تحت القوادم.

(42) جوج: مرسى مغمور.

(43) مشجوج: مكسور.

(44) مدلجين: سائرين في الليل.

(45) الجون: الليل الأسود.

(46) ملججين: راكبين اللجة، وهي معظم الماء.

(47) تزجينا: تسوقنا.

(48) تنسا: هي تنس (Ténès) حاليا، وتقع بني شرشل شرقا ومستغانم غربا على وادي شلف.

(49) وادي شلف: يصب قرب مستغانم شرقا.

(50) مقة: محبة.

(51) كلف: مولع.

(52) نجدية: نسبة إلى نجد بالحجاز.

(53) الضوع: انتشار الرائحة.

علـى مجـامـع نفـوسـهـم، ويصبحـون كالريشة في مهب الـريح؛ ويصور الكاتب هذا المشهـد المثير في لـوحة فنيـة رائعة تفيض بالحيوية والحركة: «وما زالت علينا مُلِحّة، وبنـا ملظة،(54) حتى جاءنـا الموج مـن كـل مكـان، وحـار كـل ذي شـراع وسكان،(55) وما زلنا فـي صعود وهبوط، ورجاء لا شـيء أشبه منـه بقنوط، حتـى دخلنا شرشال،(56) بعد أن لم يبـق مفرق إلا شـاب ولا راجح إلا شـال،(57) فوجدنا طـلا يقبض عنـه الخطـا، ومـرسى مثـل أفحوص(58) القطا.(59) وكان أصحابنـا إلى آخـر يعـرف بـالبطـال، وجـدوه أفسـح عطنا،(60) وأصلح للدخول والخروج وطنا».

وانتقل الـرَّحْلُ إلى الجزائر، حيـث لقوا بهـا مـن التـرحاب والحفـاوة مـا جعلهـم ينسـون مـا قـاسـوه مـن أهـوال البحـر ومتاعبـه: «ومن هنـاك كان الانتقـال إلى الجزائر.(61) وقال المـزور مرحبا بالـزاير، فوجدنـا بلدا كبلاد، وجددنا مـا صلح من زاد، وبتنـا هنـاك والليل غيـم مـزرور(62) جيبه، وفود(63) بطيء شيبه».

وتابعـوا الرحلة بعـد ذلك فـي ظروف حسنة؛ حيـث الجو معتدل، والبحـر هادئ إلـى أن وضعـوا عصـا التسيـار بمحطـة جديدة: «وسرنا غدوة الأربعاء وللريح في سـوقنا لطافـة، ولكـلاءة(64) اللـه بنـا إطافة.(65) ثم إن سورتها(66) لانت وفترتها بـانت، فجمعنـا بينهـا وبيـن المجاذيـف، وحسن الاتفاق مـن ذلك التأليف، وسـرنا حتى نزلنا من تدلس(67) بمرساها الفسيح، وأخذنا بها عقبة(68) المستريح».

---

(54) ملظة: ملازمة.

(55) السكان: ذنب السفينة.

(56) شرشال: (cherchel)، تقع غرب الجزائر (العاصمة).

(57) شال: ارتفع.

(58) الأفحوص، ج أفاحيص: الموضع الذي تفحص القطاة التراب عنه لتبيض فيه.

(59) القطا، ج قطاة: طائر في حجم الحمام.

(60) العطن، ج أعطان: مَبَارِكُ الإبل على الماء، ومرابض الغنم أيضا.

(61) الجزائر: (العاصمة) تقع بين دلس شرقا، وشرشل غربا على واد إيسر.

(62) مزرور: مشدود الأزرار.

(63) فود، ج أفواد: جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام.

(64) كلاءة: بالكسر والمد: الحفظ.

(65) إطافة: أكثر طوافا.

(66) سَوْرَتُهَا: شدتها.

(67) تدلس: هي دلس (Dellys)، تقع غرب العاصمة.

(68) غقبة، من الغبوق: الشرب بالعشي.

وبدأت علامات التغير تبين في الأفق،
ـادت الريح إلى الهبوب، وملأ الخوف
ـس الرّحل. وقد أجاد الكاتب في تصوير
ـذا المشهد بأسلوب فني رائق: «ومع
ـباح كان البرق في خطواته وميض،(69)
بعض إنذاراته تعريض، فوجب التلوم
تبراء(70) لتلك المخيلة، وطلبا للبرء بكل
يمكن من الحيلة، وهبت أثناء ذلك ريح
ـرقية زعموا أن هذا المرسى لفحلها
ـروقه، ومن لفحها فروقه، فتعوذنا بالله
عتوها،(71) واستكفيناه الخطر في
ـاحها وغدوها، وأقمنا هنالك ليلة الأحد».

وما كادت السماء تصحو، والقمر يلوح
ـشع أنواره في الكون، والرياح تهدأ
ـرتها، حتى أزمعوا على استئناف الرحلة
منتصف الليل، وكلهم أمل في أن
ـخطوا هذه المرحلة الصعبة التي ستفضي
ـم إلى نهاية المطاف. ويصف الكاتب ذلك
ـصفا حيا تبرز فيه نزعته الطبيعية: «ولما
مضى من الليل نصفه، وبدا من الصحو صْرِفُه،(72) سرينا وعِيسُنا(73) تنفخ في بُراها(74) الريح، وليلتنا يروق من قمرها وجهه الصبيح(75)».

ولم يدم الجو على حاله، هادئا مستقرا، بل سرعان ما تغير، وتسبب في تخوف الركب، ولجوئهم إلى التوقف عن الرحلة ائتمانا على حياتهم من أخطار الرياح الهوجاء التي فوجئوا بها في النهاية. ويصور الكاتب أبو المطرف هذا المشهد المثير تصويرا فنيا رائعا: «ثم رأينا الهواء تنكر، وبتقلبه المعهود ذكّر، فمشى القوم معه على العادة، وسرنا نتنسم أرواح اليمن والسعادة، حتى وجبت التقية، حين تمكنت الشرقية، فأقبلوا يزفون(76) إلى أزفّون، ويخَفّون لدفع ما يتخوفون، وقدرنا سكونها فزادت، وأردنا تعديل أعطاف(77) الجواري فمادت،(78) فأقمنا هنالك بقية يومنا وبعض ليلتنا».

---

6) وميض: لمعان خفي لم يعترض في نواحي الغيم.
7) الاستبراء: طلب الإبراء.
7) عُتُوُّهَا: شدتها.
7) صرفه: خالصه.
7) العيس: الواحد: أعيس، والواحدة عيساء: الإبل البيض، ويقصد بها السفن.
7) البرة: الحلقة التي تجعل في أنف الناقة.
7) الصبيح: الجميل، من الصباحة: الجمال.
7) يزفون: يسرعون.
7) أعطاف، ج عطف: جوانب.
7) مادت: زاغت.

ويشاء القدر أن يُنْهُوا الرحلة في جنح الظلام، بعد أن أسعفتهم الريح، ونامت عينها عن سفينتهم، فجَدُّوا في الرحلة، وتجدَّد بذلك أملهم، وغمر نفوسهم الفرح لوصولهم إلى المحطة الأخيرة، معقد أملهم. ويصف الكاتب خاتمة هذه الرحلة: «ثم سرينا والريح مساعدة في أكثر الطريق، والبحر لابس لبستي العدو والصديق، حتى أدت بنا أثباجه(79) وديعة فلكها، وبلغتنا من بجاية(80) حضرة ملكها، فاجتلينا غرة السُّعود، ولثمنا يمين البأس والجود».

هذه هي مراحل الرحلة البحرية الشيقة التي وصفها الكاتب المبدع أبو المطرف ابن عميرة، وهي في الأصل رسالة كتبها إلى الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي زكرياء الحفصي، والي بجاية من قبل أبيه. وتنطوي على قيم هامة أهمها، القيمة الأدبية، وتتجلى في فن الترسيل الذي بلغ أوج ازدهاره في عصر الموحدين؛ حيث برز في ميدانه كبار الفرسان، ومنهم كاتبنا ابن عميرة الذي نال قصب السبق في العديد من موضوعاته. وخصوصا الوصف الذي أجاد فيه وأبدع، وأتى بما لم يأت به نظراؤه من الوصافين. ومن أبرز مظاهر إبداعه في هذا النموذج اتخاذه الرحلة موضوعا للرسالة، وهو تداخل فني يمثل جانب الازدواجية في الموضوع، ويكشف عن نزوع الكاتب إلى التجديد في فن الترسيل.

وإن ائتلاف فنين متباينين، لكل منهما خصوصياته وخصائصه، في وحدة فنية متكاملة، ليس بالعمل السهل ولا الهين، بل يحتاج إلى مقدرة فائقة وتمرس كبير في الكتابة، لا يصدر إلا عن فنان مبدع صاحب موهبة فذة وملكات علمية وأدبية متميزة في ميدان النثر الفني.

وللرحلة قيمة جغرافية تنحصر في تعداد الكاتب لأهم المدن الساحلية الجزائرية في هذا العصر، وما تمتاز به مراسيها، التي مرت بها سفينتهم، من إمكانات الاستقبال لمختلف السفن العابرة لبلاد إفريقية والمتجهة صوب بلاد المشرق.

ويحدثنا التاريخ عن أنواع كثيرة من الرحلات البحرية مما كانت تقوم به الأساطيل المغربية إلى بلاد الأندلس شمالا، وبلاد شمال إفريقية شرقا وغيرها من البلاد المنضوية تحت لواء الإمبراطورية الموحدية العظمى أو المتاخمة لها.

ويذكر لنا في هذا الصدد استنجاد السلطان صلاح الدين الأيوبي بالأسطول

---

(79) أثباجه: أمواجه العالية.

(80) بجاية: تقع في شمال شرق الجزائر بين جيجل شرقا ودلس غربا على وادي حمام. وكانت تابعة في هذا العهد للإمارة الحفصية بتونس.

الحربي للموحدين ضد الصليبيين لتحرير بيت المقدس من رجسهم، وكان يضرب به المثل في شدة البأس وقوة البطش وإحكام السيطرة على سواحل المتوسط والأطسي.

وقد ازدهرت الرحلات البحرية في هذا العصر، وخصوصا التجارية والسياحية منها، وكانت عاملا مساعدا في توطيد أواصر الاتصال بدول العالم العربي الإسلامي والأجنبي.

وبإمكان المتتبع لرحلة أبي المطرف أن يرسم خريطة جغرافية للمدن الساحلية التي مرت بها سفينته أو رست، انطلاقا من مدينة سبتة ووصولا إلى حضرة بجاية.

أما القيمة التاريخية فتتلخص في الظروف العامة التي كانت تسود المغرب غداة مغادرة الكاتب للمغرب، والتي تتسم باضطراب الأوضاع السياسية في عهد الخليفة السعيد،(81) بسبب تَصَدُّع كيان الامبراطورية الموحدية، وظهور أمر بني مرين، وتمكنهم عسكريا من بسط نفوذهم على جميع بوادي المغرب.(82)

وتصادف هذه الظروف العصيبة دخول الأمير أبي بكر ابن عبد الحق(83) مدينة مكناسة، التي كان أبو المطرف قد كتب بيعة سكانها إلى أبي زكرياء الحفصي بعد أن أعلنوا انفصالهم عن الدولة الأم، وكان يشغل بها حينئذ خطة القضاء.

وقد عانى الكاتب الأمرين من جراء هذه الاضطرابات، حيث قلبت له ظهر المجن، وبخّرت آماله في الجاه والسلطان، وأصبح منشغلا بالتفكير في شد الرحلة إلى إفريقية حيث أمله الوحيد والأخير، الأمير المستنصر الذي تلقب بأمير المؤمنين بعد أن أرسى دعائم الإمارة الحفصية،(85) التي حلت محل الموحدين إثر عملية الانفصال عن دولتهم.

ويشاء القدر أن تضيع مع آمال أبي المطرف في المغرب خزانته العلمية أثناء تنقله من مكناسة إلى سبتة، وكانت تحتوي على أعلاق التصانيف والأسفار مما كان يعتمد عليها كثيرا في دراساته وأبحاثه.

---

(81) هو أمير المؤمنين علي بن إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، يكنى أبا الحسن، ويلقب السعيد، والمعتضد، ويسمى بالمعتصم بالله. خلافته: (640هـ / 1242 ـ 646هـ / 1248).

(82) القرطاس، لابن أبي زرع، ص: 256.

(83) هو الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة الزناتي المريني، إمارته: (642هـ / 1244 ـ 656هـ / 1258).

(84) البيان المغرب (قسم الموحدين) لابن عذاري المراكشي، ص: 373 ـ 376.

(85) ظهرت بالبلاد التونسية، أسسها أبو زكرياء يحيى الحفصي الهنتاتي، وكان واليا عليها من قبل الموحدين، وقد دامت 347 سنة (634هـ / 1237 ـ 981هـ / 1573).

وقـد ظل الكـاتب أسير هـذا الحادث المروع يعاني من آلامه بقية حيـاته، برغم ما كان يمنى به نفسه، من حين لآخر، من أمل العثور على كتبه الضائعة.

وتعكس الـرحلـة اضطـرابـات الكـاتب النفسية، وكأنها أمواج البحـر العاتية التي كـانت تنتاب السفينـة، وتلتطم بجوانبهـا. ولعل هذا التلوين النفسي للـرحلة هو الذي جعلهـا تتميـز فنيـا عن كثير من نتـاجـه الأدبي الـرفيع، وبـالأخـص فن الترسيل الذي لمع نجمه في سمائه.

وتظهر من مـوقع القيم السالفة الـذكر لهذه الـرحلـة الممتعة والطـريفـة، القيمـة التراثيـة التي تتمثل في هـذا اللون الجديـد من الإبداع الأدبي، الذي جادت قريحة أحد أسـاطين الكتابـة في عصر الموحدين ومنـذ أزيد من سبعـة قرون ونصف. وهـو أثر جليل قمين بالدراسة والتحليل للحفاظ على مقومـات أمتنا الفكريـة، وترسيخ أصـالة حضارتها العـربية والإسـلامية وفي أزهى العصور الذهبية.

مكناس - إدريس العلوي البلغيثي



إنّا تعبّأنا النُصرةَ وحدةً

للشاعر محمد البلغمي

رجع أخي.. وأصـغ إلى صـوت النـدا — واكسر قيـــــــــودك.. لا تكـن مترددا!
رجع إلى الـوطن الـذي بـربـوعـه — عشت الطفــولـة والصبــا والمولـدا
رجع فقـد أعطيت أعظـم فـرصـة — كي تستريـح من العنــاء وتسعــدا
رضيت بـــــالإذلال بين مخيم — وقبلـت أن تقضي الحيــــاة مشردا؟
ـــا عـز من جــافى وأنكـر أهلـه — أو فـــاز مـن تبـع الهوى.. وتمردا
رجع.. فلـن تلقى كأرضك مـوطنـا — جمع البطــولـة والسماحــة والهدى
بـدا.. ولـن تلقى كعـاهلنـا الـذي — حــاز المكــارم كلهـا والســؤددا!
لك إذا فخـــر الملـوك بتـــاجهم — فبـه العلى تـزهـو ويفتخـرالفـدا
سنـع المسيرة للســـــلام فحققت — للشعب وحـــدتـه، ونـــال المقصـدا!
ــالفكـر أبـدع سرهــا.. واختطهـا — ليفـك من ذل الإســـــار مقيــــدا
الـلـــه تـوج بـالنجـاح جهـوده — فغـدا الشمال مع الجنـوب مـوحـدا!
الشعـب أعــــرب عن عميـق ولائه — للعـــرش.. وانتهج السبيـل الأرشــدا
اختــار وحــدتــه وعـرش بـلاده — طـوعا.. ولم يـرض الخضوع إلى العـدا!
سحــراؤنـــا أضحت بعهـــده جنـة — طـــاب المقـام بها وراقـت مشهــدا
ي مهـد نهضتنــا ومـوطـن عـزنـا — وتـــرابها بـــالنفس منـــا يفتـــدى!
ن المسيرة خطـــــة حسنيــــــة — ستظل فتحـــا في الـــزمـان مخلــدا
ست وعشر للسنين قـــــد انطـــوت — وصمـــودنـــا فى الحق زاد تشـــددا

تالله لو طلب المليك مسيرة — أخرى.. لسارع شعبه متجندا!
ياأيها الحسن المعظم قدره — عشت الإمام لنا ودمت المرشدا!
إنا تعبأنا لنصرة وحدة — لبلادنا روحا وفكرا أو يدا
من «طنجة» وإلى «الكويرة» شعبنا — سيهب أجمعه لتلبية الندا
ويقول للدنيا «نعم» ويعيدها — حتى يقر حقوقنا ويؤكدا!
ويرد كيد الحاسدين بنحرهم — فالحق حصحص والضلال تبددا
والنصر آت لا محالة يومه — وطريقه بالسلم عاد ممهدا!
إني لألمحه يضيء ربوعنا — كالصبح من بعد الظلام إذا بدا
وأراك يامولاي تعلنه لنا — والشعب يفرح بالبشائر منشدا
وأرى السلام يسود أرجاء الحمى — ويظل باسمك ثابتا وموطدا!
فاسلم لشعبك يامفدى.. ولتدم — بالذكر مرفوع الجناب مؤيدا
وليبق عرشك البلاد الإهنا — وبعينه يرعى الأمير محمدا
ويحيط مولاي الرشيد بحفظه — ما حن طير للغصون وغردا!

فاس ـ محمد البلغمي

مع المؤرخ السباعي في مخطوطه

البستان الجامع

للأستاذ عبد القادر زمامة
الأستاذ المحاضر بكلية الآداب بفاس

كانت نهضة الشعور الوطني في المغرب الأقصى أواخر القرن الثالث عشر الهجري وأوائل القرن الذي بعده، نهضة بادية المعالم والأعلام، تستمد قوتها وفعاليتها من الأحداث التي كانت تمر بالبلاد، والمواقف الصعبة التي أملتها ظروف داخلية وخارجية، أيقظت المشاعر، وحركت السواكن...!

لهذا يجد الباحث المتعمق نَفْسَهُ - عند التتبع والاستقراء - أمام أنماط وأصناف وأساليب متنوعة من الكتب والرسائل، والاتجاهات والمشارب والاهتمامات، تبدو للمتأمل وكأنها انعكاسات على مرآة الحياة العامة بالمغرب، يشع منها ما كان يشغل بال العدد الكبير من رجال المعرفة والثقافة والسياسة والرأي، وهم يواجهون ما يهدد البلاد، ويقلق راحتها، ويشككها في مقوماتها: الحضارية والسياسية والاقتصادية والتاريخية، بأساليب شتى، ومن جهات شتى...!

ولنتصور أنفسنا أمام مواهب وأقلام مغربية، وشخصيات استوعبت معارف عصرها، وثقافة بيئتها، وتراكم في أذهانها ذلك الرصيد الحضاري، ترفعه رافعة... وتخفضه خافضة.

ولنتصور ما دب إلى البلاد من تطلعات ومكايد، وتدخلات ومضايقات، كلها تذكي الشعور الوطني على مختلف المستويات، وتوجه عناصر التفكير وأساليب التعبير لربط حلقات التاريخ: ماضيا وحاضرا ومستقبلا حتى لا يسدل الظلام ستائره على الماضي الذي سيتجدد... وينبعث... لا محالة...!

ولقد سبق لهذا القلم أن درس هذه الحقبة من تاريخ نهضة الشعور الوطني في المغرب الأقصى أواخر القرن الثالث

عشر الهجري، وأوائل القرن الذي بعده... من خلال مخطوطتين تاريخيتين هما:

* **الحلل البهية:** للمؤرخ محمد المشرفي المتوفى سنة 1334هـ/1915م.

* **والمفاخر العلية:** للمؤرخ عبد السلام العمراني المتوفى سنة 1332هـ/1914م.

واليوم يأتي دور مخطوطة ثالثة من المؤلفات في هذا الموضوع التاريخي. وهي مخطوطة:

* **البستان الجامع لكل نوع حسن:** للمؤرخ محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي المتوفى سنة 1332هـ/1914م.

فهؤلاء المؤلفون الثلاثة: المشرفي والعمراني والسباعي، وهذه المخطوطات الثلاث: (الحلل البهية) و(المفاخر العلية) و(البستان الجامع)، إنما هي حلقات من سلسلة طويلة من المؤلفين والمؤلفات، رَسَمَتْ بأساليب وأنماط متنوعة من التفكير والتعبير، لوحاتٍ من الشعور الوطني المغربي، والبلاد على أبواب نهضة شاملة على عهد السلطان الحسن الأول رحمه الله...

وحديثنا عن مخطوطة: (البستان الجامع) يتناول جانبين أساسيين:

— جانب المؤلف السباعي...

— وجانب الكتاب المخطوط...

فالمؤلف محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي عَلَم هير من أعلام عصره، وثقافته العلمية، وميزته الخلقية، ومكانته الاجتماعية في الأوساط العلمية وغيرها لمدة طويلة...!

ولقد لفت أنظار معاصريه بمحاضراته ودروسه وفتاويه الفقهية ولسانه الحاد، وقلمه السيال، وصراحته المثالية في نقد الانحرافات في السلوك والعلم والتدبير، وانتهاك الحرمات: والتهاون في حقوق المستضعفين من جهة بعض الولاة والموظفين، كما لفت أنظار طلبة العلوم المختلفة لتبحره واتساع دائرة معارفه، فلازموه أينما حل وارتحل، حضرا وسفرا. ولا سيما في مراكش وفاس، وكان من المعتاد والطبيعي أن تجر عليه صراحته وَحِدَّتُهُ كثيرا من الانتقادات والمتاعب والمكايد، وأن يصل ذلك إلى علم رجال السلطة والنفوذ مع تجسيم يبعثهم على إيقاف نشاطه، والانتقام منه بوسائل معروفة...! منها الحبس..! ومنها الإبعاد..! ومنها تلفيق التهم..!

ومن حسن حظ هذا العالم الجليل أن التدابير التي تكرر اتخاذها في حقه من جهة بعض الولاة والموظفين من أجل انتقاد تصرفاتهم. لم تكن لتصرفه عن خطته، أو لتنال من قيمته العلمية ومكانته الاجتماعية عند خاصة الناس وعامتهم...! بل إنها على العكس من ذلك زادته تقديرا وتكريما، وسعة في الشهرة والجاه...!

كما أن من حسن حظه أن يكون من

من دروســـه العلميـة، وراقبـوا سيرتـه الذاتية، وربطوا سند معلوماتهم ومعارفهم به، عالمان كبيران ومؤلفان شهيران هما:

— العباس بن إبراهيم، المراكشي.

— وعبد الحفيظ الفاسي..

فالقاضي العبـاس بن إبـراهيم، استفـاد منه كثيرا، وكتب له ترجمة حافلة بشيوخه في مـراكش وفـاس، ومعـارفه الـواسعـة، وشخصيتـه القويـة، وتقاليـده ورسائلـه وفتـاويـه ومـؤلفـاتـه التي من جملتهـا: (كشف الستـور في حقيقـة كفر أصحـاب باسبـور)، وقد شغلت هـذه الترجمة عدة صفحـات من كتابـه التاريخي: (الإعـلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام).(1)

والقاضي عبد الحفيـظ الفاسي كـان أيام دراسته واشتغالـه بعلوم الرواية حـريصا كل الحرص على الاجتماع بالشيـخ محمد بن إبـراهيم السبـاعي في كل مـن فـاس ومراكش، والاستفادة من معارفه ورواياته وأسـانيده وإفـاداتـه وإمـلاءاته... ولقـد استجازه فأجازه على الطـريقة المعهودة في ذلك العصر، واعتز بهذه الإجازة...!

كل ذلك تحدث به القـاضي عبد الحفيظ الفـاسي أثناء الترجمة المفيـدة التي كتبهـا الشيخ السبـاعي، والتي أخـذت صفحـات من كتـابه المفيد: (معجم الشيـوخ المسمى رياض الجنة...!)(2)

وهكـذا تتجلى لنـا شخصيـة الشيخ السبـاعي المراكشي شخصية ذات أبعـاد في العلم والرواية، والشهرة والأخلاق، والتأثير الاجتماعي في الحيـاة المغـربيـة، وتحمل المتاعب والمضايقات من أجل الجهر بالحق، وانتقاد الانحرافات المتنوعة...!

ولعلَّ هـذا كان كافيـا ليحظى بمنـزلة سامية عند السلطان المولى الحسن الأول... ويتجلى ذلك واضحا في قصة رواها تلميذه المؤرخ العبـاس بن إبراهيم أثنـاء الترجمة التي كتبها له في كتـاب: «الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعـلام» والتي أشرنا إليها سابقا.

كما أن هـذه الحظــوة هي التي جعلت السلطان المذكـور ـ كما يقـول المراكشي في كتاب: «الإعلام» ـــ يامره على يـد الـوزير الشهير أبي الحسن علي المسفيوي بكتـابة التـــاريخ المسمى: (البستـــان الجامع لكل نوع حسن...)، الذي نتحدث عن مضامينه ومـادتـه التاريخيـة، التي جمعهـا الشيخ السباعي ونسقهـا بأسلوبـه الخاص، بعد أن تحدثنـا عن بعض الملامح من ترجمتـه التي احتفظ بها كل من صاحب: «الإعلام» وصاحب: «رياض الجنة».

تقع مخطـوطة: «البستـان الجامع لكل نـوع حسن وفن مستحسن في عـدِّ بعض مآثر السلطان مـولانا الحسن» فيما يقرب من ستين ومـــائة ورقـــة مـن الحجم

(1) انظر الجزء السابع ص: 190. وانظر تقريظ السباعي لكتاب «إظهار الكمال» في «الإعلام» ج 1 ص: 56.

(2) انظر الجزء الأول ص: 55.

المتوسط، وتوجد منها عدة نسخ، منها نسخة الخزانة الحسنية رقم 12432 بالرباط،والتي بها خط المؤلف السباعي..!

ومن أجل أن نعرف سبب التأليف، ينبغي أن نطلع على ما جاء في هذه المخطوطة من رسالة مؤرخة بتاسع جمادى الثانية سنة 1306هـ بعثها الوزير علي المسفيوي إلى المؤلف، يامره فيها بقوله مخاطبا إياه:

«أن تشرع في تأليف مصنف يكون محتويا على جميع سيرته، وتتبع فيها الوقائع الصادرة في ظعَنِهِ وإقامته من أول خلافته..ولا تتعرض فيه، لوضع أحد ولا لتنقيصه بما ليس فيه. وتقتصر على ما هو الأليق بالمقام. وتجتنب ما كان خارجا على سياق الانسجام...!»(3)

ونحن نعلم مسبقا أن المؤرخ عبد السلام العمراني الجائي كان قد ألف كتابه: «المفاخر العلية» سنة 1305هـ، ورفعه إلى مقام السلطان المولى الحسن الأول، وهو كتاب تاريخي، بفصوله الأخيرة معلومات متسعة عن دولة هذا السلطان، وما تم فيها من منجزات، وما قام به من أعمال شَرَّقَ ذكرها وغرَّب، مع اهتمام بالحياة العلمية والثقافية وذكر أعلامها ومعالمها، مما يفيد المؤرخ الباحث كثيرا...

فكتاب السباعي جاء بعد كتاب العمراني كما لا يخفى، والمؤلف جعل تصميما لكتابه، وقسمه إلى أربعة أقسام، سمى كل قسم كتابا...!

فالكتابان الأولان خصصهما المؤلف للعهد الذي كان فيه الحسن الأول وليا للعهد، يقوم بمسؤوليات جسيمة في الأقاليم المغربية الجنوبية وأحوازها، وينوب عن والده في فض النزاعات، وحل المعضلات، والمحافظة على النظام، ونشر الطمأنينة، وربط الصلة بين القبائل والسلطة المركزية، وقد قام بذلك أحسن قيام.

ومن الطريف أن المؤلف السباعي يعبِّر عن هذا العهد باسم الخلافة الصغرى، ويستعمل تعبيره هذا في القسمين الأولين من كتابه هذا، ويقصد بذلك ولاية العهد...!

كما أنه يعبر عن العهد الثاني الذي تربع فيه على عرش المغرب باسم الخلافة العظمى، ويستعمل تعبيره هذا في القسمين الأخيرين من كتابه هذا، ويقصد بذلك العهد الذي تحمل فيه أعباء الملك، ومسؤولية الحكم...!

ونلاحظ في القسمين الأولين من المخطوطة أن بهما معلومات تاريخية وجغرافية واجتماعية، كان السباعي على صلة بها، لكونه يعرف المناطق المغربية الجنوبية معرفة واسعة، ويعرف تركيبها البشري والطبيعي والاجتماعي، وما هي في حاجة إليه، كما نلاحظ أن بهما أشياء

تتعلق بأعمال السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، وسيرته، ومعالم سياسته، وما جابهه من قضايا وأحداث، ذكر المؤلف الشيء الكثير منها...

وابتداء من القسم الثالث، نجد السباعي يدخل في تسجيل الأحداث بطريقة جزئية، متتبعا الترتيبات الزمانية والمكانية، والمعالم والشخصيات، مع نفس متميز في العرض والتعليق والتعقيب...!

ونقف قليلا عند ما سجله من أحداث وغمرات تتعلق بواقعة (بني مجيلد)، وما وصل في شأنها من كتاب سلطاني إلى قاضيي مراكش: الحاج علي الرجراجي(4) والسيد أبي بكر بناني(5)، شارحا البدايات والنهايات، والوسائل والغايات..

فالمؤلف اطلع على هذا الكتاب، وعلق على مضمونه تعليقا يدل على أنه كان يتابع أحداث عصره، ويعرف أبعادها ومراميها بحماس وشعور وطني...!

وأفادنا المؤلف السباعي بعد تعليقه على الواقعة، وما جادت به قرائح الشعراء في شأنها، ـ وكان من ضمنهم المؤلف السباعي ـ أنه كتب بنفسه «تقريرا» في الموضوع، ورفعه إلى مقام السلطان فاستحسنه وأقر أن تكتب منه عدة نسخ، وتزخرف بالذهب، وأمر وزيره المسفيوي أن يكاتب المؤلف ليشرع في كتابة هذا التاريخ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل...!

كما نقف قليلا عند ما سجله من أحداث وقضايا تتعلق بحادثة الأمين (بنيس)، والفتنة التي قام بها بعض المحترفين بفاس المعروفة، وبفتنة الدباغة، والتي دامت عدة شهور..!

وقد كتب عن هذه الحادثة عدد من المؤرخين ممن عاصروها وعرفوا أسبابها ونتائجها...! إلا أن المؤرخ السباعي في مخطوطته هاته أفادنا بتفصيلات وتدقيقات غريبة ومفيدة، كما أنه ذكر بصراحة شخصيات كانت تؤيد العاملين على إثارة هذه الفتنة، وما تعرضوا له بعد طي صفحتها من مؤاخذات، الشيء الذي مر عليه المؤرخون مرَّ الكرام...!

والحقيقة، أن القسمين الأخيرين من هذه المخطوطة سِجلٌ حافل بالأحداث والوقائع والحركات في جهات متعددة من المغرب، مع اهتمام واضح بالأعلام الجغرافية والقبلية والبشرية، والمسالك والطرق والأنهار، وما إلى ذلك...

كما أنها سجل حافل بما قام به السلطان المرحوم المولى الحسن الأول من أعمال جليلة في جل جهات المغرب...! منذ ولايته للعهد إلى أن ودع هذه الحياة سنة 1311هـ.

ويأتي بعد ذلك الجانب الاجتماعي والعمراني الذي يتخلل هذين القسمين.

---

(4) انظر ترجمته في «الأعلام»: ج 9 ص: 265.

(5) المصدر السابق ج: 1 ص: 222.

فالمؤلف على دراية تامة بالعادات والتقاليد التي كانت سائدة بين القبائل، والحساسيات التي كانت تثيرها بعض التصرفات، والتدابير السياسية والاجتماعية التي كانت تعالج بها سرا وعلنا...!

كما أنه على دراية تامة بما يسود المدن المغربية من أنظمة، وترتيبات حضارية، تشمل الاستقبالات والأفراح، والحفلات، والمواسم والأعياد، والتكافل الاجتماعي، والارتباط بالمشاعر الدينية والوطنية والعائلية، والحياة العلمية والثقافية...!

وفي المجال العمراني، يسجل المؤرخ السباعي منشآت السلطان الحسن الأول رحمه الله في طول البلاد وعرضها، ويشمل ذلك المنشآت العسكرية والدينية والعلمية والإحسانية، كل ذلك مع استيعاب وتحقيق، وتفهم للمقاصد النبيلة، والمرامي الحسنة...!

ولعل مؤرخنا هذا كان يستمد معلوماته المدققة أو بعضها من شخصيات مخزنية سامية كانت ترافق الركب السلطاني في تنقلاته عبر المغرب، زيادة على معلوماته الشخصية التي ينميها باستمرار سماعا ومشاهدة واطلاعا...

كل هذا نتحدث به عن مضامين المخطوطة، والمادة التاريخية المتنوعة المفيدة التي تقدمها لنا...

أما من ناحية الشكل والأسلوب، فالمؤرخ السباعي يملك ناحية اللغة، كما أنه يحفظ من الأشعار والأمثال والقصص والنكت البيانية الشيء الكثير، ويأبى إلا أن يستعمل ذلك مع أسلوب فيه خصائص الصنعة والتصنيع.

ويفرط أحيانا في الزخرفة اللفظية التي كانت ـ في نظره ـ ميزة فحول الأدباء ونوابغ الكتاب..!

وهذا ما يجعلنا أحيانا أمام غموض فيما يقصده المؤرخ، والتواء في أسلوبه المثقل بالتصنيع والمحسنات البديعية...!

ومع ذلك، فإن هذه المخطوطة التي عرضنا بعض مضامينها، لوحة معبرة عن جوانب من نهضة الشعور الوطني في المغرب أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

فاس ـ عبد القادر زمامة

لمحة مضيئة حول

نشأة الدولة الإدريسية بالمغرب

للأستاذ علال البوزيدي

تمهيد واستهلال :

ليس من قبيل المجاملة إذا قيل بأن الفكر المغربي فكر أصيل مستمد أصالته من أصالة تاريخ المغرب، وهذه حقيقة لا تحتاج أن يقرها مقرر، أو أن يكتب حولها كاتب؛ ذلك لكونها حقيقة ناطقة عن المفاخر والأمجاد المتجسدة في المواقف التاريخية والرصيد الحضاري والتراث الوطني والمقومات الأساسية للشخصية المغربية الفذة.

من ماضي المغرب المجيد

- مراحل تأسيس الدولة الإدريسية.
- الوتيرة التاريخية.
- وقائع ـ أحداث ـ مواقف.
- وفاة إدريس الأول.
- إدريس الأب وإدريس الإبن.

تفيد بعض المصادر التاريخية أن الجدول البياني التاريخي بلائحة الملوك الأدارسة هو كما يلي:

• المولى إدريس بن عبد الله (الأكبر)	788 ـ 792
• إدريس الثاني بن إدريس الأزهر	803 ـ 829
• محمد بن إدريس	829 ـ 836
• علي بن محمد بن إدريس (حيدرة)	836 ـ 848
• يحيى بن محمد (يحيى الأول)	848 ـ 859
• يحيى الثاني	859 ـ 866

• علي بن عمر	880 _ 866
• يحيى المقدام (يحيى الثالث)	904 _ 880
• يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس	921_904
• الحسن بن محمد بن القاسم الحراق	927 _ 925
• القاسم كنون بن محمد بن القاسم	948 _ 937
• أبو عيش أحمد بن القاسم كنون	954 _ 948
• الحسن بن القاسم كنون	974 _ 954

إدريس الأول

نشأة الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى، وقيامها بما قامت به من منجزات حضارية، ومواقف تاريخية، مسألة تقتضي بالأساس تعميق البحث، والاستناد إلى مصادر تاريخية جادة انفردت بحقائق معلومة؛ غير أن المهم في تصوري المتواضع هو الحديث عن الجانب القيادي وعن النسب، وكذا الكيفية التي انتشر بها في بلاد المغرب، ومن خلال ذلك، أَخْلُصَ إلى التذكير بحقيقة تاريخة معروفة تفيد أن من الشرفاء الأدارسة الذين تمكنوا من الهرب بعد أن جار عليهم أبناء عمومتهم بنو العباس هو المولى إدريس الأول رضي الله عنه.

نسبه

هو إدريسُ بنُ عبدِ الله الكاملِ، بنِ الحسَنِ المثنّى، بنِ الحسَنِ السِّبْطِ، بْنِ علي وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

مبايعته وتوليه الحكم

جاء في بعض النصوص التاريخية أن المولى إدريس الأول عندما كان في طريقه إلى بلاد المغرب الأقصى مر بتلمسان، وتوقف بطنجة التي كان من الممكن أن يجعل منها مقرا له، ربما لموقعها الجغرافي أو لغير ذلك، لكن شاءت إرادة الله ـ ولإرادة الله ما تشاء ـ أن يصل إلى زرهون التي كان سلطانا عليها عبد الحميد بن مصعب الأَوْرَبِي، وكانت الخلافة له على البربر، غير أن هذا الأخير تنازل عن الحكم للمولى إدريس الأول، وعقد له البيعة، وتولى مهمة وزير في العهد الإدريسي الأول، وتزوج مولانا إدريس ابنة وزيره عبد الحميد كنزة الأَوْرَبية التي حملت منه بخَلَفِهِ الأصغرِ المولى إدريس الثاني(*)

(*) انظر كتاب الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية لمؤلفه محمد بن علي السنوسي الإدريسي.

المولى إدريس الأول جعل المغرب قوة
افسة للمشرق وعزز ارتباطه بدار
الخلافة الإسلامية.

يلذ لي أن أستقي بعض المعلومات التي
ها أساسية وذات علاقة بصميم هذا
حث من كتاب قيم أصدرته الجمعية
غربية للتضامن الإسلامي بعنوان: الإمام
ريس مؤسس الدولة المغربية، تضمن
ذا الكتاب الذي تولى شرح فكرة إصداره
ستاذ عبد الرحيم بن سلامة. أقول:

تضمن أربعة عروض ودراسات قيمة
احثين وأساتذة، لهم الباع الطويل في
جالات الثقافة والفكر والبحث العلمي،
ما قدمه مؤرخ المملكة الأستاذ عبد
وهاب بن منصور بكلمة شرح فيها
دَّوْرَ الهام الذي قام به الإمام الفاتح
ولانا إدريس وقال على الخصوص.

فأنشأ بالمغرب مُلْكاً لاَحِبَ الأطرافِ،
تيع الأكناف، يمتد من المحيط الأطلنطي
وادي شلف بقلب المغرب الأوسط، ولو
ال أمد حكمه، ولم يمد إليه خصومه يد
غدر، لبلغت دعوته، وشمل حكمه الشرق
الغرب، إلى أن قال:

إن الإمام إدريس يأتي في طليعة
عظماء الذين يعتز بهم المغرب ويفاخر
يباهي، وأعماله الموفقة على قِصَرِ مدة
لكه، تشهد له بما أسدى من أيادٍ بيضٍ
ما فعل من خير لشعبه.

واستنادا إلى بعض ما جاء في عرض وتلخيص للكتاب المشار إليه،قام به السيد مصطفى الزراعي، ونشر له بالملحق الأسبوعي لجريدة الأنباء بتاريخ 29/30 يناير 1989. ركز فيه على الدراسات الأربعة وتتصدرها:

دراسة للمرحوم علال الفاسي بعنوان: المولى إدريس الأكبر. والدراسة عبارة عن تقديم لوثيقة تاريخية تحتوي على برنامج إسلامي بَنَّاءٍ، جدير بأن يمثل ما كان عليه الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، الأمر الذي يفيد ويوضح أن ثورته هو ووالده عبد الله الكامل وإخوته، وخاصة محمد بن عبد الله،لم تكن للمُلْكِ ولا للسلطة فحسب، ولكن قامت لمواصلة الدعوة النبوية.

وجاء كذلك في هذه الدراسة عدة أفكار ومواقف تُسَلِط الضوء على السيرة الجهادية للإمام الفاتح، كانت دعوته بالمجادلة الحسنة والحكمة والموعظة، مما جعل المغاربة يلتفون حوله، ومما مكنه من اتخاذ مواقف كبيرة، متحديا ما كانت عليه الدولة العباسية والخوارج من قوة.

أما الدراسة الثانية فهي للأستاذ الكبير الدكتور عبد الهادي التازي، عالج فيها موضوع: «إدريس الأكبر فاتح المغرب»، وحلل فيها الكيفية التي استطاع بها إدريس الأول أن يؤسس في المغرب

الأقصى نَوَاةَ لِأولِ دولة مستقلة، حتى ندرك مدى التخوف الذي كان سيساور العباسيين من أمر إفلاته أولا، ثم من أمر نجاحه في التفاف الناس حوله.

خمس سنوات فقط استطاع فيها هذا اللاجىء السياسي أن ينجح بمساعدة السكان في إنشاء دولة مستقلة عن المشرق، تأخذ طريقها إلى مصر. وجاء في فقرة أخرى من هذه الدراسة أن الإمام إدريس الأول كان قد بعث برسالة إلى أهل مصر، يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت، ويصف فيها التضحيات الغالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعي، ويطالبهم بتأييده ومساندته. لقد اقتنع الخليفة هارون الرشيد بأن الأدارسة لا يفكرون في فصل المغرب عن دار الخلافة الإسلامية والاكتفاء بزعامته، وإنما كانوا يخططون لتوحيد الخلافة كلها تحت قيادتهم.

ومن بعض ما جاء في الدراسة الثالثة للأستاذ محمد المنوني بعنوان: «الإمام إدريس الأول من خلال سيرته وأهداف دعوته»، ذكر بأن إدريس الأول يعتبر المؤسس لأول دولة إسلامية بالمغرب، فيحدد ميادينها في رسالته التي خاطب بها الأمازيغيين المغاربة، وهو يعزز هذه الدعوة بالعمل لتحقيقها، فيجاهد ضد الديانات والنحل المنحرفة، وفي جانب آخر من هذه الدراسة، استدل الباحث بما سجله عبد الرحمان بن خلدون، وهو يتحدث عن المغرب الإدريسي: مجامع ما كان في نواحيه من بقايا الملل والأديان، وبتحقيق هذا المكسب الإسلامي، حيث التف حول الدولة المغربية الإسلامية الأمازيغيون، فصار إدريس الأكبر يفكر في تحقيق مخطط دعوته، امتدادا نحو إفريقية، ثم مصر كبداية لتوحيد العالم الإسلامي.

وفي الدراسة الرابعة بعنوان: «الإمام إدريس» التي كتبها المرحوم العلامة عبد الله كنون، أقتطف منها ما يلي:

وقصة لجوء إدريس الأول إلى المغرب، لعلها من إيحاء مولاه راشد المغربي الأصل الذي لم ير لسيره أنجى من أن يبعد في غرب البلاد الإسلامية، حيث يأمن على نفسه، ويحتمل أن يجد المنعة والنصرة، فحل بمدينة وَلِيلِي سنة 172 هجرية، ونزل على إسحاق بن محمد ابن عبد الحميد زعيم أَوْرَبَة من قبائل المغرب التي يقال إنها من قبلية راشد مولى إدريس، فهذه خُطة مُحْكَمَة، دبرها المولى المخلص، لنجاة سيده، والقيام بأمره.

ولم يلبث ابن عبد الحميد أن جمع عشيرته من أروبة، وعرفهم بنسب إدريس وقرابته من النبي ﷺ، وقرر لهم فضله ودينه وعلمه، واجتماع خصال الخير فيه، ودعاهم إلى بيعته فبايعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة 4 رمضان المعظم سنة 172هـ،

انت أَوْرَبَة يومئذ من أعظم قبائل المغرب
كثرها عددا، فقامت بدعوة إدريس،
عت غيرها من القبائل المغربية إلى
رته، والدخول في طاعته، فاستجابت له
ر القبائل، فقويت جموعه، وتمكن
طانه،فجيش الجيوش وخرج غازيا
رب في الأرض طولا وعرضا، ويملك
ها ما بقي غير خاضع له.

والاستنتاج الذي ينتهي إليه من اطلع
هذه الدراسات الأربعة، يتضح له جليا
ا تلتقي رباعيا حول محاور متشابهة،
عالج بنسق أسلوبي تاريخي مواقف
شابهة كذلك، عرفتها حياة إدريس الأول
ذ البداية، أي منذ انطلاق مبادرته
تمثلة في الإفلات من قبضة ذلك التدبير
جهنمي، الذي كان يدبر له من طرف
باسيين، كما أن طريقه نحو المغرب
نت حافة بالمخاطر، لكن بإحكام الخطة،
قوة الإيمان، وسداد الرأي والتفكير،
ح وحقق مبتغاه، وكانت بُغْيَتُهُ خيرا
ملا صالحا،وقد عبر عن ذلك ـ رحمه
ه ـ في مواقف عديدة، وخطب كثيرة، إذ
يكن مهتما فقط في جهاده بتوحيد
لاد، ونشر دعوة الإسلام وترسيخ
يمان في النفوس والقلوب. وما يمكن أن
ساف إلى ما تعرضت له الدراسات
ربعة المشار إليها، جاء بعضه في كتاب
نيس المطرب روض القرطاس، في سبب
إتيان مولانا إدريس للمغرب لمؤلفه أبي الحسن ابن أبي زرع.

ففي هذا الكتاب عالج المؤلف عدة أحداث ومواقف تتصل بأطوار حياة مولانا إدريس الأول قبل لجوئه إلى المغرب، وخلال تأسيسه ورئاسته للدولة الإدريسية الأولى التي لم تستمر قيادته لها طويلا لكن كان ـ رحمه الله ـ قد وضع الأسس، وعزز النشأة بزرع روح المحبة والطاعة في نفوس الأمة لآل البيت النبوي، وركز الإيمان القوي بالعقيدة الإسلامية السمحة . وتجليات ذلك تبرز في الولاء والوفاء اللذَيْنِ أظهرهما الشعب في رعاية نجله الأصغر إدريس الثاني حتى وهو جنين في بطن أمه.

وهذا الولاء، وهذا الوفاء، هو من شيم وأخلاقيات وأصالة المغاربة لعرشهم المغربي العتيد، وتعلقهم دائما بدينهم الإسلام، ونبيهم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

مختصر ظروف وفاة إدريس الأول رحمه الله

أجمعت المصادر التاريخية،إلا القلة القليلة منها،على أن إدريس الأول قضى في الحكم خمس سنوات وبضعة أشهر فقط، غير أنه بتوفيق من الله، حقق خلال هذا الظرف الوجيز أعمالا كبيرة، وقطع

خطوات ثابتة في تأسيس الدولة الإدريسية، وتركيز دعائمها بالمغرب، بل تجاوزت مساعيه وجهوده هذا النطاق إلى فتح تلمسان وإفريقيا، وكانت دعوته ستكتسح مصر.

غير أن مكر خصومه ظل يلاحقه، بل تضاعف مكرهم ضده، واشتعلت في نفوسهم نار الغيظ والحقد عليه بعد أن اشتهرت مواقفه الهادفة إلى نشر الدعوة المحمدية، وامتدادها بزعامته، فدبرت له مؤامرة دنيئة، ومحاولة مبيّتة من أجل اغتياله، واختير لتنفيذ هذه الفعلة النكراء أحد الماكرين، ليتولى قتله بطريقة الاحتيال والمكر والدهاء.

وخلاصة ذلك، أن هارون الرشيد أثار عليه أحد مستشاريه، بإرسال عنصر معروف بالمكر والخديعة وحَبْكِ الدسائس والمؤمرات لقتل الإمام إدريس، وهذا العنصر الشرير الخبيث اسمه سليمان بن جرير، الذي خرج من بغداد يَجِدُّ السير نحو المغرب، مدعيا كذبا وبهتانا أنه متبرئ من الدعوة العباسية، مظهرا الولاء والمحبة للإمام إدريس الأول.

وعند وصوله إلى المغرب، اتصل بمولانا إدريس بمدينة وليلي، وعندما سأله مولانا إدريس عن اسمه وأصله صرح كذِبا وزورا أنه موفَد من قبل أبيه لخدمة آل البيت النبوي بدافع من المحبة والولاء لأهل بيت الرسول ﷺ، فأَنِسَ به إدريس، وسُرَّ لقدومه، وأكرمه، وأحسن إليه، لكن كما يقول المثل: «اتَّقِ شر من أحسنت إليه» فبدأ هذا العميل يتحين الفرصة لقتل مولانا إدريس، إلى أن جاء يوم دخل عليه، فوجده وحده، فجلس بين يديه، فانتهز الفرصة وقال: ياسيدي، جُعِلْتُ فِدَاكَ، إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها، ثم إني لما رأيت هذه البلاد ليس فيها طيب، رأيت أن الإمام أولى بها، فخذها، فقد آثرتُكَ على نفسي، وهي بعض ما يجب لك عليَّ، ثم أخرجها من وعاء، فوضعها بين يديه، فشكره إدريس، ثم أخذ القارورة ففتحها وشمها، فحصل بذلك مراد العميل المخادع جرير، وتحققت حيلته، وبعد أن سقط الإمام مَغْشيا عليه، غادر الماكر الجناب الإدريسي، وركِبَ جوادا من أحسن الجياد، وفر هاربا باتجاه بغداد، حيث إن القارورة كانت مسمومة، فلما استنشق مولانا إدريس صعِد السم إلى دماغه، وعلى إثرها كانت وفاته رحمه الله يوم الفاتح من شهر ربيع الثاني سنة سبع وسبعين ومائة للهجرة. (177هـ)

وباختصار، حاولت الإشارة إلى ظروف وفاة إدريس الأول، مع أن هناك أقوالا كثيرة ذات الصلة بظروف وفاته رحمه الله. وبالفعل، فإنه ليس من النوازل العادية وفاة شخصية عظيمة لها مكانة

رزة في التاريخ كشخصية المولى إدريس، كانت وفاته صاعقة وخسارة كبيرة، ركت حزنا في النفوس، وأسفا شديدا في قلوب والمشاعر، غير أن الشعب عبر عن ك عندما وضع التاج على بطن زوجته سيدة الأَوْرَبِيَةِ، وظل الكل ينتظر الخلف حقق الله أماني الشعب المغربي الوفي خلص المتفاني في التعلق والمحبة لأهل بيت النبوي الشريف، حيث جاء المولود كَرا، فسمي باسم أبيه إدريس الثاني.

ومجمل القول أن المغاربة بهذا ؤكدون عبر التاريخ تمسكهم بروح الوفاء الولاء للقيادة الرشيدة، والعقيدة لإسلامية السمحة.

إدريس الأب، وإدريس الإبن، واستمرارية التاريخ المجيد

عندما يتحدث المتحدثون، سواء منهم لأقدمون أو الأحدثون عن تاريخ الدولة لإدريسية في عهد إدريس الأول المؤسِس، الأب، أو عهدِ إدريس البّاني الثاني الإبنِ، كأنهم يؤرخون لشيء لا يتجزأ، الحقيقةُ كذلك، إذ الرسالة واحدة، هي مواصلة نشر الدعوة وتعزيز مكانة لإسلام في بلاد المغرب وإفريقيا، وبناء لعة من قلاع الإسلام بالديار المغربية، هذه القلعة التي ظلت شامخة عبر أطوار لتاريخ، بل ازدادت - والحمد لله - شموخا في ظلال العرش المغربي العتيد، ودلائل ذلك واضحة للعيان، وما ثلة للبيان، وذلك أن مغرب الأجيال والأصالة واكَبَ خلال مسيرته التاريخية أمجادا تليدة ومفاخر، شهدت بها الركبان، ونطق بها اللسان عبر الزمان والمكان، بل تواصلت حلقات البناء والتجديد للمغرب السعيد، جيلا بعد جيل، منذ إدريس الأول إلى الحسن الثاني.

وخلاصة القول: أن من الأهداف الكبرى التي حققها الإمام إدريس الأول خلال المدة القصيرة التي قضاها على رأس الدولة هي أنه أقر النظام، وقضى على كثير من النزعات المخالفة لروح وتعاليم الإسلام، حتى أمكنه أن يضع أساس وحدة المغرب السياسية والدينية تحت سلطة مركزية مباشرة، وقد امتد نفوذه من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط، فاستولى على تلمسان، حيث ترك هناك مسجدا مشيدا سنة 175 هجرية، فكانت عاصمة حكمه مدينة وليلي إلى أن توفي مسموما ودفن بزرهون، حيث يوجد ضريحه المنور الذي تقام به الأيام والليالي الدينية، وهو قبلة للزوار والوافدين عليه من مختلف الأنحاء للزيارة والتبرك، تكريما واحتراما لآل البيت النبوي الشريف الذين قال فيهم الشاعر:

يا أهلَ بيت رسول الله، حبّكم
فرضٌ من الله في القرآن أنزله

يكفيكم مـن عظيـم المجـدِ أنـكم
من لم يُصَل عليكم لا صلاةَ له

وهـذا التماسك والارتبـاط، ظل يشكـل الـوشـائج والتلاحـم والتجـاوب فيما بين القـائد والأمة، وهـذا مـا يميز الشخصيـة المغـربيــة بمميـزات لها جــذور وأبعـاد تاريخية وحضارية.

وأقف عنـد هذا الحد، تاركا مـوضوع الحقبة الثـانية في حكـم الدولـة الإدريسية لمن أرخـوا لها، وتتبعـوا مسيراتها.

ولله الامر من قبل ومن بعد.

سلا ـ علال البوزيدي

إشارة وتوجيه

يسر مجلة دعوة الحق، أن تغتنم هذه الفرصة لتعبر عـن تقديرها لكافة الكتاب الـذين يوافونها بأبحاثهـم القيمة، تجاوبا مع الدعـوة التي وجهتها لهم هذه المجلة على صفحاتها.

وإنها لتهيب بهم عند إرسال مقالاتهم أن تكون إما مكتوبة بخط واضح، أو مضروبـة على الآلـة الكـاتبـة، وذلك مـن أجل تسهيل عمليـة الطبع على المطبعة، وعملية التصحيح على المكلفين بـه، حتى يصدر المقال أو البحث في الصورة التي يـريدهـا صاحبـه، خاليـا من الأخطاء التي قـد تغيـر المعنى والمضمون، والتي تعمل المجلة جاهدة على تلافيها، وعدم الوقوع فيها.

كما ترجو المجلة من السادة الأساتذة المحترمين مراجعة أبحاثهم مراجعة دقيقة قبل إرسـالها، للتأكد من سلامتها، وصـولا إلى الرؤية التي نتوخـاها جميعا من صدورها في صورتها اللائقة والمشرفة.

وشكرا.

نداء
من العلماء المشاركين في الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية إلى إخوانهم سكان الأقاليم الصحراوية

في غمرة الاهتمام الكبير الذي تعيشه أمتنا المغربية من شمال المملكة إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، لتأكيد مغربية صحرائنا المسترجعة، بقيادة رائد الأمة الملهم، وقائدها المظفر، مبدع المسيرة الخضراء ومحرر الصحراء أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

وشعورا من العلماء بمسؤوليتهم الدينية والوطنية، وبما يجب عليهم من النصح والإخلاص، والوفاء لله ولوطنهم وملكهم وعرشه العلوي المجيد، والالتزام بالطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر في الإسلام، وبوحدة الصف وجمع الكلمة والتمسك بالبيعة الشرعية التي جاء بها ديننا الإسلامي الحنيف، والتي قال فيها ربنا العظيم:

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه فسنوتيه أجرا عظيما﴾.

يسر مجلة دعوة الحق أن تنشر على صفحات هذا العدد نص النداء الأخوي الذي وجهه السادة العلماء المشاركون في أشغال الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية في دورتها الثانية المنعقدة بالدار البيضاء أيام 8 ـ 9 ـ 10 ربيع الأول 1412 (18 ـ 19 ـ 20 شتنبر 1991) إلى إخوانهم المغاربة سكان الأقاليم الصحراوية والذي تركز حول قضية وحدتنا الترابية، ودعوتهم إلى التشبث بوطنيتهم المغربية، والتفافهم حول عاهل البلاد، وعرشه العلوي المجيد.

وفيما يلي النص الكامل لهذا النداء :

إن العلماء المشاركين في الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية التي تنعقد تحت الرعاية السامية لأمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره.

اهتماما منهم بموضوع هذه الدورة في دراسة التوجيه التربوي الإسلامي من أجل بناء مجتمع حديث ملتزم بأحكام هذا الدين.

وتمسكا منهم بالنصوص الشرعية التي توجب الاعتصام بحبل الله المتين، امتثالا لقوله تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾.

وقوله عز وجل :

﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ وقوله: ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**﴾.

وانطلاقا من المعاني السامية التي هدفت إليها الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية وهي جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم.

ورعيا من العلماء لأهمية الدور التربوي لإيقاظ الهمم، وإحداث بعث ذاتي في نفس المسلم للتمسك بقيمه الدينية والوطنية المستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية وقواعدها.

واغتناما لفرصة انعقاد هذا اللقاء في شهر ربيع الأول ذكرى ميلاد سيدنا محمدﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وموحدا للناس أجمعين تحت راية هذا الدين القويم.

وانشغالا منهم بوحدة التراب الوطني، وما يتعرض له في هذه الظروف من مؤامرات داخلة في تفتيت العالم الإسلامي، وخلق كيانات مصطنعة، فإنهم يسجلون بكامل الاعتزاز تشبث المواطنين في الصحراء المغربية بوحدتهم الترابية، والتفافهم حول العرش العلوي المجيد والجالس على أريكته، ويحيون ثباتهم على المبدإ، وإيمانهم الصادق بقيمهم الدينية، وإخلاصهم في وطنيتهم، وأصالتهم المغربية الموروثة عن آبائهم وأجدادهم منذ أقدم العصور، تأسيسا على مبايعتهم للعرش العلوي الشريف المنيف أدام الله عزه وبقاءه، والتي هي أمانة في أعناقهم جميعا بكل أركانها وشروطها، وذلك امتثالا لقوله تعالى:

﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾.

ولقولهﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». هذه البيعة التي اعتمدتها وأكدتها الهيئة القضائية الدولية عند دراستها لملف الصحراء المغربية.

لهذا، فإن العلماء المشاركين في هذه الدورة يوجهون نداء إيمانيا إلى إخوانهم سكان الأقاليم الصحراوية، للوقوف صفا واحدا متراصا خلف أمير المومنين، وحامي حمى الوطن والدين، جلالة الملك المعظم الحسن الثاني أدام الله عزه ونصره، وبكل ما عهد فيهم وفي آبائهم وأجدادهم من تضحية ووفاء وإخلاص، إلى أن يتحقق النصر وينهزم أعداء الدين والوطن، ويعتبرون كل من خالف هذا النهج القويم والصراط المستقيم خارجا عن أمر الله تعالى الذي يقول فيه الله عز وجل:

﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

وقول رسول الله ﷺ:

«عليكم بالجماعة فإنما ياكل الذئبُ من الغنم القاصية».

هذا حكم الله في الموضوع نقدمه في هذا النداء لآبائنا وأبنائنا وأمهاتنا وإخواننا في الصحراء المغربية، ونبلغه إليهم في هذا الوقت بالذات، قياما بواجب النصيحة التي هي من الدين، لقوله ﷺ: «الدين النصيحة».

ونختم بقول الله عز وجل:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾.

دعوة

إلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين كتاب المجلة

استمرارا للدور الطلائعي الذي ظلت تضطلع به مجلة دعوة الحق في مجال رسالتها الإسلامية الخالدة،ووعيا بالمكانة المرموقة التي لها في الأوساط الثقافية والفكرية والعلمية داخل المغرب وخارجه، واعتبارا بأن المادة الخام والرصيد الهام لكل مجلة ثقافية هو ما يزودها به كتابها وقراؤها الكرام على اختلاف توجهاتهم وتخصصاتهم في العلوم والثقافة الإسلامية، والآداب والمعارف الإنسانية والحضارية.

يسعد هذه المجلة أن تدعو قراءها الفضلاء:أساتذة وباحثين وعلماء وأدباء، وأن تهيب بهم وتستنهض هممهم وتستحث أقلامهم للمشاركة المتواصلة، بكتاباتهم القيمة، والإسهام المتنوع والمبدع في المسيرة التي تنهض بها أمتنا الإسلامية، حتى تظل هذه المجلة الرائدة في المستوى العلمي والثقافي الرفيع الذي رسمه لها مؤسسها الأول باعث النهضة الإسلامية والفكرية جلالة المغفور له محمد الخامس ويريده لها خلفه البارّ، ووارث سّره الملهم أمير المومنين جلالة الحسن الثاني، وينشده القراء الدارسون، والباحثون المتخصصون الذين يجدون فيها ضالتهم المنشودة وبغيتهم المطلوبة من تنوع مباحث المعرفة الإسلامية،والآداب والعلوم الإنسانية.

وفق الله الجميع لخدمة العلم والدين، والوطن والمسلمين.

دعوة الحق

فهرس العدد

أبحاث ودراسات وقصائد

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع:
636.93
627.03
627.04
608.10

*

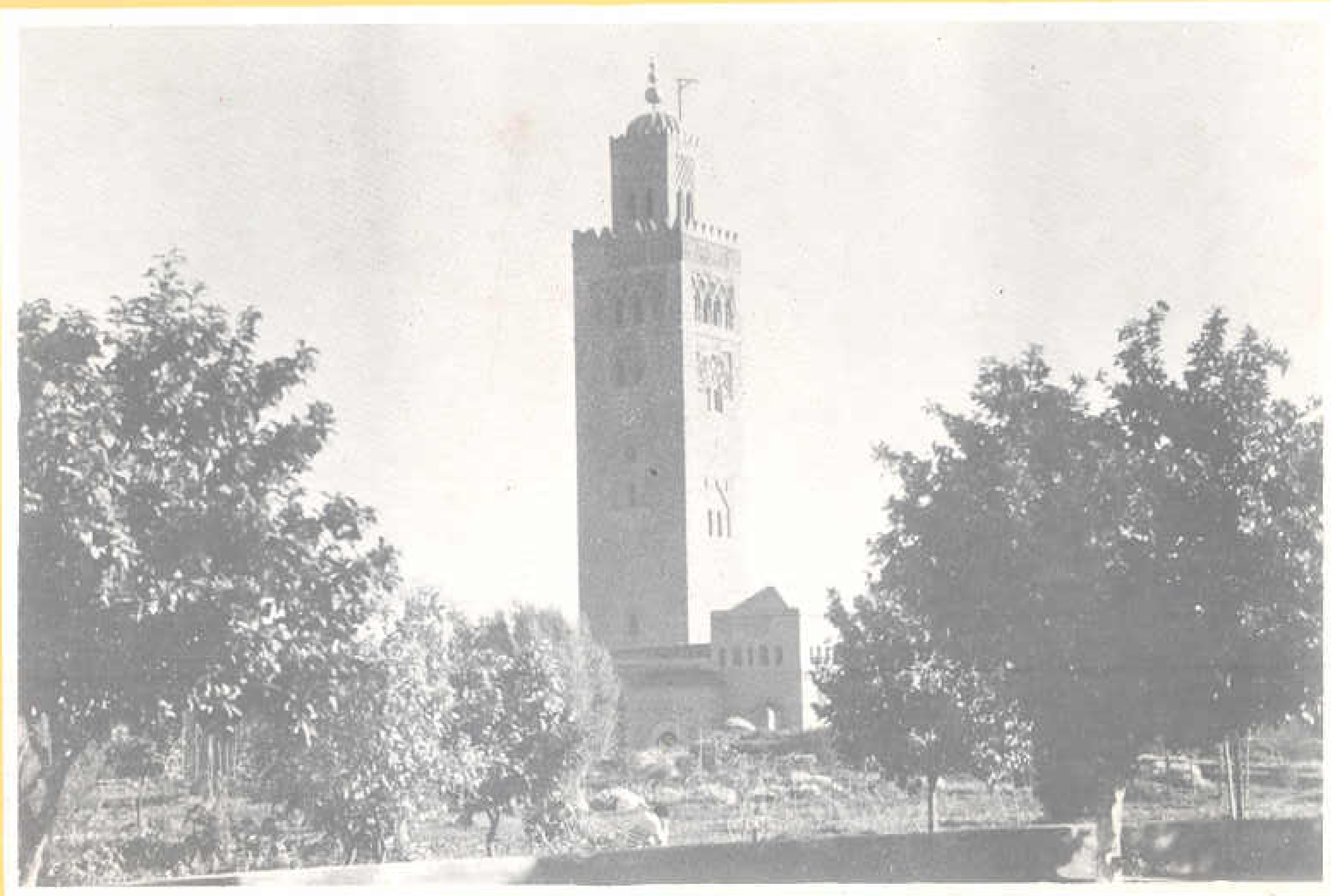
الاشتراكات: في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

ثمن العدد: 4,00 دراهم



صومعة مسجد الكتبية بمدينة مراكش

أحد المعالم الإسلامية البارزة لهذه المدينة العريقة التي انطلق منها
اروع قرار تاريخي بتنظيم المسيرة الخضراء المظفرة نحو الصحراء المغربية،
وشهدت أعظم حدث مغاربي بإنشاء اتحاد دول المغرب العربي.